# عنوان النبي

بقلم

محمد سعيد خضر

مؤسسة يسطرون للطباعة والنشر والتوزيع

رئيس مجلس الإدارة

عماد سالم

المدير العام

أحمد فؤاد الهادي

مدير الإنتاج

مصطفى عماد

الكتاب : عنوان النبي

تصنيف الكتاب : دراسة

اسم المؤلف : محمد سعيد خضر

الطبعة الأولي

المقاس: ١٤ ×٢٠

رقم الإيداع: ١٤٠٤٨/ ٢٠٢١م

الترقيم الدولى: 987-977-993-160-9

العنوان : ٣ش صفوت - محطة المطبعة شارع الملك فيصل - الجيزة

التليفون : ٠١٢٢٩٣٠٠٠٢٩ - ٠١١٥٧٧٦٠٠٥٢

Email : Yastoron@gmail.com

موقعنا على الفيس بوك : مؤسسة يسطرون لطباعة وتوزيع الكتب

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

# إهداء

إلى هَديَّة الله للعالمين
وهِداية الله للعالمين
إلى رسول الله ﷺ

# مقدمة

الحمد لله الذي تفضَّل على العباد بعبده المحمود، وأرسله رحمة صالحة تشمل كل موجود، وهدى به الخلق إلى الحق في كمال منشود، وأنار به كون الأرواح في جمال مشهود، وأطفأ به حمية الجاهلية في جلال مقصود....

الحمد لله الذي فتح لنبيه قلوب العباد فتحًا مبينًا، وأغلق له نفوس الشياطين غلقًا متينًا، وحنّن له طبع الجماد حنانًا مُعينًا، وأسقط له راية الأعداء سقوطًا مهينًا، وأعلى له كلمة الدين علوًّا مَكينًا .

أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، وأشهد أن سيدنا محمدا ﷺ عبده وسوله، البشير النذير .

**أما بعد...**

فكل آية في كتاب الله الكريم تحتاج منا إلى إعمال العقل بالفكر بغية إعمار القلب بالذكر، لكن آية عظيمة تجبر المتأمل

فيها على التوقف طويلا عند حدود معانيها عله يدرك أقاصي حدودها، والمذهل أن العقل كلما جرى بأقصى سرعة فكرية نحو أحد أطرافها أنهكه التعب دون أن يقطع منها شبرًا واحدًا...كأنه يجري مكانه، أو كأنها تتمدد على قدر ما قُطع منها...ثم يرفع العقل يديه إلى السماء ورأسه منكب على الأرض قائلا بصوت خاشع.. ﴿ **وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا** ﴾[ سورة الإسراء : ٨٥ ]... صدقت يا رب .

وكيف لعقل لا يفكر إلا بما يري ويسمع أن يدرك مراد الله الكامل من قوله لرسوله العظيم ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ** ﴾[ سورة الأنبياء :١٠٧ ] ؟! .

هناك أشياء تدرك بالكلية...وأشياء يدرك بعضها... وهذه الآية لا يُدرك منها شيء...ومهما كان فهو لا شيء .

ورغم ذلك سنبحر في معانيها ونجري في مقاصدها ...فربما نصل إلى بداية قريبة من شيء يدلنا على احتمالٍ لفهم جزءٍ محدودٍ من أبسط صورةٍ لمراد الله تعالى من خطابه لحبيبه ﷺ . ونسأل الله تعالى دوام التوفيق... وتمام التحقيق .

**محمد سعيد خضر**

# الحياة قبله

باهتة بكل ما فيها...

بسكانها ومساكنها...بأضوائها وضوضائها... بروحها وتراويحها .

كأنها الوحل بعد المطر.. والخواء بعد الريح... والدمار بعد الحرب !!

كأنها عجوزٌ لا تموت ولا تحيا...وسرابٌ لا يرحل ولا يبقى...وترابٌ لا ينمو ولا يفنى !!

ككل شيء، لم تجد المعاني النبيلة راحتها ولم تحظ بفرصتها...فتجبَّر الظلم على العدل، وتفحَّش الكذب على الصدق، وتغوَّل الباطل على الحق، وتكبرت القسوة على الحنان، وطغت الفوضى على الأمان، وانتصر الخراب على العمران، واستولى الكفر على الإيمان !!

العبد ليس له مصير، والفقير لا حظ له في التدبير!!

المرأة جزء من الميراث، والوأد جزاء الإناث !!

الغريب لا يُلتفت إليه، والمدين لا يُصبر عليه !!

وحدهم السادة ينعمون بالسعادة...يقرِّرون ما يحلو لهم، فيشقى فلان إن أرادوا، ويسعد متى شاءوا...لا يصعب عليهم شيء طالما أن الواقع يتوقف على إشارة أو لفظة تصدر عنهم...فيُحرق بيتٌ أو شخصٌ إن قالوا احرقوا... ويُعذَّب فقيرٌ إن قالوا عذِّبوا... وينتهك عِرضٌ متى أرادوا أن يستمتعوا... وتُفصل يدٌ أو قدمٌ عن جسد إن قالوا مزِّقوا...وتزهق روحٌ إن أشاروا للسهم أو الرمح أو السيف أن ينفذ... وتُغتصب أموالٌ إن فتحوا جيوبهم...وتُقطع يد سارق ضعيف وتُوصل يد سارق شريف بإشارتهم !!

الجميع في خدمة أفراد...والفرد ينهش في الأعراض ... والمجتمع تنهشه الأمراض !! مشورتهم عند هُبل .. وقسمهم باللات والعزى...فكانت قسمتهم ضيزى !!

باختصار... حياة بلا رحمة...

# رحمتـه بأهلـه ﷺ

# ظهور الرحمة

**رغم حكمته عقَّد السهل ...**

وعقد النيَّة على التضحية بواحدٍ من الأهل !! جلب الضَّرر للجميع بلا ضرورة، وسلب الدُّرر من نفسه بأقسى صورة !! سيد مكة أفزعها بإطلاق نذرٍ غريب لم تعهده من قبل...نذرٌ يقضي على الرَّحمة حدَّ الغلوّ، نذرٌ يُفضي بحياة الحبيب دون العدوّ !!

إن الرجل ليستبشر بقدوم الولد فيُغذِّيه، فكيف بعبد المطلب يطلب ـ من ربِّه ـ الولد ليُعزِّيه !! .. أهكذا تُشكر النِّعمة يا سيد مكة وحكيمها ؟! ما ذنب الولد أن يُذبح كالبعير على يد من كان سببًا لوجوده في الحياة ؟!..والمصيبة أن عبد المطلب لا يخلف نذره أبدًا، فالذَّبح واقعٌ لا محالة، إلا إذا حدثت معجزة علويَّة أوقفت التنفيذ، فإذا لم تكن معجزة فمن الطبيعي أن يُذبح من خرج سهمه .

ومن في مكة كلها قادر على إثناء سيدها عن قراره ؟ ومن فيها

قادر على الإبرار بنذر نتيجته ذبح ولده بيديه غير عبد المطلب ؟ يا ويل من يخرج سهمه في يد صاحب القداح عند هُبل، ستقطع رأسه حتمًا عند إساف ونائلة...فبئس الميتة الجائرة، والفجعة الغائرة .

قال ابن إسحاق ... « **وكان عبد المطلب بن هاشم قد نذر حين لقي من قريش ما لقي عند حفر زمزم، لئن وُلد له عشرة نفر، ثم بلغوا معه حتى يمنعوه، لينحرن أحدهم لله عند الكعبة...فلما توافى بنوه عشرة، وعرف أنهم سيمنعونه، جمعهم ثم أخبرهم بنذره، ودعاهم إلى الوفاء لله بذلك، فأطاعوه وقالوا : كيف نصنع؟ قال : ليأخذ كل رجل منكم قِدْحًا ثم يكتب فيه اسمه، ثم ائتوني ... ففعلوا، ثم آتوه، فدخل بهم على هُبل في جوف الكعبة ......**

**فقال عبد المطلب لصاحب القداح : اضرب على بنيَّ هؤلاء بقداحهم هذه ...وأخبره بنذره الذي نذر، فأعطاه كل رجل منهم قدحه الذي فيه اسمه، وكان عبد الله بن عبد المطلب أصغر بني أبيه ...**

وكان أحبَّ ولد عبد المطلب إليه، فكان عبد المطلب يرى أن السهم إذا أخطأه فقد أشوى، فلما أخذ صاحب القداح القداح ليضرب بها، قام عبد المطلب عند هبل يدعو الله، ثم ضرب صاحب القداح، فخرج القدح على عبد الله، فأخذه عبد المطلب بيده وأخذ الشفرة، ثم أقبل به إلى إساف ونائلة ليذبحه، فقامت إليه قريش من أنديتها، فقالوا : ماذا تريد يا عبد المطلب ؟ قال : أذبحه، فقالت له قريش وبنوه : والله لا تذبحه أبدا حتى تُعْذِر فيه، لئن فعلت هذا لا يزال الرجل يأتي بابنه حتى يذبحه، فما بقاء الناس على هذا !! وقال له المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم بن يقظة . وكان عبد الله ابن أخت القوم : والله لا تذبحه أبدا حتى تعذر فيه، فإن كان فداؤه بأموالنا فديناه، وقالت له قريش وبنوه : لا تفعل، وانطلق به الى الحجاز، فإن به عرافة لها تابع، فسلها، ثم أنت على رأس أمرك، إن أمرتك بذبحه ذبحته، وإن أمرتك بأمر لك وله فيه فرج قبلته...

فانطلقوا حتى قدموا المدينة فوجدوها ـ فيما يزعمون ـ

بخيبر، فركبوا حتى جاءوها، فسألوها، وقص عليها عبد المطلب خبره وخبر ابنه، وما أراد به ونذره فيه، فقالت لهم : ارجعوا عني اليوم حتى يأتيني تابعي فأسأله...فرجعوا من عندها، فلما خرجوا عنها، قام عبد المطلب يدعو الله، ثم غدوا عليها، فقالت لهم : قد جاءني الخبر، كم الدَية فيكم ؟ قالوا عشر من الإبل، قالت فارجعوا إلى بلادكم، ثم قربوا صاحبكم، وقربوا عشرا من الإبل، ثم اضربوا عليها وعليه بالقداح، فإن خرجت على صاحبكم فزيدوا من الإبل حتى يرضى ربكم، وإن خرجت على الإبل فانحروها عنه، فقد رضى ربكم، ونجا صاحبكم ...فخرجوا حتى قدموا مكة، فلما أجمعوا على ذلك من الأمر، قام عبد المطلب يدعو الله، ثم قربوا عبد الله وعشرا من الإبل، وعبد المطلب قائم عند هُبل يدعو الله عز وجل، ثم ضربوا فخرج القدح على عبد الله، فزادوا عشرا من الإبل، فبلغت الإبل عشرين، وقام عبد المطلب يدعو الله عز وجل، ثم ضربوا فخرج القدح على عبد الله، فزادوا عشرا من الإبل، فبلغت الإبل ثلاثين، وقام

عبد المطلب يدعو الله عز وجل، ثم ضربوا فخرج القدح على عبد الله، فزادوا عشرا من الإبل، فبلغت الإبل أربعين، وقام عبد المطلب يدعو الله، ثم ضربوا، فخرج القدح على عبد الله ، فزادوا عشرا من الإبل، فبلغت الإبل خمسين، وقام عبد المطلب يدعوا الله، ثم ضربوا فخرج القدح على عبد الله، فزادوا عشرا من الإبل، فبلغت الإبل ستين، وقام عبد المطلب يدعو الله، ثم ضربوا فخرج القدح على عبد الله، فزادوا عشرا من الإبل، فبلغت الإبل سبعين، وقام عبد المطلب يدعو الله، ثم ضربوا فخرج القدح على عبد الله، فزادوا عشرا من الإبل، فبلغت الإبل ثمانين، وقام عبد المطلب يدعو الله، ثم ضربوا فخرج القدح على عبد الله، فزادوا عشرا من الإبل، فبلغت الإبل تسعين، وقام عبد المطلب يدعو الله، ثم ضربوا فخرج القدح على عبد الله، فزادوا عشرا من الإبل، فبلغت الإبل مئة، وقام عبد المطلب يدعو الله، ثم ضربوا فخرج القدح على الإبل، فقالت قريش ومن حضر : قد انتهى رضا ربك يا عبد المطلب..... »[(١)] .

(١) السيرة النبوية لابن هشام (١، ١٥١ ــ ١٥٥ )

ثم نُحرت الإبل ولم يُمنع عنها إنسان ولا سبع .

وعاش عبد الله ... عاش وقد احتمل أبوه دية عشر رجال...لكنها لا شيء مقارنة ببقاء شبابه النَّضر، وعبد المطلب أفرح الناس بذلك، كيف لا وقد نجا الحِبّ وانقطع الذَّنب .

وهذا المشهد العظيم ـ للوهلة الأولى ـ يُصنَّف فيه عبد المطلب بالسيد الوفي لله بنذره، وبالمحب لولده ...

ويُصنَّف فيه عبد الله بالولد المطيع لوالده، حتى لو كان الأمر فناء الروح بشفرة تحز الرقبة...

ويُصنّف فيه أهل مكة بالشهامة والنجدة...

ويُصنَّف فيه أبناء عبد المطلب باحترام الوالد والحرص على الأخ...

وتُصنَّف فيه العرَّافة هي وتابعها بالحكمة .

قل ما شئت عن الواقعة، فمهما قيل فهو مناسب للحدث... والذي نبحث عنه موجود وبكثرة في هذا الموقف، بل هو

غلاف كل واقعة تفصيلية اكتمل بها الموقف حتى وصل إلى نجاة عبد الله من الذبح .

والمتأمل بعمق يلحظ غشيان الرحمة بصورتها الكاملة هنا، والسبب الوحيد لذلك هو أثر سبق ظهور رحمته ﷺ على ظهور جسده بفضل الله ورحمته عليه..

ومن يعتقد أن الله لم يهيئ لحبيبه ﷺ الزمان والمكان والأحوال والأشخاص فهو قاصر الحكمة ناقص الأدب... كيف لا وقد حفظ له نسبه من لدن أبيه آدم وصولا إلى أبويه الشريفين ...حيث يقول الحبيب المصطفى في ذلك.. «خَرَجْتُ مِنْ نِكَاحٍ، وَلَمْ أَخْرُجْ مِنْ سِفَاحٍ، مِنْ لَدُنْ آدَمَ إِلَى أَنْ وَلَدَنِي أَبِي وَأُمِّي»[(١)] .

رغم انتشار الفواحش واختلاط الأنساب، إلا إنه قد رُوعيَ ﷺ بين الأصلاب...وإذا كان قد رُوعي في صلب آدم في الجنة، وفي صُلب إبراهيم في النار،

(1) أخرجه الطبراني في ( المعجم الأوسط ) (4728)

وبينهما في صلب نوح في السفينة، وبعدهم في صلب إسماعيل ساعة الفداء العظيم...فكيف لا يُراعى في حياة أبيه، ووفاء جده، وإخلاص أعمامه، وشهامة قومه ؟! كيف لا يُراعى وقد قال له ربه ﴿**فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا**﴾ [ سورة الطور : ٤٨ ]... ؟؟

كيف لا يُراعى وقد مكنه الله لأن يكون مركزا للرحمة في الأكوان ؟؟

وبالعودة الى المشهد الذي بين أيدينا، نلاحظ حجم الرحمة المنزلة على بني هاشم وسائر الخلق...وكلها تقديرٌ وتقريرٌ لجاه رسول الله ﷺ...

**أولًا...الرحمة بعبد الله....**

كان سيُحرم من حياته في سبيل كلمة خرجت من لسان أبيه، وقدح أحمق اختاره دون تسعة من إخوانه، وهو في كلِّ لم يُذنب ولم يختر، إنما يفنى أجل أن تبقى كلمة أبيه صادقة... لكنه بقي لأجل ما في صلبه من شرف قادم لا محالة، ولولا الذي في صلبه لذُبح، وما استطاع كائن أن يصرف عبد

المطلب عن الوفاء بنذره...

والذي يدل على ذلك أنه لما نجا من الذبح أخذه والده ليزوجه كريمة سيد بني زهرة، فاعترضته قرشية جميلة لبيبة حرَّة وثرية، عرضت عليه الزواج ولو كلفها الأمر أن تدفع له من الإبل مثل الذي ذُبح له، ومثل ذلك لا يُعرض ولا يُرفض، غير أن والده كان له رأي غير الذي رأته وأرادته، فاستمر به إلى بيت وهب بن عبد مناف وزوجه أكمل نساء العصر شرفًا وطهارةً وحسبًا ونسبًا آمنة بنت وهب .

ولما حملت منه أفضل الخلق ﷺ، تعرَّض عبد الله لهذه القرشية قائلا لها « **مالك لا تعرضين عليَّ اليوم ما كنتِ عرضتِ عليَّ بالأمس ؟؟...قالت له : فارقك النور الذي كان معك بالأمس، فليس لي بك اليوم حاجة...** »[1]، وما هي إلا أشهر قليلة حتى سافر عبد الله للتجارة ولم يعد بعدها أبدًا .

لقد أوصل الرسالة التي خُلق ونجا من الذبح لأجلها إلى بطن آمنة بنت وهب...الآن يموت، لأنه لا يمكن أن يكون

(1) البداية والنهاية لابن كثير ( ٢ / ٣٠٧ ـ ٣٠٨ )

لرسول الله أب يرعاه ويعلمه...فالله قد تكفل له بذلك وهو أولى من البشر وأقدر على حفظه...وقد أقرَّ الحبيب ﷺ بعناية الله له كثيرًا حينما اكتملت له الأبوَّة والنُّبوَّة .

فالذي يُفهم من ذلك، أن عبد الله كان أحب ولد أبيه إليه، وأنه قد نجا من الذبح على يديه، لما كان من نور بين عينيه ...وتلك رحمة لا تُنكر .

**ثانيًا...الرحمة بعبد المطلب....**

كان سيشقى كثيرًا إذا جرى الأمر طبيعيًا وذُبح أحب بنيه، ويُضاعف مرارة الشقاء ما لو تم الأمر بشفرته وعلى يديه ...ربما أعيته الفاجعة حتى مات محسورًا، أو عاش يلعن لسانه الذي نذر، ويده التي نفَّذت، وإن كان القدر به رحيمًا سرى إليه الجنون حتى ينفصل عن اللحظة وما تحمله من وجع...

لكن ولده قد عاش رأفةً بحاله، ومكافأة لحسن نيته في الوفاء بنذره...ولو خرج القدح على غيره ـ مهما كان هذا الغير ـ لأصبح عبد المطلب أول رجل يذبح ولده في العالمين،

ثم يلاحقه العار والدمار إلى الأبد..

لكن الله أكرمه برفع نذره حينما اختار له عبد الله كرامةً لما في صلبه، فكان عبد المطلب أسعد الناس بما أراده له القدر .

**ثالثا...الرحمة بأعمام رسول الله ...**

من حسن قدرهم أن القدح الذي خرج كان لعبد الله (المحصَّن) دونهم، ولو خرج قدح أحدهم ـ غيره ـ لذُبح في الحال، دون أن يتألم عبد المطلب نفس الألم الشديد، ودون أن يتدخل أهل مكة في الأمر الخاص نفس التدخل الرشيد، ودون أن يقبل عبد المطلب شفاعتهم إن تدخلوا في الواقع الأكيد...لأنه لو لم يكن عازمًا على إنفاذ نذره لما جمعهم وأخبرهم بالذي قد كان منه، وما طلب منهم أن يكتبوا أسمائهم عند صاحب القداح فيضربها عند هُبل .

لم يكن بحاجة لهذه الضجة المرعبة إن كان الأمر مجرد تهديد لا يحمل في طيَّاته همَّة التنفيذ...لا شك أن عبد المطلب أراد وقرر وكان قادرًا على التنفيذ، لكن الرحمة تدخلت لما وقع القدح على ( المحصَّن )، ولولاه لكان الوفاء بالنذر دون

تردد، ودون عناء الذهاب بعيدًا لعرَّافة تنسج الحل .

من كان سيمنع عبد المطلب إن اختار القدح الحارث أو الزبير أو المقوم أو حجلًا أو ضرارًا أو أبا طالب ( عبد مناف ) أو أبا لهب ( عبد العزى ) أو العباس أو حمزة ؟؟... ليس في أصلابهم رسول الله ﷺ، وعبد المطلب سيد قراره... إذًا فمن رحمة الله بهم أن خرج قدح عبد الله دونهم .

**رابعا...الرحمة بالناس جميعا....**

لو خرج قدح أحد التسعة غير عبد الله، أو كان لعبد الله والرسول في صُلب غيره لكان الذبح...وكانت سنة سيئة عن سيد مكة يتوارثها الناس كلما رُزقوا كثرة الولد، فينتشر الذبح ويألفه الطبع كما البهائم والأغنام ...ثم يتضاءل البشر ويفتقر النسل، وتُمحى فروعٌ كان لها أن تُحمى وتزدهر وتكثر، وكل ذلك بسبب أن عبد المطلب مرَّر شفرته على رقبة ولده وسالت الدماء...!!

لكن الرحمة سبقت، فأبقت الجنس البشري على فطرته، ولم يُقطع من الشجرة فرعٌ أُريد له الحياة .

فالذي يتضح بعد طول تفكُّرٍ، أن أفضل اختيار لخروج قدحٍ كان لعبد الله بن عبد المطلب دون سائر إخوانه التسعة، وأنً الأمر كان فيه سعة، رغم أنه للوهلة الأولى صادم ومفزع، إلا أنه قد بدا الأنسب له ولإخوانه ولأبيه وللناس جميعا... فخروج القدح لعبد الله كان في باطنه رحمة عامة، مستمدة من الرحمة التي كانت في صلبه، منحة من الله تعالى لحبيبه ﷺ .

وقد يقول قائل : ربما كان أفضل اختيار للقدح هو أبو لهب وليس عبد الله...لأنه كان سيُذبح دون أن يُؤذي رسول الله بعد ذلك بالقول والفعل .

والجواب...لو خرج القدح لأبي لهب لذُبح، فانتفت الرحمة، ليس لأنه ذُبح لذاته، إنما لتحول الذبح إلى سنة تتناقل فيها الشفرات، وتُضرب فيها الرقاب، وتُسال فيها الدماء البريئة، وتتوارث فيها اللعنات إلى بني هاشم كونهم أهل هذه السنة ومبدأها...فأين الرحمة في موت أبي لهب إذا حُرمها الناس به ؟

وقد يتبادر إلى الذهن سؤال بديهي...لماذا اختار القدح عبد الله عشر مرات حتى وصلت الإبل مائة،أما كان يمكن

أن يقع الاختيار على الإبل من مرة أو اثنتين أو خمس...لماذا بعد العاشرة ؟؟

والجواب... لله في ذلك حكمة لا نعلمها...ربما أراد أن يُعاقب عبد المطلب لإطلاقه نذرًا غريبًا كهذا، فأفقده مائة من الإبل كفارة له ...

وربما أراد الله أن يكون عبد الله نائبًا عن بني أبيه العشرة، فاختاره القدح عشر مرات، فيُفدي بذلك الأولاد العشرة بعشر ديات تُدفع عنهم جميعا...

وربما أراد الله عز وجل أن يُظهر لعبد المطلب أن هذا الولد الذي هممت بذبحه يساوي بنيك العشرة بمفرده، ولذلك سيُفدى بعشر ديات تعادل مقامه.

وقد تخطر على القلب خاطرة...لما كل هذه الجلبة... كان الأفضل من كل هذا التدافع أن يمنع الخالق سبحانه وتعالى عبد المطلب من إطلاق نذره من الأساس، أو أن يُنسيه إياه بعدما أطلقه، ويرتاح الجميع...فما الداعي لكل ذلك ؟! والجواب...لو أن الأمور تُدار من الخالق بهذا المنهج ( المريح) لفسد الكون، وتعطلت صفاتٌ عن القيام بوظائفها...وفي

هذا الموقف تحديدا لم تكن الأفضلية للمنع أو النسيان، لأن عدم وجود النذر يعني عدم وصول رحمة رسول الله ﷺ لأبيه وجده وأعمامه، والله سبحانه وتعالى يقول ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ ﴾، فكيف يكون رحمة للجميع دون أقرب الناس إليه ؟!...لو لم يكن هناك نذر لما كان ثمَّة محنة الذبح، وما كانت هناك منحة النجاة، فلا ينتفع أصل النبي برحمته التي أُرسل بها، ومن ثم يكون قوله تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ ﴾ ..غير واقع على كل من في العالمين، لعدم وقوعه على أقرب من في العالمين إليه، رغم كونهم أولى بالرحمة من جميع من سواهم، وقد قال رسولنا الكريم ﴿ خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي ﴾ [1]، والرحمة أعلى مراتب الخيرية، ويترتب على ذلك أن حدوث ذلك النذر كان لازمًا لحصول انتفاعهم بولدهم وسيدهم، وسببًا لظهور رحمته لهم .

(1) الشوكاني ( فتح القدير ١ \ ٦٣٥ )

## آمنة...

عن أبي أُمامة الباهلي قال « **قلت يا نبي الله ما كان أول بدء أمرك ؟.. قال دعوة أبي إبراهيم وبشرى عيسى ورأت أمي أنه يخرج منها نور أضاءت منها قصور الشام** »[1] .

وعن عبد الله بن وهب بن زمعة عن أبيه عن عمته قالت: **كنا نسمع أن رسول الله ﷺ لما حملت به آمنة بنت وهب كانت تقول: ما شعرت أني حملت به ولا وجدت له ثقلة كما تجد النساء، إلا أني قد أنكرت رفع حيضي وربما كانت ترفعني وتعود. وأتاني آت وأنا بين النائم واليقظان فقال هل شعرت أنك حملت فكأني أقول ما أدري، فقال: إنك قد حملت بسيد هذه الأمة ونبيها وذلك يوم الاثنين، قالت: فكان مما يقن عندي الحمل. ثم أمهلني حتى إذا دنا ولادتي أتاني ذلك الآتي فقال: قولي أعيذه بالواحد الصمد من شر كل حاسد. قالت: فكنت أقول ذلك فذكرت ذلك لنسائي فقلن لي تعلقي حديداً في عضديك وفي عنقك، قالت: ففعلت: قالت: فلم يكن ترك علي إلا أياماً فأجده قد قطع، فكنت لا أتعلقه، قال وأخبرنا**

(1) مسند الإمام أحمد بن حنبل ( ٥ \ ٢٦٢ )

**محمد بن عمر بن واقد قال: حدثني محمد بن عبد الله عن الزهري قال: قالت آمنة: لقد علقت به فما وجدت له مشقة حتى وضعته »**[1].

من كل سوء آمنة ... في كل خيرٍ كامنة ...

أعظم أمهات العالمين حظًّا، وأكثرهن شرفًا وقدرا، وأعلاهن رفعة وطُهرا... وكل امرأة تتمنى ـ في أقصى أمانيها ـ أن تكون أُمًّا لولدٍ نبيهٍ وسيم، ولد يرفع سيرتها أو لا تنتقص بأفعاله مكانتها، ولد تتشرف به بين أهلها وجماعتها، ولد يرعاها في شيخوختها، وينفعها بدعائه بعد انتهاء رحلتها، ولد يسير على نهج بني جلدتها .

لكن آمنة تكرَّمت بما لا تتخيله امرأة...فلم يكن ولدها فارسًا من الفرسان، ولا سيِّدًا من السادة، ولا فصيحًا من الفصحاء، ولا حكيمًا من الحكماء، ولا نابغة من النُّبغاء، ولا وسيمًا من الوسماء، ولا حتى نبيًّا من الأنبياء...لم يكن واحدًا من جماعة في شيء من صفاته ومواصفاته، إنما كان فوق المتفوِّقين من البشر في كل شيء، فهو الأشجع والأفصح

(1) الطبقات الكبرى لابن سعد ( ١ \ ٩٨ )

والأحكم والأنبغ والأوسم، وهو سيد الأنبياء والمرسلين، وحبيب رب العالمين .

شرفٌ ما بعده شرف، وكرامةٌ لا يعلوها ترف .

أن يختارها الخالق لتكون أُمًّا لأعظم خلقه ﷺ من بين مليارات النساء عبر التاريخ الممتد لآلاف السنين فلا شك أنه شرف عظيم...أن يُبقيها الله في عالم الذَّر من يوم خلق آدم عليه السلام إلى صُلب وهب بن عبد مناف بن زهرة لتكون جديرة ولائقة بعمرها وعملها ونسبها وحيائها لعبد الله بن عبد المطلب أكثر من غيرها من جميع المحسَّبات المنسَّبات الجميلات الراغبات فيه فلا شك أنها كرامة فائقة .

ولا يحسبنَّ أحدٌ أن الأمر عاديٌّ لا مزيَّة فيه، أو أنه مجرد مصادفة غير مرتَّبة من الله عز وجل لها، إنما هو منتهى المزايا ومبلغ الترتيب الدقيق من لدن حكيم خبير.. وكل ما في الكون خاضعٌ لترتيبه وعلمه وحكمته ﴿ **وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ** ﴾[ الأنعام : ٥٩ ]

فكيف يغفل عن ترتيب أمرٍ يتعلق بحبيبه الأعظم ﷺ ؟؟ لقد رتَّب الله له خير أُمَّةٍ أُخرجت للناس، وأصعب ظروف يواجهها بشريّ، وأفضل أصحاب حول نبيّ، وأضلَّ أعداء لأكثر رسول سلميّ، وأفصح قومٍ أمام لسان عربيٍّ أُمِّيّ...كما رتَّب له أزواجه وأولاده وذريَّته إلى يوم الدين...وإذا كان قد تخيَّر له كل ذلك فكيف لا يتخيَّر له البطن التي تحمله تسعة أشهر قبل بزوغه إلى الدنيا ؟! ووقع الاختيار على آمنة بنت وهب...يا لها من نعمة لا تُحصى ولا تُهب .

وقد كانت سيدتنا قبل حملها مجرد امرأة يسري عليها ما يعتري جميع البشر في أيامهم ولياليهم من ضيق وحزن، وخوف وألم، وجوع وعطش، وحرّ وبرد، وضعف وأرق، وفتور ونفور، وغيرها مما لا ينفصل عن الناس طوال الأيام والشهور. وإذا كانت هذه الأنماط تتعاقب على البشر بشكل دوري، فإنها تتضاعف للحامل بالمنسوب القياسي ، وكل حامل تعاني أعراضًا متغايرة كل ساعة، وكلما اقتربت ساعة الولادة اشتدَّ تعبها، وثقُل عليها جنينها، وهاجت أنفاسها، وتقلَّصت حركتها، وانطفأت نضارتها، ثم تمنَّت انفصال ما في بطنها عنها كي تجد راحتها وحرِّيتها .

لكن آمنة بمجرد حملها وجدت غير ذلك !!

لا شيء يُضايقها أو يحزنها !!...

لا شيء يُخيفها أو يؤلمها !!...

لا جوع ولا عطش !!...

لا حرَّ ولا برد !!...

لا ضعف ولا أرق !!...

لا فتور ولا نفور !! ..

كأنها لم تحمل بجنين !!

والأدهى أنها تشتدُّ كلما اقتربت الولادة، وتطيب أنفاسها زيادة، وتسهل حركتها بلا هوادة، وتشرق نضارتها بأنوار السعادة، كأنما عابدة تستريح بالعبادة !!

فكان أفضل عُمْرٍ شعرت فيه السيدة آمنة بالصحة والعافية والنشاط والسرور على الإطلاق تلك التسعة أشهر المباركة التي عاشها رسول الله ﷺ في بطنها حتى انفصل عنها.. لأنه رحمة للعالمين، ولا يمكن أن يكون رحيما بالمفسد

والمصلح، والمسلم والكافر ثم يقسو على أمّه التي تحمله بداخلها، وترعاه في أكلها وشربها، وترجو له حياة طيبة ... لا يمكن أن يُشعرها ـ بفضل الله ـ بما تشعر به الوالدات ساعة الولادة من طلْق، وحياة أشبه بالموت من الألم، وصراخ يملأ المحيط... لم تشعر بشيء أبدًا !! ...

ولو توفرت كل عوامل الأمان وسبل الراحة في أفضل مستشفى ولادة في العالم ما استطاعت أن تقدم لأي والدة ـ مهما بلغت درجة أهميتها ـ جزءًا محدودًا من الأمان والراحة مما قُدم للسيدة آمنة...لأنه رحمة للعالمين، فليس كل مولود كمولود الرحمة .

لقد فازت آمنة بوليدها المعظَّم في الأرض والسماء، فازت برحمة الله التي أودعها فيه، فكل حامل تحمل مع جنينها الهم، وآمنة حملت مع رسول الله ﷺ النِّعم، فأكرمها الله به أيما كرم .

ويصعب علينا سماع قول القائلين بعدم نجاة آمنة وعبد الله من النار...ورغم أن هذا الفريق له أدلة على زعمه إلا أننا لا نعتقد هذا الرأي ولا نستسيغه، كما أننا لن نذكر مناقشات المعارضين لأدلتهم، فموضوع الكتاب ليس لعرض الأدلة

ومناقشتها وبيان الراجح منها... لكننا سننظر إلى الأمر بمسلك الكتاب .

أيعقل ؟!... والدا رسول الله ﷺ يُعذَّبان؟!

وكيف يرسله الله رحمة للعالمين فيدخلهم الجنة ثم يحرم منها عبد الله وآمنة ؟!

كيف ينتفع به الإنس والجن، والعُرب والعجم، ولا ينتفع به أبواه ؟! إن الذي كرَّم مرضعات نبيه الثلاث ـ حليمة وثويبة وأم أيمن ـ بالإسلام ثم الجنة، لن يمنع أمَّه الأصلية عنها لأنه أماتها قبل البعثة زمن الفترة .

إن الذي خفَّف عن آمنة مصاعب الحمل في الدنيا لن يُصعِّب عليها أمر الآخرة .

إن الذي جبر جميع أنبيائه ورسله بنجاة أمهاتهم لن يكسر بخاطر حبيبه ﷺ بهلاك أمِّه .

إن الذي شَّرف النبي بعدم خزيه في أمَّته لن يُخزيه في أمِّه .
إن الذي نجَّى عبد الله ـ لأجل ولده ـ من الذبح لن يهلكه في الجحيم .

إن الذي اختار عبد الله ـ دون سائر العالمين ـ ليكون والدًا لخير الأنبياء والمرسلين لن يتخير له العذاب في الآخرة بحجة أنه مات في زمن الفترة .

إن الذي وسعت رحمته كل شيء لن تضيق بأبوي حبيبه ﷺ .

إن الذي حرَّم النَّار على أجساد مسَّت جسد رسول الله ﷺ لن يستحلها للبطن التي حملته تسعة أشهر دون انفصال، والصُّلب الذي آواه لسنوات قبل الزَّواج .

إن الذي قال ﴿**وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا**﴾ [ **الاسراء : ١٥** ][1] لن يستثني أبوي النبي ﷺ بالعذاب دون سائر أهل الفترة .

إن الذي منع المسلمين من إيذاء النبي ﷺ لن يؤذيه في أبويه .

لأجل رسول الله ﷺ كانت السلسلة كلها طاهرة من السفاح، فكيف لا تكون طاهرة من الشرك الذي هو

(1) سورة الإسراء ( ١٥ )

أنجس؟! ... وكيف لا تكون ناجية من العذاب الذي هو أقبح؟! لأجل بروز النبي ﷺ إلى الدنيا، وتحقيق قول الله تعالى ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ**﴾ تزوج عبد الله وآمنة، فاستحقا من الله كمال رحمة ولدهما فيهما في الدنيا والآخرة .

## رحمات بعد الموت

جاهه مسنود، ومقامه محمود، وأثره مرصود .

في الدنيا له اعتبار، وفي البرزخ له اختيار، وفي الآخرة له قرار... حينما أرسله ربه للعالمين رحمةً لم يخصها بالدنيا، بل إنها أقل دار يحتاج فيها العالمين للرحمة المحمدية، فما أحوجهم إلى استغفاره وشفاعته بعد موتهم، وعند عرضهم على ربهم...ما أحوجهم إلى شربة من يده الشريفة يوم العطش الأكبر...ما أحوجهم إلى وقوفه بجانبهم إذا جاءت الصَّاخة ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [ سورة عبس] ما أحوجهم إلى قلبه الرَّحيم حينما يضيق الحال بالأمم، ويعلن الأنبياء عدم قدرتهم على فعل شيء لهم، فيقف رسول الله ﷺ موقفًا عظيمًا لأمته، وقد تكرر منه ذلك ﷺ في الدنيا، وسيكررها كثيرًا في الآخرة .

عَنْ عَبْدِ الله بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ : **أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: تَلَا قَوْلَ الله عَزَّ وَجَلَّ فِي إِبْرَاهِيمَ: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي﴾**[سورة إبراهيم :

٣٦ ]، **وَقَالَ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾** [سورة المائدة : ١١٨ ] **فَرَفَعَ يَدَيْهِ وَقَالَ: اللهُمَّ أُمَّتِي أُمَّتِي ، وَبَكَى، فَقَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: «يَا جِبْرِيلُ اذْهَبْ إِلَى مُحَمَّدٍ، وَرَبُّكَ أَعْلَمُ، فَسَلْهُ مَا يُبْكِيكَ؟) فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فَسَأَلَهُ فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِمَا قَالَ، وَهُوَ أَعْلَمُ، فَقَالَ اللهُ : ( يَا جِبْرَيلُ، اذْهَبْ إِلَى مُحَمَّدٍ، فَقُلْ: إِنَّا سَنُرْضِيكَ فِي أُمَّتِكَ، وَلَا نَسُوءُكَ»** .[1]

لقد كان رسول الله ﷺ ـ وسيظل ـ هو الحصن الآمن للخلق من عذاب الله المُقاد، والسبب الرئيسي لصلاح أحوال العباد، والسبيل الحقيقي لتخفيف أهوال يوم التَّناد، والمصدر الطبيعي لإنتاج الرحمة الصافية لتحقيق المراد .

وقد ربح المسلمون السعادة الحقيقية في الدنيا والآخرة حينما قبِلوا رحمة رسول الله ﷺ بصورتها الكاملة، أمَّا أولئك الذين رفضوها فقد خسروا خسرانًا مبينا، غير أن بعضهم قد

(1) صحيح مسلم ( ٢٠٢ )

قدَّم لرسول الله ﷺ طرفًا من الخير دون الإسلام، فرُدَّ ذلك عليهم برحمة تناسب مقام رسول الله ﷺ عند ربه ذي الجلال والإكرام .

**أولًا...أبو طالب**

المحزن أن رجلا أقرب إلى رسول الله نسبًا ومنزلة من أي أحد تنازل عن الرحمة الكاملة لأسباب لا تبدو منطقية عند مقارنة الإسلام بالشرك...!! عبد مناف بن عبد المطلب، وشهرته أبو طالب.. العم الشقيق لرسول الله ﷺ، وكافله بعد جده عبد المطلب، ومانعه الأوحد في أرض لا مانع فيها، وقرة عينه من أصله الذي بقى بعد الأبوين والجد .

تسلم بعد أبيه سيادة مكة، ومعها تسلم كفالة سيد ولد آدم...كان يحب ابن أخيه أكثر من حبه لأبنائه، ويهتم لأمره ويرعى شأنه، فيفزع عليه إن غاب ويسعد إن حضر، حتى أنه لتعلقه اصطحبه معه في السفر، ولما أخبره الراهب بحيرى بما يكون للشاب من شأن وخبر، عاد به إلى مكة حذرًا عليه من يهود يريدون تغيير القدر... ثم خطب إليه السيدة خديجة، وسعى قدر استطاعته لإتمام

هذه الزيجة.... ولما بدأت الرسالة للحبيب المصطفى سرًّا، لم يُنكر عليه قولا أو فعلا، ولم يحجب ولده عليًا كرم الله وجهه أن يكون أول من أسلم صبيًا، وثاني من أسلم من الناس كافة بعد سيدة نساء العالمين، خديجة زوج نبينا الأمين .

ولما صدع رسول الله برسالته بأمر من الله بعد ثلاث سنوات سرية ﴿**فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ**﴾ [سورة الحجر : ٩٤ ] ...وقف أبو طالب حائط صدٍّ بينه وبين كبار مكة، وأعلنها صراحة لهم وله، أنه لن يسلمه إليهم ما بقى حيًا ولن يخلصوا إليه بسوء قط، ورفض كل الإغراءات فيه، وتحمل معه المشقة في شعاب مكة القاسية لثلاث سنوات صحبة بني هاشم غير أبي لهب، ثلاث سنوات قاطعهم فيها البشر، وحاصرهم فيها الجوع، وأعياهم فيها الخذلان، وخاصمهم فيها الخلَّان ...لكنه احتمل نصرةً لابن أخيه، وانتصارًا للحق فيه .

كان جديراً أن يسمى ذلك العام الذي رحل فيه رفقة السيدة خديجة عام الحزن .

وكان جديراً بأبي طالب أن يموت على الإسلام حتى يستمتع بالرحمة الكاملة .

عن المسيب بن حزن ـ رضي الله عنه : **لَمَّا حَضَرَتْ أبَا طَالِبِ الوَفَاةُ، جَاءَهُ رَسولُ اللَّهِ ﷺ فَوَجَدَ عِنْدَهُ أبَا جَهْلٍ، وعَبْدَ اللَّهِ بنَ أبِي أُمَيَّةَ بنِ المُغِيرَةِ، فَقالَ: أيْ عَمِّ قُلْ: لا إلَهَ إلَّا اللَّهُ كَلِمَةً أُحَاجُّ لكَ بهَا عِنْدَ اللَّهِ فَقالَ أبو جَهْلٍ، وعَبْدُ اللَّهِ بنُ أبِي أُمَيَّةَ: أتَرْغَبُ عن مِلَّةِ عبدِ المُطَّلِبِ؟ فَلَمْ يَزَلْ رَسولُ اللَّهِ ﷺ يَعْرِضُهَا عليه، ويُعِيدَانِهِ بتِلْكَ المَقالَةِ، حتَّى قالَ أبو طَالِبٍ آخِرَ ما كَلَّمَهُمْ: علَى مِلَّةِ عبدِ المُطَّلِبِ، وأَبَى أنْ يَقُولَ: لا إلَهَ إلَّا اللَّهُ، قالَ: قالَ رَسولُ اللَّهِ ﷺ: واللَّهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لكَ ما لَمْ أُنْهَ عَنْكَ فأنْزَلَ اللَّهُ: ﴿ما كانَ للنبيِّ والذينَ آمَنُوا أنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ﴾** [سورة التوبة : ١١٣ ] **وأَنْزَلَ اللَّهُ في أبِي طَالِبٍ، فَقالَ لِرَسولِ اللَّهِ ﷺ: ﴿إنَّكَ لا تَهْدِي مَن أحْبَبْتَ ولَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾**[سورة القصص : ٥٦ ] [١].

لأجل دين آبائه وأجداده حُرم كمال الرحمة !!...لأجل أن يبقى أمام صناديد الكفر ثابتًا على مبادئه وإرثه الثقيل !!...لأجل لا شيء خسر أهم جولة في سباق الحياة، فخسر نعيم الأخرة !

(١) صحيح البخاري ( ٤٧٧٢ )

لو أنه فكَّر قليلا لقال ( لا إله إلا الله، محمد رسول الله )...

وكيف بالرجل يساند ابن أخيه طوال عمره، ويتضامن معه بالكلمة والفعل في وجه أغلظ قلوب عرفتها البشرية دونما خجل، ثم فجأة يخجل أن ينطق بالحق الذي فيه راحته ورحمته ..؟!

كيف به يُشجِّع ولده عليًّا على أن يتبع رسول الله ﷺ ثم يحرم نفسه من اتباعه ؟!

كيف به يقف في صفِّ النبي ﷺ ضد صناديد الكفر، ثم يقف في صفِّ الكفر ضد الإسلام ؟!

لكن ( الرحمة المرسلة ) لم ييأس من أن يخلِّص عمه من عذاب النار تمامًا، وظل يستغفر له طمعًا في نعيمه، حتى أنزل الله ما يمنع حبيبه عن ذلك، لأن المشركين لا محالة من أصحاب الجحيم .

غير أنه خُفِّف على أبي طالب كأعلى درجات التخفيف كرامة لنبي الرحمة عليه الصلاة والسلام...

عن العباس ـ رضي الله عنه ـ أنه قال للنبي ـ ﷺ ـ : **يَا**

**رَسولَ اللهَّ، هلْ نَفَعْتَ أَبَا طَالِبٍ بشيءٍ، فإِنَّه كانَ يَحُوطُكَ ويَغْضَبُ لَكَ؟ قالَ: نَعَمْ، هو في ضَحْضَاحٍ مِن نَارٍ، لَوْلَا أَنَا لَكانَ في الدَّرَكِ الأسْفَلِ مِنَ النَّارِ.)**(1)

ولو أنه نطق كلمة التوحيد لكفته عن الضحضاح وما دونه من جحيم، ولأبعدته عن النار قدر ما يبتعد أهل النعيم... والمحزن أنه أصرَّ على شركه إلى آخر رمق، فلم يكن لرسول الله إلا أن يمنعه عن الدرك الأسفل من النار إلى ضحضاح هيّنٍ كان فيه بمفرده...فكان أبو طالب أهون أهل النار عذابًا برحمة رسول الله المودعة فيه من ربه، كما أن رسول الله أعلى أهل الجنة نعيما بفضل الله عليه .

لقد خسر أبو طالب كثيرًا إذ سمع لغلظة أبي جهل، ولم يسمع لرحمة خير الناس في الأهل .

خسر حينما استخسر في نفسه الإسلام، وحرَّم على نفسه الرَّاحة والسلام .

خسر فأحزن رسول الله ﷺ .

(1) صحيح البخاري ( ٦٢٠٨ )

**ثانيًا... أبو لهب**

**«...... قالَ عُرْوَةُ: وثُوَيْبَةُ مَوْلَاةٌ لأبِي لَهَبٍ؛ كانَ أبو لَهَبٍ أعْتَقَهَا، فأرْضَعَتِ النَّبيَّ ﷺ، فَلَمَّا مَاتَ أبو لَهَبٍ أُرِيَهُ بَعْضُ أهْلِهِ بشَرِّ حِيبَةٍ، قالَ له: مَاذَا لَقِيتَ؟ قالَ أبو لَهَبٍ: لَمْ ألْقَ بَعْدَكُمْ غيرَ أنِّي سُقِيتُ في هذِه بعَتَاقَتي ثُوَيْبَةَ» .**[1]

**وذكر السهيلي أنّ العباس قال : «لما مات أبو لهب رأيته في منامي بعد حول، في شرّ حال، فقال: ما لقيت بعدكم راحة، إلاّ أنّ العذاب يخفّف عني كل يوم اثنين، قال: وذلك أنّ النبيّ ولد يوم الاثنين، وكانت ثويبة بشرت (أبا لهب) بمولده فأعتقها »**[2]

لم يكن يعلم أن شيئًا يسيرًا كهذا سيكون سببًا كافيًا لتخفيف العذاب عنه، ولو علم لاستزاد حتى أسلم كمن علموا فأسلموا وسبقوا. والرحمة هنا جلية لا تحتاج إلى جهد... فقط لأنه استبشر بميلاد ابن أخيه، وهو لا يعلم أنه ميلاد

(1) صحيح البخاري ( 5101 )
(2) ابن حجر العسقلاني ...فتح الباري في شرح صحيح البخاري ( 9 / 48 )

لرسول الله ﷺ...فأنزل الله رحمته على رجل ﴿ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ ﴾ [ سورة المسد ٢ ، ٣ ] ، فخُفف عنه بها لم يخففه مال وكسب، إنما كرامة لرسول الله ﷺ، ورفعة لقدره ومكانته عند خالقه، فمسَّت اللئيم رحمة الكريم كل يوم إثنين...

ولو قبِل أبو لهب رحمة ابن أخيه الكاملة، وآمن به لمَّا دعاه إلى الإسلام، ولم يسبّه ويلعنه ويحرض عليه السفهاء من القوم، ولم يمش خلفه يقول للناس « لا تصدقوه فإنه مجنون » ، ولم يبدأه بقوله « تبا لك، ألهذا جمعتنا ؟ «...لو أمسك لسانه لما نزلت فيه آيات تبشِّره بالعذاب، لأن القرءان لم ينزل مبادئًا لأحد بالزجر والوعيد إلا بعد تجبر وطغيان... لو أنه استجاب لنداء الرحمة لغشيته بالكلية، وما اكتفى بمجرد مسّها له كل يوم إثنين .

لكنه اغتر بماله ووجاهته فأنكر نبي الرحمة، فاستحق قول الله الخالد ﴿ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴾.. والعجيب في كتاب الله أنه نزل دائم التحدي لألفاظهم وأفعالهم، دون أن يهزمه

أحدهم مرة واحدة...فقد نزلت هذه السورة وسمعها أبو لهب مرات ومرات قبل وفاته بإحدى عشرة سنة، ومع ذلك لم يستطع أن يدخل الإسلام بعدها ولو ليثبت فقط أن القرءان على خطأ، لأن الرسول ﷺ قد وعد المسلمين بجنة عرضها السموات والأرض، وأن النار هي مصير المشركين...فلم يقدر على نطق الشهادة ولم يُمكَّن منها حتى يثبت بالفعل أنه لن يصلى نارا ذات لهب كما يزعم رب محمد .

كان على أبي لهب أن يستقبل الرحمة بما يناسبها، لا بما يُناسب عناد المشركين في عصره وفي كل العصور... كان عليه أن يستبشر كلما رأى أو سمع الرسول، لا أن يعاديه ويُحرض عليه كأنما عدو ليس من بني أبيه...كان عليه أن يقف موقف أبي طالب على الأقل، فيُدافع عنه وإن لم يؤمن به كأبسط ما يجب على الأصل ويستحقه الفرع....لكنه تنصَّل منه وافترى عليه وأراد قتله !! فلم ينل من رحمته، إلا قدر بشارته ...وهي أكثر مما يستحق على كل حال، حيث أنه استبشر مرة واحدة، فكان المناسب

التخفيف مرة واحدة، إلا أنه يُخَفَّف عنه كل أسبوع .

فيتضح لنا أن أبا لهب قد انتفع برسول الله أضعاف ما قدَّم...وتلك رحمة شملت أطغى المشركين من العالمين...فما بالنا برحمته بالمؤمنين، وهم يستبشرون به كل نفس ولمحة، ويتشرفون بأخلاقه السمحة .

لذا ...فكل العتب...على أبي لهب

# جانب من بركته ﷺ

# حليمة السعدية

ومما استُظهر من الرحمة في مبدأ رضاعته...حلول البركة على بني سعد .

وكانت بنو سعد تستقبل الرُّضع، فتفصِّح ألسنتهم، وتقوي أجسامهم...كانت قبلة لخطباء ومحاربي المستقبل، يرسلهم الآباء طمعا في تدريبهم على إحدى الحسنيين، والسعادة كل السعادة إن جمع الولد بين فراسة الكلمة وفروسية اللكمة .

ولأنها مركز تدريب عالي الاحترافية...فلا يمكن أن يكون التدريب بالمجان أو بالتقسيط، إما أن يُدفع للرضيع فينتسب ، أو لا فيُدفع بعيدا عن أحلام المستقبل...إما أن يكون له والدٌ يُشبع نهم المرضعات للمال، أو يبقى مع أمِّه تتحسر على ما فاته من فتوة وكمال .

كعادته دائما....المال يفعل الأفاعيل، ولا قيمة للفقراء !!

ولما وُلد رسول الله ﷺ، التمس له جده عبد المطلب المرضعات، فاستُرضع له امرأة من بني سعد بن بكر ...

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَحَدَّثَنِي جَهْمُ بْنُ أَبِي جَهْمٍ مَوْلَى الْحَارِثِ بْنِ حَاطِبِ الْجُمَحِيُّ، ...

**عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جَعْفَرِ بْنِ أَبِي طَالِبٍ. أَوْ عَمَّنْ حَدَّثَهُ عَنْهُ قَالَ: كَانَتْ حَلِيمَةُ بِنْتُ أَبِي ذُؤَيْبٍ السَّعْدِيَّةُ. أُمَّ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الَّتِي أَرْضَعَتْهُ، تُحَدِّثُ: أَنَّهَا خَرَجَتْ مِنْ بَلَدِهَا مَعَ زَوْجِهَا، وَابْنٍ لَهَا صَغِيرٍ تُرْضِعُهُ فِي نِسْوَةٍ مِنْ بَنِي سَعْدِ بْنِ بَكْرٍ، تَلْتَمِسُ الرُّضَعَاءَ، قَالَتْ: وَذَلِكَ فِي سَنَةٍ شَهْبَاءَ، لَمْ تُبْقِ لَنَا شَيْئًا. قَالَتْ: فَخَرَجَتْ عَلَى أَتَانٍ لِي قَمْرَاءَ، مَعَنَا شَارِفٌ لَنَا، وَاللَّهِ مَا نبض بِقَطْرَةٍ، وَمَا نَنَامُ لَيْلَنَا أَجْمَعَ مِنْ صَبِيِّنَا الَّذِي مَعَنَا، مِنْ بُكَائِهِ مِنْ الْجُوعِ، مَا فِي ثَدْيَيَّ مَا يُغْنِيهِ، وَمَا فِي شَارِفِنَا مَا يُغَدِّيهِ- قَالَ ابْنُ هِشَامٍ: وَيُقَالُ: يُغَذِّيهِ - وَلَكِنَّا كُنَّا نَرْجُو الْغَيْثَ وَالْفَرَجَ فَخَرَجْتُ عَلَى أَتَانِي تِلْكَ فَلَقَدْ أَدَمْتُ بِالرَّكْبِ حَتَّى شَقَّ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ ضَعْفًا وَعَجَفًا، حَتَّى قَدِمْنَا مَكَّةَ نَلْتَمِسُ الرُّضَعَاءَ، فَمَا مِنَّا امْرَأَةٌ إِلَّا وَقَدْ عُرِضَ عَلَيْهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ لَيْهِ وَسَلَّمَ فَتَأْبَاهُ، إِذَا قِيلَ لَهَا إِنَّهُ يَتِيمٌ، وَذَلِكَ أَنَّا إِنَّمَا كُنَّا**

نَرْجُو الْمَعْرُوفَ مِنْ أَبِي الصَّبِيِّ، فَكُنَّا نَقُولُ: يَتِيمٌ! وَمَا عَسَى أَنْ تَصْنَعَ أُمُّهُ وَجَدُّهُ! فَكُنَّا نَكْرَهُهُ لِذَلِكَ، فَمَا بَقِيَتْ امْرَأَةٌ قَدِمَتْ مَعِي إِلَّا أَخَذَتْ رَضِيعًا غَيْرِي، فَلَمَّا أَجْمَعْنَا الِانْطِلَاقَ قُلْتُ لِصَاحِبِي: وَاَللَّهِ إِنِّي لَأَكْرَهُ أَنْ أَرْجِعَ مِنْ بَيْنِ صَوَاحِبِي وَلَمْ آخُذْ رَضِيعًا، وَاَللَّهِ لَأَذْهَبَنَّ إِلَى ذَلِكَ الْيَتِيمِ فَلَآخُذَنَّهُ، قَالَ: لَا عَلَيْكِ أَنْ تَفْعَلِي، عَسَى اللهُ أَنْ يَجْعَلَ لَنَا فِيهِ بَرَكَةً. قَالَتْ : فَذَهَبْتُ إِلَيْهِ فَأَخَذْتُهُ، وَمَا حَمَلَنِي عَلَى أَخْذِهِ إِلَّا أَنِّي لَمْ أَجِدْ غَيْرَهُ. قَالَتْ: فَلَمَّا أَخَذْتُهُ، رَجَعْتُ بِهِ إِلَى رَحْلِي، فَلَمَّا وَضَعْتُهُ فِي حِجْرِي أَقْبَلَ عَلَيْهِ ثَدْيَايَ بِمَا شَاءَ مِنْ لَبَنٍ، فَشَرِبَ حَتَّى رَوِيَ، وَشَرِبَ مَعَهُ أَخُوهُ حَتَّى رَوِيَ، ثُمَّ نَامَا، وَمَا كُنَّا نَنَامُ مَعَهُ قَبْلَ ذَلِكَ، وَقَامَ زَوْجِي إِلَى شَارِفِنَا تِلْكَ، فَإِذَا إِنَّهَا لَحَافِلٌ، فَحَلَبَ مِنْهَا مَا شَرِبَ، وَشَرِبْتُ مَعَهُ حَتَّى انْتَهَيْنَا رِيًّا وَشِبَعًا، فَبِتْنَا بِخَيْرِ لَيْلَةٍ. قَالَتْ: يَقُولُ صَاحِبِي حِينَ أَصْبَحْنَا: تَعَلَّمِي وَاَللَّهِ يَا حَلِيمَةُ، لَقَدْ أَخَذْتُ نَسَمَةً مُبَارَكَةً، قَالَتْ: فَقُلْتُ: وَاَللَّهِ إِنِّي لَأَرْجُو ذَلِكَ. قَالَتْ: ثُمَّ خَرَجْنَا وَرَكِبْتُ (أَنَا) أَتَانِي، وَحَمَلْتُهُ عَلَيْهَا معي، فو الله لَقَطَعَتْ بِالرَّكْبِ مَا يَقْدِرُ عَلَيْهَا شَيْءٌ مِنْ حُمُرِهِمْ، حَتَّى إِنَّ صَوَاحِبِي لِيَقُلْنَ لِي: يَا بنة أَبِي ذُؤَيْبٍ، وَيْحَكِ! ارْبَعِي عَلَيْنَا، أَلَيْسَتْ هَذِهِ أَتَانَكَ الَّتِي كُنْتُ خَرَجْتُ عَلَيْهَا؟ فَأَقُولُ

لهُنَّ: بَلَى وَاللهِ، إنَّهَا لَهِيَ هِيَ، فَيَقُلْنَ: وَاللهِ إنَّ لَهَا لَشَأْنًا. قَالَتْ: ثُمَّ قَدِمْنَا مَنَازِلَنَا مِنْ بِلَادِ بَنِي سَعْدٍ وَمَا أَعْلَمُ أَرْضًا مِنْ أَرْضِ اللهِ أَجْدَبَ مِنْهَا، فَكَانَتْ غَنَمِي تَرُوحُ عَلَيَّ حِينَ قَدِمْنَا بِهِ مَعَنَا شِبَاعًا لُبَّنًا، فَنَحْلُبُ وَنَشْرَبُ، وَمَا يَحْلُبُ إنْسَانٌ قَطْرَةَ لَبَنٍ، وَلَا يَجِدُهَا فِي ضَرْعٍ، حَتَّى كَانَ الْحَاضِرُونَ مِنْ قَوْمِنَا يَقُولُونَ لِرُعْيَانِهِمْ: وَيْلَكُمْ اسْرَحُوا حَيْثُ يَسْرَحُ رَاعِي بِنْتِ أَبِي ذُؤَيْبٍ، فَتَرُوحُ أَغْنَامُهُمْ جِيَاعًا مَا تَبِضُّ بِقَطْرَةِ لَبَنٍ، وَتَرُوحُ غَنَمِي شِبَاعًا لُبَّنًا. فَلَمْ نَزَلْ نَتَعَرَّفُ مِنْ اللهِ الزِّيَادَةَ وَالْخَيْرَ حَتَّى مَضَتْ سَنَتَاهُ وَفَصَلْتُهُ، وَكَانَ يَشِبُّ شَبَابًا لَا يَشِبُّهُ الْغِلْمَانُ، فَلَمْ يَبْلُغْ سَنَتَيْهِ حَتَّى كَانَ غُلَامًا جَفْرًا . قَالَتْ: فَقَدِمْنَا بِهِ عَلَى أُمِّهِ وَنَحْنُ أَحْرَصُ شَيْءٍ عَلَى مُكْثِهِ فِينَا، لِمَا كُنَّا نَرَى مِنْ بَرَكَتِهِ. فَكَلَّمْنَا أُمَّهُ وَقُلْتُ لَهَا: لَوْ تَرَكْتُ بُنَيَّ عِنْدِي حَتَّى يَغْلُظَ، فَإِنِّي أَخْشَى عَلَيْهِ وَبَأَ مَكَّةَ، قَالَتْ: فَلَمْ نَزَلْ بِهَا حَتَّى رَدَّتْهُ مَعَنَا» [1] .

ما كان لنا أن نجد حكاية رسول الله مع مرضعته بطريقةٍ جامعةٍ مانعةٍ ماتعةٍ كتلك التي قصتها سيدتنا حليمة بنفسها، لأنها كانت طرفًا رئيسيًا في الحدث، وعنصرًا مؤثرًا تصدر

(1) السيرة النبوية لابن هشام ( 1 / 162ـ 164 )

عنه الأفعال فيتحرك به المشهد للأمام...وشهادتها تلك عادلة عاقلة، لمطابقتها حال رسول الله مع العالمين، فلم تجامله بكلمة، بل قالت الحق الذي رأته وعايشته لعامين دونما انقطاع .

والظاهر من شهادتها، بركةٌ أظلتها هي وأسرتها ...بركة غير معهودة من قبل في بني سعد ولا حتى في أم القرى، ولا في مكان أو زمان قبله...بركةٌ غمرت الإنسان والحيوان والمناخ...

بركة غيرت ترتيب قبيلتها من قبيلة نائية لا تُعرف إلا في حدود المكان، إلى قبيلة يعرفها كل مسلم عبر الأزمان .

**غير أن الأمر فيه سرٌ خفي ...**

سرٌ جعل البركة تتقافز إلى كل ما حولها بانسيابية عجيبة. هذا السر أعلنه الخالق عز وجل بقوله ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ**﴾ الرحمة هي سرُّ الأسرار .

والآن يمكننا أن نستمع لشهادة السيدة حليمة بآذان واعية، ونراها بمنظور جديد...منظور الرحمة . بل يمكننا أن نحدثها بلسان الحال ...

ـ يا حليمة...كنتِ في هذه السنة الجدباء أشد نساء بني سعد ـ بل نساء العالمين ـ حاجة ليد العون... وكنتِ تحتاجين إلى رضيع يأخذكِ من قحطك إلى غناه أكثر من حاجة أي رضيع إليك...والحقيقة أنك لم تكوني مؤهلة لإرضاع ولدك عبد الله فضلا عن إرضاع صغيرٍ آخر يشاركه في لا شيء... حمارتكِ تعاني هزالا شديدا نهايته النُّفوق، وناقتك لعجفها فقدت أبسط ما ينتجه النوق...وعبد الله يصرخ ليلًا ونهارًا لفرط ما فيه من مجاعة...

وفي كلِّ أنتِ عاجزةٌ عن دفع سوء أو جلب مناعة... إن لم تصبكِ رحمةٌ يا حليمة فالعائلة إلى هلاك حتمي ولا يُستثنى منها أحد، بل ويُضاف إليها الحيوان....

من أقنعكِ يا حليمة أن أحدًا سيقبلك مرضعة لولده وأنتِ على هذه الحالة البالية ؟!... لا شيء سوى أنها محاولة بائس يصنع لنفسه أملًا مزيفًا كخيارٍ أخير..

ولما وصلتِ أم القرى ما كان ينبغي أن تفعلي فعلتهن... كيف احتمل قلبك مفارقة طفلٍ لا يشبه الأطفال في جماله وهدوئه ونظرته وابتسامته ؟!...ألم تلحظي اختلافه عن نكد

الأطفال وصراخهم وجلبتهم ؟!...ألم تستشعري هالة الحنان والأمان والعمران المحيطة به لحظة ؟!

لقد أخطأتِ التقدير يا أم عبد الله...وربما هو تأثير جوع الصغير، وعناء الزوج، وهزال الحمار، وعجف الناقة...حالة من الارتباك الفكري والعاطفي منبعها الشقاء الممتد إلى غير نهاية...

وللعلم يا حليمة... لم يكن ذلك اليتيم في حاجة من الأساس إلى مرضعة من بني سعد تهتم لأمره كما يحتاج الأطفال...لو كان محتاجا لرعاية أحد لأبقى الله له أباه حتى يشبع منه رعاية وحنانا، ولأبقاه في حجر أمِّه لا ينقصه شيء من فصاحة أو فتوة ...

وهل الذي أعلى ذكره على لسان الأنبياء وهو في عالم الذَّر، وجمَّل خَلقه وخُلقه وهو في بطن أمِّه جنينٌ غير قادر على إكمال فصاحته وفتوته بين أحضان أمِّه وجده ؟؟ والله إنه لفصيحٌ وفتيٌّ قبل أن يولد﴿ **أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى** ﴾ [ سورة الضحى : ٦ ] ...

لا حاجة له أبدًا بمرضعةٍ هزيلةٍ تسكن بادية جدباء...

لكنها رحمة أرادها الله لك، وكرامة لطفل تتحسن به أحوال الخلق .

من حسن حظك يا حليمة أن كلهن رفضنه مثلك، ولنفس السبب..( يتيم !..وما عسى أن تصنع أمه وجده )... لو قبلته إحداهن لما كان لك ذكرٌ في العالمين، وما أظلَّتك بركة باطنها رحمة أبدا...لكنه رفض أن يتعلق به قلب من قلوبهن، فرفضنه لرفضه لهن...حاشاه أن ترفضه مرضعة .

ثم أغلق الله قلوب جميع الأطفال تجاهك وفتحها لهن، فكنتِ وحدكِ بلا رضيع وبلا أجرة، وسُدِّدت أمامك كل أبواب مكة، غير باب اليتيم الكريم، وأصبحتِ بين خيارين لا ثالث لهما... إما أن تعودي إلى ديار بني سعد خالية من رضيع ثري، وفي ذلك عار بالمرضعة وسمعتها...وإما أن ترجعي إلى أم اليتيم فتأخذينه تجنبا لذلك العار، لكنه خيار مرير، يستلزم رعاية رضيع لحولين كاملين دونما توقف وبلا مقابل...إذًا فكلا الخيارين صعب وشاق .

أتدرين ...لقد تعلق قلبك بولد بني هاشم، وجُذبتِ إليه جذبة خفية عنيفة...جذبة ظاهرها ما جال بذهنك ونطقه

لسانك... ، « **فَلَمَّا أَجْمَعْنَا الِانْطِلَاقَ قُلْتُ لِصَاحِبِي: وَاَللَّهِ إنِّي لَأَكْرَهُ أَنْ أَرْجِعَ مِنْ بَيْنِ صَوَاحِبِي وَلَمْ آخُذْ رَضِيعًا، وَاَللَّهِ لَأَذْهَبَنَّ إلَى ذَلِكَ الْيَتِيمِ فَلَآخُذَنَّهُ، قَالَ: لَا عَلَيْكِ أَنْ تَفْعَلِي، عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ لَنَا فِيهِ بَرَكَةً. قَالَتْ : فَذَهَبْتُ إلَيْهِ فَأَخَذْتُهُ، وَمَا حَمَلَنِي عَلَى أَخْذِهِ إلَّا أَنِّي لَمْ أَجِدْ غَيْرَهُ.** »...قد نفعل شيئا وتظهر لنا فيه علَّة مقنعة، والأمر قد حصل لعلَّة أخرى تخفى عنا أنفسنا...

وهذا ما حدث معك بالتحديد، ما أخذتيه إلا لجذبة سرت بداخلكِ، ما أخذتيه إلا لذاته، لا لدفع عار أو لجلب مصلحة... ولو كان الأمر بالعقل والظاهر مثل الباطن لما فكرتِ لحظة في أخذه، وكانت العودة بأقل الخسائر أفضل من العودة بهمٍّ جديد...

لو كان الحكم حكم العقل فما حاجتك لرضيع يُزيد الجوعى جائعًا، والضعفاء ضعيفًا، والبؤساء بائسًا، وليس له أبٌ يُساهم في تحسين حالتكم وحالته، وبدلا من صغير يتلوى ويصرخ ليلا من شدة الجوع، سيصبح الليل مع ذلك اليتيم أكثر ضجيجًا وأرقًا، ليس ذلك فحسب، الأدهى أن الرضيع لبني هاشم أسياد مكة، ولو حدث له مكروه من أي

درجة جرّاء الجوع والعطش ـ وهو محتمل جدًا نظرًا لحالتك ـ فلن يُخلصك منهم أحد .

لو كان الحكم حكم العقل لكان الهرب من ذلك الصغير الهاشمي غنيمة في ذاتها.. لكن الحكم حكم القلب...والأمر أمر الرَّب...والهدف فكّ الكرب عنكِ يا ابنة ذؤيب .

ولما اختُرتِ لاختياره، واستجبتِ للنِّداء، وحملتِ الرحمة المهداة... تحول كل شيء حولك..

أولا...كنتِ حليمة...فأضحيتِ السيدة حليمة... كنتِ امرأة من بني سعد، فأصبحتِ أمَارة لبني سعد... كنتِ مجرد إنسان يُولد ويموت دون خلود ذكر، فصرتِ في كل أذنٍ صوت، وفي كل عقل فكرة، وفي كل قلب قطعة... كنتِ مرضعة صورية لا تُرضع، فتحولت إلى أشهر مرضعة في التاريخ...مرضعة أعظم من خلق الله...أليست هذه رحمة ؟؟..

ثانيا...ولدكِ عبد الله...كان مجرد جائعٍ لا يشبع، وصارخٍ لا يخنع، وبائسٍ لا يقنع، وعاجزٍ لا ينفع... مسكينٌ في زحمةِ الفقراء، وأسيرٌ في جملة السجناء، وشقيٌ في فزعة

التعساء...ثم فجأة وجد نفسه كأفضل ما يتمنى المرء، بل أفضل مما يتمنى، فقد كانت غايته جرعة لبنٍ تروي جفافه لا يهم مصدرها، لم يكن يحلم أن السُقيا التي وصلته نابعة من حضور سيد الكونين والثقلين، لم يكن يحلم أن يشاركه في أمِّه ـ التي لا يُشارك في مثلها ـ رسول الله ﷺ ويكون أخًا له من الرضاعة، لم يكن يحلم أن يُداعبه النوم الهانئ بعد شبع فينام على إثرها الأهل، لم يكن يحلم بطفولة يلاعبه فيها سيد ولد آدم كل يوم وليلة...لم يكن يحلم أن يقترن اسمه برسول الله كلما ذُكر إخوانه من الرضاعة...أليست هذه رحمة ؟؟

**ثالثا**...زوجكِ الحارث...تحول من رجلٍ تتآكل أسرته وتضعُف كل ساعة، إلى رجل تزدهر عائلته كلٍ لحظة ...تحول من ساهرٍ متأرِّقٍ، إلى حالمٍ متألق...تحول من أبٍ يُحب أولاده من النسب، إلى أبٍ يتشرف بولده من الرضاعة...تحول من زوج يؤسفه حالُ زوجته، إلى زوج يفتخر بمكانتها أمد الدَّهر...تحول من مغلوب يرجو البركة من اليتيم، إلى مبروكٍ يخشى ذهاب الكريم...أليست هذه رحمة ؟؟

رابعا...دوابُّكِ...ناقتك العجفاء انتفض فيها اللبن الغريب...أتانكِ الهزلاء ثار فيها النشاط المهيب ...وغنمك

الجدباء غاض فيها السِّمَن والحليب... أليست هذه رحمة ؟؟

ورحماتٌ أخرى أنتِ بها أدري منَّا يا أُمَّ رسول الله ﷺ، جعلتكِ تصِّرين أنت وزوجكِ أن يبقى الحبيب في حوزتكما بعد انتهاء الحولين بأي صورة، وقد نجحتما، لأن الله أراد ذلك .

يا سيدتي...ما مصير المرضعات اللائي حُرمن منه ؟؟... ما أسمائُهن ؟؟...

وأسماء أولادهن من النسب والرضاعة ؟؟..

ماذا فعلن بعطايا الآباء ؟؟...

وماذا حلَّ بدوابهم وذواتهم ؟؟...

وهل طلبن من أمهات الأطفال استبقاء أولادهن بعد الحولين ؟؟....

قطعًا لا توجد إجابة...

فالقدر اختاركِ أنتِ للكرامة والشرف والخلود لا هُنّ . يا سعدُك يا سيدتي بآثار قول الله ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ** ﴾ .

# هلاك وشيك

تضاريسٌ قاسية، وبيئةٌ لا ترحم ...صحراءٌ في كل مكان، وجفافٌ عنوان الأوطان..

المياه عزيزةٌ جدًا ونادرةٌ خارج حدود القبيلة... فالسفر مخاطرة كبيرة، وكم ممن هلكوا في الطريق لفقد الماء، فيموت رجالٌ بعذابٍ أليم، وتُرمَّل زوجاتٌ على سهوة من الدهر، ويُيتَّم أطفال انتظروا قدوم عائلهم بالهدايا أو قدومه كأعظم هدية...

لم يمت في معركة قاتل فيها بشرف، لم يمت بضربة اختصرت آلام احتضاره جملة في دقائق، لم يمت غرقًا أو شنقًا بسرعة غايتها الرحمة بالمصروع...بل مات ببطءٍ مفزع، يجفُّ لحظة بعد لحظة، وتتآكل قوته شيئًا فشيئا، وتضعُف همَّته كلما تجدَّدت بسرابٍ حسبه الظَّمأن ماء، ثم يتمنى الموت فلا يجده يهرول إليه مخلصًا من العذاب، ويظل يتمنَّع عليه لأيام حتى

يقضي الله أمرا كان مفعولا .

معاناة لا يمكن تخيلها إلا بتجربتها والعيش في أغوارها... معاناة تفقد الحكماء حكمتهم، وتنزع الصابرين صبرهم، وتخلع المتفائلين تفاؤلهم، وتسلب الشجعان شجاعتهم .

معاناة عايشها أصحاب رسول الله ﷺ عدة مرات، وكل من عاش في هذه الحقبة الزمنية الجافة عايشها رحلة بعد رحلة... وقد وردت أحاديث كثيرة بروايات غزيرة لمواقف مختلفة نبع فيها الماء من بين أصابعه الشريفة... مرَّات أشرف فيها الصحابة على الموت عطشًا أو جوعًا، في أزمنة وأمكنة متفرقة...ولأنها جميعًا تُنتج دلالة واحدة، فقد اخترنا أحدها للتعبير عن الكل تفاديًا للتكرار .

**عن جابر رضي الله عنه قال : «عَطِشَ النَّاسُ يومَ الحُدَيْبِيَةِ والنَّبيُّ ﷺ بيْنَ يَدَيْهِ رِكْوَةٌ فتَوَضَّأَ، فَجَهِشَ النَّاسُ نَحْوَهُ، فَقالَ: ما لَكُمْ؟ قالوا: ليسَ عِنْدَنَا مَاءٌ نَتَوَضَّأُ ولَا نَشْرَبُ إلَّا ما بيْنَ يَدَيْكَ، فَوَضَعَ يَدَهُ في الرِّكْوَةِ، فَجَعَلَ المَاءُ يَثُورُ بيْنَ أَصَابِعِهِ كَأَمْثَالِ العُيُونِ، فَشَرِبْنَا وتَوَضَّأْنَا. قُلتُ: كَمْ كُنْتُمْ؟ قالَ: لو**

**كُنَّا مِئَةَ أَلْفٍ لَكَفَانَا، كُنَّا خَمْسَ عَشْرَةَ مِئَةً.** »[1].

لم تكن الحديبية هدفًا لرسول الله ﷺ وأصحابه، ولم تكن في حسبانهم محطَّة يتوقفون عندها قبل دخول مكة، إنما أراد النبي السير علنًا إلى مكة بسلاح المسافر دون سلاح المحارب الغازي، صحبة ألف وخمسمائة رجل، وهَدْيٍ قدره سبعون بعيرًا، وقد أحرم بالعمرة هو وأصحابه...

وفي ذلك إشارة واضحة إلى سلميَّته، وأنه ما أراد إلا زيارة البيت الحرام معتمرًا، وترويحًا عن المسلمين المشتاقين إلى مكة وحرمها الشريف...تحقيقًا للرؤيا التي أُريها عليه الصلاة والسلام .

مضى رسول الله ﷺ في طريقه الرَّسمي لأيام، حتى وصل منطقة تسمى عسفان، وهي على مسافة يومين فقط من مكة المكرمة، فاشتاقت النفوس، وانتعشت الأرواح، وخفقت القلوب أضعاف ما خرجت به من المدينة، ثم هي في زيادة منتظمة مع كل خطوة تقربهم نحو بيت الله الحرام...

(1) صحيح البخاري ( ٣٥٧٦ )

لكن قريشًا يُزعجها ما يُسعد رسول الله وصحبه، ويُنكِّد عليها ما فيه تفريجٌ لهم، فارتدى محاربوها جلود النمور، وخرجوا من ثكناتهم عاهدين على ألا يدخل رسول الله وأصحابه مكة أبدًا... دونها الموت .

رغم علمهم بالكيفية والنية التي جاء بها المسلمون من مدينتهم، رغم علمهم بأن الكعبة لا يُمنع زائرها وضيفها ـ إن كان ضيفًا ـ ، فما بالهم وأغلب المعتمرين أصحاب الدار، وقائدهم ولد أكثر بيت في تاريخ مكة خدمة للكعبة والحجيج من رفادة وسقاية وحجابة...

ولد هاشم، الذي كان عمرًا فهشم الخبز والكعك للحجيج من الشام ليصنع لهم الثريد فاستحق أن يسمى هاشمًا...

ولد عبد المطلب، الذي نحر عند الكعبة مائة من الإبل فلم يمنع عنها إنسان أو طير أو سبع...

وهو محمد بن عبد الله، الذي وضع بيديه الشريفتين الحجر الأسود في مكانه من الكعبة بعد إعادة بنائها... ثم بعد ذلك يُمنع من دخول مكة !!...

أيحبسه عنها فتية لا أصل لهم ؟!... أيحرمه منها أشباه رجال لم يعرفوا عن مكانة الحرم إلا منه وآبائه وأجداده ؟! يريدون الحرب...ورسول الله يريد الحرم .

قرَّر ألا يستجيب لندائهم التصادمي...فاستشار أصحابه فيمن يسلك بهم طريقًا غير التي تعرفها قريش رغبة في تفاديهم، وحقنًا للدماء التي تعمق النزاع بين مكة والمدينة، على أن الأمر لا يحتمل، على الأقل في هذه المرحلة التي تستلزم السلم لمصلحة العمرة ..

بالفعل سلك بهم رجلٌ طريقًا وعرة غير معبَّدة تستنزف الجهد والماء لتجاوزها...ثم بعد مشقة عنيفة تجاوزوها إلى أرض سهلة منبسطة واسعة...ثم مضوا في طريقهم قرب الحديبة حتى وصلوها، وقد أرهقهم التعب ، وأعياهم العطش بعدما نفذت كل مياههم .

ما الحل إذا ؟؟

إذا أرادوا العودة إلى المدينة فلن يصل إليها منهم أحد، وقد بعُدت المسافة كثيرًا جدًا فوق قدرة بشريّ على تحمل العطش حتى العودة إلى الوطن، أو حتى لأقرب بئر في

الطريق تحتفظ بالماء...وإذا أرادوا الوصول إلى مكة وأهلها على هذه الحالة الفاحشة المتربصة، فستكون فتنة كبيرة وفساد عظيم .

ألف وخمسمائة رجل خرجوا من وطنهم لشيء فوجدوا أنفسهم في شيء آخر...خرجوا في منحة فأضحت محنة...

خرجوا في فسحة فأضحت مهلكة ...خرجوا في رغد فأضحت غدرًا...خرجوا في شفاه تبتسم فأضحت تتشقق عطشًا...خرجوا في ملابس الإحرام فأضحت وكأنها الكفن ...

ورسول الله منشغلٌ بترتيب عقد صلح بينه وبين قريش، فلم يكن يعلم بأمر الماء الذي نفذ، والعطش الشديد الذي حلَّ بأصحابه...ثم أراد أن يتوضأ، فبدأ بإفراغ الماء من ركوته ـ وكان معه ماء ـ فلما رأى العطشى الماء هرعوا إليه دفعة واحدة، فاستغرب صنيعهم، وسألهم « ما لكم ؟؟ » ...فأخبروه بأن الماء قد نفذ، وأن العطش قد أصاب القوم جميعًا...

وهنا تظهر بركة رسول الله ﷺ... وكأنه أُخبر بأمر عادي

يحدث كل يوم، وكأنه لم يُنبَّأ بما يثير الخوف على أصحاب أوشكوا جميعهم على الموت، وكأنه يضغط على مكبس يحيل الكارثة إلى احتفالية خالدة ....

كل ما في الأمر أنه وضع يده الشريفة في إنائه الجلدي، ففار الماء من بين أصابعه الشريفة كأنها عيون حُرِّرت... فشرب الناس جميعًا حتى شبعوا، وسقوا دوابَّهم وهديهم، وملأوا قِربهم ... وانتهت المحنة فورًا إلى منحةٍ عظيمةٍ ومعجزةٍ عامرة...كأنه لم يفعل شيئا، وقد فعل كل شيء !!.

ألف وخمسمائة شاهد بأمهات أعينهم...وليس من رأى كمن سمع .

ألف وخمسمائة ظمئان ارتووا...وليس من شرب كمن تخيَّل... يقول جابر بن عبد الله « **لو كنا مائة ألف لكفانا** » ... ﷺ ولا يمكن بحال إدراج الواقعة خارج نطاق « البركة » .. مهما حاولنا الالتفاف عليها .

فالبركة هي استكثار القليل، أو بقاؤه على قلته واستيعابه أكثر مما جُعل له...

لكن الذي حدث فاق أبعاد البركة التي نعرفها ونألفها ...

كطعام الاثنين الذي يكفي ثلاثة، كما أخبرنا حبيبنا ﷺ ... أما أن يكفي شراب رجل ألفا وخمسمائة رجل ودوابهم وهديهم، ولو تجاوز العدد إلى مائة ألف لكفى، فهذه ليست مجرد بركة معروفة...أن يفور الماء من بين أصابعه فهذه ليست مجرد معجزة غايتها الدلالة على بركة مألوفة...

إنما هي بركةٌ معجونةٌ بمكونات مختلفة، وبمقادير قياسية...

بركةٌ صُنعت لإنسان واحد، وغير قابلة للاستنساخ ...

بركةٌ مبطنة بشيء تستدعيه رسالته ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ**﴾ .

وكل أمر غشيته الرحمة حولته من المألوف إلى غاية الكمال ...

حولته من المادية إلى الروحانية...حولته من المنكوب إلى المرغوب...حولته من المعدود إلى اللا نهائي...

حولته منه إلى الأعظم والأكبر والأشمل .

ويمكن ملاحظة بروز الرحمة فيهم في الآتي...

أولا...كانت هناك خيارات كثيرة عوضًا عن نبع الماء من بين أصابعه الشريفة...

مثلا أن يدعو الله فتمطر السماء، وقد حدث ذلك مرات... أو يدعو الله فينسيهم العطش ويبعد عنهم آثاره المهلكة، وكثيرًا ما غيَّرت دعواته أحوال أُناس من عطش الكفر إلى رِيِّ الإيمان، وهو أصعب... أو يضرب بقدمه الأرض فتخرج الماء فرحة تجري في كل مكان، كما حدث تحت قدم الرضيع سيدنا إسماعيل عليه السلام، ومعلوم أن مقام رسول الله أعلى من جميع الأنبياء، فتكون حاجته أيسر وضربته أوفر... أو ينتفض الماء من تحت قدم راحلته، كما وقع لجده عبد المطلب في سفره للكاهنة التي يتحاكم إليها خصمًا لقريش في أحقية بئر زمزم، وقد نفذ ماؤه في الطريق واستعدَّ للهلاك هو ومن معه من بني هاشم، حتى أنهم حفروا لأنفسهم قبورًا تحميهم من السِّباع والجوارح بعد هلاكهم، ثم ركب راحلته ـ للمرة الأخيرة ـ أملًا في العثور على ما يخلصهم من الموت البطيء، وفجأة فار الماء تحت قدم راحلته فنجا هو ومن معه.. خيارات عديدة تُوضع أمامه ﷺ، فاختار أكثرها رحمة... اختار أن يشربوا ماءً لا مثيل له على ظهر الأرض، طعمه أحلى، ورِيُّه أعلى، وأثره أجلى... اختار أن يتذوقوا عُصارة رحمته التي تنبع من بين أصابعه تكريمًا لهم ومكافئةً على إخلاصهم ، فقد بايعوه قبل قدومهم الحديبة تحت الشجرة على النصرة، فرضي

الله عنهم وسميت ببيعة الرضوان « **لَّقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا** »[1]، وماءٌ ينبع من بين أصابعه لا يُقارن به ماء خرج من الحجارة الصماء، أو آبار ينتن فيها الماء، أو سحب تتكثف في كبد السماء...ماءٌ لن يُسقوا مثله في الدنيا أبدًا.

**ثانيًا**....لم تكن مجرد معجزة تنتهي آثارها بنهاية الأزمة، أو بتغير الزمان والمكان...إنما هي معجزة تبدأ نتائجها،وتعظم فوائدها، وتمتد توابعها طول العمر، بل ربما تمتد إلى الحياة الآخرة ...

إن الذين سُقوا ماءً منبعه يد رسول الله ﷺ، هم أولى الناس عقلًا بشربة هنيئة مريئة من حوضه الشريف وبيده الشريفة...وكيف يُمنع من شرب من يديه في الدنيا عن الشرب من ذات اليد يوم الجد ؟؟... يوم العطش الأكبر، والشمس القريبة، والصمت المحكم...

ربما هي البشرى بالقادم الأسعد، بما هو بعد الحوض...

(1) سورة **الفتح** ( ١٨ )

أو تمس النار جسدًا تغذى من يد رسول الله ؟؟ ... أو ترفض الجنة جسدًا بعضه نبع رسول الله ؟؟... لا نعرف عن قدر رسول الله عند ربه شيئًا كهذا... إذا فمن نعمة الله على الألف وخمسمائة صحابي أن نبع الماء من بين أصابعه الشريفة، حتى ينتفعوا برحمته ﷺ في الدنيا والآخرة، ولو وُجد الماء بكيفية غير التي حدثت لما كانت لهم أفضلية بسببها في الآخرة .

**ثالثا**....لا مصير سوى الهلاك المذلّ لجيش فقد الماء وفقد أسباب وجوده، لا نتائج رائعة لمقدمات ضائعة، لا خيارات متاحة لألف وخمسمائة ظمئان غير التلفظ بالشهادتين والصبر على العذاب البطيء، فما باليد حيلة...

غير أنها ميتة لا تليق بمحاربين نبلاء في مواطن البأس، فرسانٌ تخشاهم دروع الأعداء قبل أصحابها، وتخافهم الخيول قبل ركّابها، وتهابهم السيوف قبل حامليها، وتحترمهم أرض المعركة قبل الحرب وتنحني لهم بعدها...أيهلكون وهم عُزّلٌ بملابس الإحرام ؟!... أيفقدون كرامتهم وهم ضيوف الرحمن ؟! ...

ربما يؤدي ذلك إلى تسرب الجزع في قلوب بعضهم، وعدم تقبل الأمر بمجمله، ربما تلفظ أحدهم بيأسه أو أسرَّه في

نفسه، وربما أدى هلاكهم إلى تصدع الثقة بين المسلمين الذين لم يذهبوا إلى العمرة وبين الخالق وخليفته في أرضه رسول الله ﷺ...ربما قال أحدهم « كيف هلكوا وفيهم رسول الله ؟! ..

حالة من الفوضى ستضرب الجميع...يهلك فيها من أراد العمرة، ويشكُّ فيها من بقي من المسلمين في المدينة، ويتراجع معها من أوشك على الإسلام، ومن ثم يستبشر بها مشركو مكة، ويحتفل بها يهود المدينة ، ذلك لقرب هلاك الإسلام وهلاك رسوله العاجز عن دفع العطش عن أصحابه، فكيف به يُدخلهم الجنة ويدفع عنهم النار كما يزعم ؟!

ولأن الله أرسله رحمة للعالمين، لا مصدر همٍّ أو عذاب ﴿ **وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم**﴾ ...فقد كان وجوده بينهم رحمة عظيمة بهم من عطش مؤدي إلى هلاك حتمي...ورحمة بأُسر المعتمرين من فاجعة فقد خيارهم...ورحمة بغيرهم من المسلمين من عواقب شكٍ في دينهم ونبيه...ورحمة بالراغبين في الإسلام من كارثة رجوعهم عن رغبتهم...

فيظهر أن نبع الماء من بين أصابعه الشريفة كان ظاهره البركة وغايته الرحمة من كل الوجوه .

# سلمان الفارسي

ذكر الإمام أحمد قصة غرس النبي للنخل بيديه في البستان، في حديث طويل عن قصة إسلامه وضمنه هذه القصة، أن «سلمان الفارسي شغله الرق حتى فاته مع رسول الله ﷺ بدر وأحد « .....قال: **ثُمَّ قَالَ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ : كَاتِبْ يَا سَلْمَانُ . فَكَاتَبْتُ صَاحِبِي عَلَى ثَلاثِ مِائَةِ نَخْلَةٍ أُحْيِيهَا لَهُ بِالْفَقِيرِ (حفرة الفسيلة التي تغرس فيها ) وَبِأَرْبَعِينَ أُوقِيَّةً، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لأَصْحَابِهِ : أَعِينُوا أَخَاكُمْ . فَأَعَانُونِي بِالنَّخْلِ، الرَّجُلُ بِثَلاثِينَ وَدِيَّةً ( أي صغار النخل )، وَالرَّجُلُ بِعِشْرِينَ، وَالرَّجُلُ بِخَمْسَ عَشْرَةَ، وَالرَّجُلُ بِعَشْرٍ، يَعْنِي الرَّجُلُ بِقَدْرِ مَا عِنْدَهُ، حَتَّى اجْتَمَعَتْ لِي ثَلاثُ مِائَةِ وَدِيَّةٍ، فَقَالَ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ : اذْهَبْ يَا سَلْمَانُ فَفَقِّرْ لَهَا ( أي احفر لها موضع غرسها )، فَإِذَا فَرَغْتَ فَأْتِنِي أَكُونُ أَنَا أَضَعُهَا بِيَدَيَّ، فَفَقَّرْتُ لَهَا وَأَعَانَنِي أَصْحَابِي حَتَّى إِذَا فَرَغْتُ مِنْهَا جِئْتُهُ فَأَخْبَرْتُهُ، فَخَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مَعِي إِلَيْهَا : فَجَعَلْنَا نُقَرِّبُ لَهُ الْوَدِيَّ، وَيَضَعُهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِيَدِهِ، فَوَالَّذِي نَفْسُ سَلْمَانَ بِيَدِهِ مَا مَاتَتْ مِنْهَا وَدِيَّةٌ وَاحِدَةٌ، فَأَدَّيْتُ النَّخْلَ وَبَقِيَ عَلَيَّ الْمَالُ، فَأُتِيَ**

**رَسُولُ اللهَّ ﷺ بِمِثْلِ بَيْضَةِ الدَّجَاجَةِ مِنْ ذَهَب، مِنْ بَعْضِ الْمُغَازِي، فَقَالَ : مَا فَعَلَ الْفَارِسِيُّ الْمُكَاتَبُ ؟ قَالَ فَدُعِيتُ لَهُ فَقَالَ : خُذْ هَذِهِ فَأَدِّ بِهَا مَا عَلَيْكَ يَا سَلْمَانُ . فَقُلْتُ : وَأَيْنَ تَقَعُ هَذِهِ يَا رَسُولَ اللهَّ مِمَّا عَلَيَّ . قَالَ : خُذْهَا فَإِنَّ اللهَّ سَيُؤَدِّي بِهَا عَنْكَ . قَالَ فَأَخَذْتُهَا فَوَزَنْتُ لَهُمْ مِنْهَا، وَالَّذِي نَفْسُ سَلْمَانَ بِيَدِهِ أَرْبَعِينَ أُوقِيَّةً، فَأَوْفَيْتُهُمْ حَقَّهُمْ، وَعُتِقْتُ، فَشَهِدْتُ مَعَ رَسُولِ اللهَّ ﷺ الْخَنْدَقَ، ثُمَّ لَمْ يَفُتْنِي مَعَهُ مَشْهَدٌ »** [1] .

ما الذي فعله سلمان ليلقى من رسول الله ﷺ كل هذا الدعم ؟!... ما الذي قدمه ليُقابل بوابل نفحات وبركات غايتها شمول الرحمة ؟!... ثلاثمائة ودية يزرعها رسول الله ﷺ بيديه الشريفتين، وقطعة ذهب مباركة تتمدد لتكفي أربعين أوقية ولو طلب السيد اليهودي أكثر لوفّته، وقبلهما اهتمامه الكبير بالأمر...كل ذلك لأجل تحرير عبد فارسي شغله الرّق ؟!

إن كان الرِّقُّ هو السبب فما أكثر رقيق العصر، وقد فاتهم هذا الكم الهائل من الرحمة...فكلٌّ قد رُزق رحمة تناسب فعله

(1) مسند الإمام أحمد بن حنبل ( ٥ \ ٤٤١ )

وحاله...فما حال سلمان، وماذا فعل لينعم برحمة رسول الله الهائلة ؟؟ القصة من بدايتها على لسانه ــ أفضل ــ حتى نصل إلى فوات بدرٍ وأحدٍ عليه وبداية المكاتبة المباركة...

**عَنْ عَبْدِ اللهَّ بْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : حَدَّثَنِي سَلْمَانُ الْفَارِسِيُّ حَدِيثَهُ مِنْ فِيهِ قَالَ : «كُنْتُ رَجُلا فَارِسِيًّا مِنْ أَهْلِ أَصْبَهَانَ، مِنْ أَهْلِ قَرْيَةٍ مِنْهَا يُقَالُ لَهَا جَيٌّ، وَكَانَ أَبِي دِهْقَانَ قَرْيَتِهِ ( أي رئيسها )، وَكُنْتُ أَحَبَّ خَلْقِ اللهَّ إِلَيْهِ، فَلَمْ يَزَلْ بِهِ حُبُّهُ إِيَّايَ حَتَّى حَبَسَنِي فِي بَيْتِهِ، أَيْ مُلازِمَ النَّارِ، كَمَا تُحْبَسُ الْجَارِيَةُ، وَأَجْهَدْتُ فِي الْمَجُوسِيَّةِ حَتَّى كُنْتُ قَطَنَ النَّارِ ( أي خادمها) الَّذِي يُوقِدُهَا لا يَتْرُكُهَا تَخْبُو سَاعَةً، قَالَ وَكَانَتْ لأَبِي ضَيْعَةٌ ( أي بستان ) عَظِيمَةٌ، قَالَ فَشُغِلَ فِي بُنْيَانٍ لَهُ يَوْمًا فَقَالَ لِي : يَا بُنَيَّ، إِنِّي قَدْ شُغِلْتُ فِي بُنْيَانٍ هَذَا الْيَوْمَ عَنْ ضَيْعَتِي فَاذْهَبْ فَاطَّلِعْهَا، وَأَمَرَنِي فِيهَا بِبَعْضِ مَا يُرِيدُ، فَخَرَجْتُ أُرِيدُ ضَيْعَتَهُ، فَمَرَرْتُ بِكَنِيسَةٍ مِنْ كَنَائِسِ النَّصَارَى، فَسَمِعْتُ أَصْوَاتَهُمْ فِيهَا وَهُمْ يُصَلُّونَ، وَكُنْتُ لا أَدْرِي مَا أَمْرُ النَّاسِ لِحَبْسِ أَبِي إِيَّايَ فِي بَيْتِهِ، فَلَمَّا مَرَرْتُ بِهِمْ وَسَمِعْتُ أَصْوَاتَهُمْ دَخَلْتُ عَلَيْهِمْ أَنْظُرُ مَا يَصْنَعُونَ، قَالَ : فَلَمَّا رَأَيْتُهُمْ أَعْجَبَنِي صَلاتُهُمْ وَرَغِبْتُ فِي أَمْرِهِمْ، وَقُلْتُ هَذَا وَاللهِ خَيْرٌ مِنْ الدِّينِ الَّذِي نَحْنُ عَلَيْهِ، فَو**

اللهَّ مَا تَرَكْتُهُمْ حَتَّى غَرَبَتْ الشَّمْسُ، وَتَرَكْتُ ضَيْعَةَ أَبِي وَلَمْ آتِهَا، فَقُلْتُ لهُمْ : أَيْنَ أَصْلُ هَذَا الدِّينِ ؟ قَالُوا : بِالشَّام . قَالَ ثُمَّ رَجَعْتُ إِلَى أَبِي وَقَدْ بَعثَ فِي طَلَبِي وَشَغَلْتُهُ عَنْ عَمَلِهِ كُلِّهِ، قَالَ فَلَمَّا جِئْتُهُ قَالَ : أَيْ بُنَيَّ ! أَيْنَ كُنْتَ ؟ أَلَمْ أَكُنْ عَهِدْتُ إِلَيْكَ مَا عَهِدْتُ ؟ قَالَ قُلْتُ : يَا أَبَتِ ! مَرَرْتُ بِنَاسٍ يُصَلُّونَ فِي كَنِيسَةٍ لهُمْ، فَأَعْجَبَنِي مَا رَأَيْتُ مِنْ دِينِهِمْ، فَوَ اللهَّ مَا زِلْتُ عِنْدَهُمْ حَتَّى غَرَبَتْ الشَّمْس، قَالَ : أَيْ بُنَيَّ ! لَيْسَ فِي ذَلِكَ الدِّينِ خَيْرٌ، دِينُكَ وَدِينُ آبَائِكَ خَيْرٌ مِنْهُ، قَالَ قُلْتُ : كَلا وَاللهَّ إِنَّهُ خَيْرٌ مِنْ دِينِنَا . قَالَ : فَخَافَنِي، فَجَعَلَ فِي رِجْلَيَّ قَيْدًا، ثُمَّ حَبَسَنِي فِي بَيْتِهِ، قَالَ وَبَعثَتُ إِلَى النَّصَارَى فَقُلْتُ لهُمْ : إِذَا قَدِمَ عَلَيْكُمْ رَكْبٌ مِنْ الشَّام تُجَّارٌ مِنْ النَّصَارَى فَأَخْبِرُونِي بِهِمْ . قَالَ : فَقَدِمَ عَلَيْهِمْ رَكْبٌ مِنْ الشَّام تُجَّارٌ مِنْ النَّصَارَى، قَالَ فَأَخْبَرُونِي بِهِمْ، قَالَ فَقُلْتُ لهُمْ : إِذَا قَضَوْا حَوَائِجَهُمْ وَأَرَادُوا الرَّجْعَةَ إِلَى بِلادِهِمْ فَآذِنُونِي بِهِمْ، قَالَ فَلَمَّا أَرَادُوا الرَّجْعَةَ إِلَى بِلَادِهِمْ أَخْبَرُونِي بِهِمْ، فَأَلْقَيْتُ الْحَدِيدَ مِنْ رِجْلَيَّ ثُمَّ خَرَجْتُ مَعَهُمْ حَتَّى قَدِمْتُ الشَّامَ، فَلَمَّا قَدِمْتُهَا قُلْتُ : مَنْ أَفْضَلُ أَهْلِ هَذَا الدِّينِ ؟ قَالُوا : الأَسْقُفُّ فِي الْكَنِيسَةِ . قَالَ فَجِئْتُهُ فَقُلْتُ : إِنِّي قَدْ رَغِبْتُ فِي هَذَا الدِّينِ، وَأَحْبَبْتُ أَنْ أَكُونَ مَعَكَ أَخْدُمُكَ فِي كَنِيسَتِكَ وَأَتَعَلَّمُ

مِنْكَ وَأُصَلِّي مَعَكَ، قَالَ : فَادْخُلْ . فَدَخَلْتُ مَعَهُ، قَالَ فَكَانَ رَجُلَ سَوْءٍ، يَأْمُرُهُمْ بِالصَّدَقَةِ وَيُرَغِّبُهُمْ فِيهَا فَإِذَا جَمَعُوا إِلَيْهِ مِنْهَا أَشْيَاءَ اكْتَنَزَهُ لِنَفْسِهِ وَلَمْ يُعْطِهِ الْمَسَاكِينَ، حَتَّى جَمَعَ سَبْعَ قِلالٍ مِنْ ذَهَبٍ وَوَرِقٍ، قَالَ وَأَبْغَضْتُهُ بُغْضًا شَدِيدًا لِمَا رَأَيْتُهُ يَصْنَعُ، ثُمَّ مَاتَ فَاجْتَمَعَتْ إِلَيْهِ النَّصَارَى لِيَدْفِنُوهُ، فَقُلْتُ لَهُمْ : إِنَّ هَذَا كَانَ رَجُلَ سَوْءٍ، يَأْمُرُكُمْ بِالصَّدَقَةِ وَيُرَغِّبُكُمْ فِيهَا فَإِذَا جِئْتُمُوهُ بِهَا اكْتَنَزَهَا لِنَفْسِهِ وَلَمْ يُعْطِ الْمَسَاكِينَ مِنْهَا شَيْئًا .

قَالُوا : وَمَا عِلْمُكَ بِذَلِكَ ؟ قَالَ قُلْتُ : أَنَا أَدُلُّكُمْ عَلَى كَنْزِهِ. قَالُوا : فَدُلَّنَا عَلَيْهِ . قَالَ فَأَرَيْتُهُمْ مَوْضِعَهُ، قَالَ فَاسْتَخْرَجُوا مِنْهُ سَبْعَ قِلَالٍ مَمْلُوءَةٍ ذَهَبًا وَوَرِقًا، قَالَ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا : وَاللَّهِ لا نَدْفِنُهُ أَبَدًا . فَصَلَبُوهُ ثُمَّ رَجَمُوهُ بِالْحِجَارَةِ، ثُمَّ جَاءُوا بِرَجُلٍ آخَرَ فَجَعَلُوهُ بِمَكَانِهِ، قَالَ يَقُولُ سَلْمَانُ : فَمَا رَأَيْتُ رَجُلا لا يُصَلِّي الْخَمْسَ أَرَى أَنَّهُ أَفْضَلُ مِنْهُ أَزْهَدُ فِي الدُّنْيَا وَلا أَرْغَبُ فِي الآخِرَةِ وَلا أَدْأَبُ لَيْلا وَنَهَارًا مِنْهُ . قَالَ فَأَحْبَبْتُهُ حُبًّا لَمْ أُحِبَّهُ مَنْ قَبْلَهُ، وَأَقَمْتُ مَعَهُ زَمَانًا، ثُمَّ حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ فَقُلْتُ لَهُ : يَا فُلَانُ ! إِنِّي كُنْتُ مَعَكَ، وَأَحْبَبْتُكَ حُبًّا لَمْ أُحِبَّهُ مَنْ قَبْلَكَ، وَقَدْ حَضَرَكَ مَا تَرَى مِنْ أَمْرِ اللَّهِ، فَإِلَى مَنْ تُوصِي بِي ؟ وَمَا تَأْمُرُنِي؟ قَالَ : أَيْ بُنَيَّ ! وَاللَّهِ مَا أَعْلَمُ أَحَدًا الْيَوْمَ عَلَى مَا كُنْتُ عَلَيْهِ،

لَقَدْ هَلَكَ النَّاسُ وَبَدَّلُوا وَتَرَكُوا أَكْثَرَ مَا كَانُوا عَلَيْهِ إِلا رَجُلا بِالْمَوْصِلِ وَهُوَ فُلانٌ، فَهُوَ عَلَى مَا كُنْتُ عَلَيْهِ، فَالْحَقْ بِهِ .قَالَ فَلَمَّا مَاتَ وَغُيِّبَ لَحِقْتُ بِصَاحِبِ الْمَوْصِلِ، فَقُلْتُ لَهُ : يَا فُلانُ ! إِنَّ فُلانًا أَوْصَانِي عِنْدَ مَوْتِهِ أَنْ أَلْحَقَ بِكَ، وَأَخْبَرَنِي أَنَّكَ عَلَى أَمْرِهِ .

قَالَ فَقَالَ لِي : أَقِمْ عِنْدِي . فَأَقَمْتُ عِنْدَهُ، فَوَجَدْتُهُ خَيْرَ رَجُلٍ عَلَى أَمْرِ صَاحِبِهِ، فَلَمْ يَلْبَثْ أَنْ مَاتَ، فَلَمَّا حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ قُلْتُ لَهُ : يَا فُلانُ ! إِنَّ فُلانًا أَوْصَى بِي إِلَيْكَ وَأَمَرَنِي بِاللُّحُوقِ بِكَ، وَقَدْ حَضَرَكَ مِنْ اللهِ مَا تَرَى، فَإِلَى مَنْ تُوصِي بِي ؟ وَمَا تَأْمُرُنِي ؟ قَالَ : أَيْ بُنَيَّ ! وَاللهِ مَا أَعْلَمُ رَجُلًا عَلَى مِثْلِ مَا كُنَّا عَلَيْهِ إِلا بِنَصِيبِينَ، وَهُوَ فُلَانٌ، فَالْحَقْ بِهِ . وَقَالَ فَلَمَّا مَاتَ وَغَيِّبَ لَحِقْتُ بِصَاحِبِ نَصِيبِينَ، فَجِئْتُهُ، فَأَخْبَرْتُهُ بِخَبَرِي وَمَا أَمَرَنِي بِهِ صَاحِبِي، قَالَ : فَأَقِمْ عِنْدِي .

فَأَقَمْتُ عِنْدَهُ، فَوَجَدْتُهُ عَلَى أَمْرِ صَاحِبَيْهِ، فَأَقَمْتُ مَعَ خَيْرِ رَجُلٍ، فَوَ اللهِ مَا لَبِثَ أَنْ نَزَلَ بِهِ الْمَوْتُ، فَلَمَّا حَضَرَ قُلْتُ لَهُ : يَا فُلَانُ ! إِنَّ فُلانًا كَانَ أَوْصَى بِي إِلَى فُلانٍ، ثُمَّ أَوْصَى بِي فُلَانٌ إِلَيْكَ، فَإِلَى مَنْ تُوصِي بِي وَمَا تَأْمُرُنِي ؟ قَالَ : أَيْ بُنَيَّ ! وَاللهِ مَا نَعْلَمُ أَحَدًا بَقِيَ عَلَى أَمْرِنَا آمُرُكَ أَنْ تَأْتِيَهُ إِلا رَجُلا

بِعَمُّورِيَّةَ، فَإِنَّهُ بِمِثْلِ مَا نَحْنُ عَلَيْهِ، فَإِنْ أَحْبَبْتَ فَأْتِهِ قَالَ فَإِنَّهُ عَلَى أَمْرِنَا، قَالَ فَلَمَّا مَاتَ وَغُيِّبَ لَحِقْتُ بِصَاحِبِ عَمُّورِيَّةَ وَأَخْبَرْتُهُ خَبَرِي، فَقَالَ : أَقِمْ عِنْدِي . فَأَقَمْتُ مَعَ رَجُلٍ عَلَى هَدْيِ أَصْحَابِهِ وَأَمْرِهِمْ، قَالَ وَاكْتَسَبْتُ حَتَّى كَانَ لِي بَقَرَاتٌ وَغُنَيْمَةٌ، قَالَ ثُمَّ نَزَلَ بِهِ أَمْرُ اللهَّ فَلَمَّا حَضَرَ قُلْتُ لَهُ : يَا فُلانُ ! إِنِّي كُنْتُ مَعَ فُلانٍ، فَأَوْصَى بِي فُلانٌ إِلَى فُلانٍ، وَأَوْصَى بِي فُلانٌ إِلَى فُلانٍ، ثُمَّ أَوْصَى بِي فُلَانٌ إِلَيْكَ، فَإِلَى مَنْ تُوصِي بِي وَمَا تَأْمُرُنِي ؟ قَالَ : أَيْ بُنَيَّ ! وَاللهَّ مَا أَعْلَمُهُ أَصْبَحَ عَلَى مَا كُنَّا عَلَيْهِ أَحَدٌ مِنْ النَّاسِ آمُرُكَ أَنْ تَأْتِيَهُ، وَلَكِنَّهُ قَدْ أَظَلَّكَ زَمَانُ نَبِيٍّ، هُوَ مَبْعُوثٌ بِدِينِ إِبْرَاهِيمَ، يَخْرُجُ بِأَرْضِ الْعَرَبِ مُهَاجِرًا إِلَى أَرْضٍ بَيْنَ حَرَّتَيْنِ ( الحرة : الأرض ذات الحجارة السود )، بَيْنَهُمَا نَخْلٌ، بِهِ عَلامَاتٌ لا تَخْفَى : يَأْكُلُ الْهَدِيَّةَ وَلا يَأْكُلُ الصَّدَقَةَ، بَيْنَ كَتِفَيْهِ خَاتَمُ النُّبُوَّةِ، فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَلْحَقَ بِتِلْكَ الْبِلادِ فَافْعَلْ . قَالَ ثُمَّ مَاتَ وَغُيِّبَ، فَمَكَثْتُ بِعَمُّورِيَّةَ مَا شَاءَ اللهَّ أَنْ أَمْكُثَ، ثُمَّ مَرَّ بِي نَفَرٌ مِنْ كَلْبٍ تُجَّارًا، فَقُلْتُ لَهُمْ : تَحْمِلُونِي إِلَى أَرْضِ الْعَرَبِ وَأُعْطِيكُمْ بَقَرَاتِي هَذِهِ وَغُنَيْمَتِي هَذِهِ ؟ قَالُوا : نَعَمْ . فَأَعْطَيْتُهُمُوهَا وَحَمَلُونِي، حَتَّى إِذَا قَدِمُوا بِي وَادِي الْقُرَى ظَلَمُونِي فَبَاعُونِي مِنْ رَجُلٍ مِنْ يَهُود عَبْدًا، فَكُنْتُ عِنْدَهُ، وَرَأَيْتُ

النَّخْلَ، وَرَجَوْتُ أَنْ تكُونَ الْبَلَد الَّذِي وَصَفَ لِي صَاحِبِي، وَلَمْ يَحِقْ لِي فِي نَفْسِي، فَبَيْنَمَا أَنَا عِنْدَهُ قَدِمَ عَلَيْهِ ابْنُ عَمٍّ لَهُ مِنْ الْمَدِينَةِ مِنْ بَنِي قُرَيْظَةَ، فَابْتَاعَنِي مِنْهُ، فَاحْتَمَلَنِي إِلَى الْمَدِينَةِ، فَوَ اللَّهِ مَا هُوَ إِلا أَنْ رَأَيْتُهَا فعَرَفْتُهَا بِصِفَةِ صَاحِبِي، فَأَقَمْتُ بِهَا، وَبَعَثَ اللَّهُ رَسُولَهُ فَأَقَامَ بِمَكَّةَ مَا أَقَامَ، لا أَسْمَعُ لَهُ بِذِكْرٍ مَعَ مَا أَنَا فِيهِ مِنْ شُغْلِ الرِّقِّ، ثُمَّ هَاجَرَ إِلَى الْمَدِينَةِ، فَوَ اللَّهِ إِنِّي لَفِي رَأْسِ عَذْقٍ لِسَيِّدِي أَعْمَلُ فِيهِ بَعْضَ الْعَمَلِ وَسَيِّدِي جَالِسٌ إِذْ أَقْبَلَ ابْنُ عَمٍّ لَهُ حَتَّى وَقَفَ عَلَيْهِ، فَقَالَ فُلانُ : قَاتَلَ اللَّهُ بَنِي قَيْلَةَ، وَاللَّهِ إِنَّهُمْ الآنَ لَمُجْتَمِعُونَ بِقُبَاءَ عَلَى رَجُلٍ قَدِمَ عَلَيْهِمْ مِنْ مَكَّةَ الْيَوْمَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُ نَبِيٌّ، قَالَ فَلَمَّا سَمِعْتُهَا أَخَذَتْنِي الْعُرَوَاءُ ( برد الحمى ) حَتَّى ظَنَنْتُ سَأَسْقُطُ عَلَى سَيِّدِي، قَالَ : وَنَزَلْتُ عَنْ النَّخْلَةِ فَجَعَلْتُ أَقُولُ لابْنِ عَمِّهِ ذَلِكَ : مَاذَا تَقُولُ مَاذَا تَقُولُ ؟ قَالَ فَغَضِبَ سَيِّدِي فَلَكَمَنِي لَكْمَةً شَدِيدَةً ثُمَّ قَالَ : مَا لَكَ وَلِهَذَا ؟! أَقْبِلْ عَلَى عَمَلِكَ .

قَالَ قُلْتُ : لا شَيْءَ، إِنَّمَا أَرَدْتُ أَنْ أَسْتَثْبِتَ عَمَّا قَالَ . وَقَدْ كَانَ عِنْدِي شَيْءٌ قَدْ جَمَعْتُهُ، فَلَمَّا أَمْسَيْتُ أَخَذْتُهُ ثُمَّ ذَهَبْتُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ بِقُبَاءَ، فَدَخَلْتُ عَلَيْهِ فَقُلْتُ لَهُ : إِنَّهُ قَدْ بَلَغَنِي أَنَّكَ رَجُلٌ صَالِحٌ وَمَعَكَ أَصْحَابٌ

لَكَ غُرَبَاءُ ذَوُو حَاجَةٍ، وَهَذَا شَيْءٌ كَانَ عِنْدِي لِلصَّدَقَةِ، فَرَأَيْتُكُمْ أَحَقَّ بِهِ مِنْ غَيْرِكُمْ، قَالَ فَقَرَّبْتُهُ إِلَيْهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِأَصْحَابِهِ : كُلُوا . وَأَمْسَكَ يَدَهُ فَلَمْ يَأْكُلْ، قَالَ فَقُلْتُ فِي نَفْسِي هَذِهِ وَاحِدَةٌ، ثُمَّ انْصَرَفْتُ عَنْهُ فَجَمَعْتُ شَيْئًا، وَتَحَوَّلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى الْمَدِينَةِ، ثُمَّ جِئْتُ بِهِ، فَقُلْتُ إِنِّي رَأَيْتُكَ لا تَأْكُلُ الصَّدَقَةَ وَهَذِهِ هَدِيَّةٌ أَكْرَمْتُكَ بِهَا، قَالَ فَأَكَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْهَا، وَأَمَرَ أَصْحَابَهُ فَأَكَلُوا مَعَهُ، قَالَ فَقُلْتُ فِي نَفْسِي هَاتَانِ اثْنَتَانِ، ثُمَّ جِئْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ بِبَقِيعِ الْغَرْقَدِ، قَالَ : وَقَدْ تَبِعَ جَنَازَةً مِنْ أَصْحَابِهِ عَلَيْهِ شَمْلَتَانِ لَهُ، وَهُوَ جَالِسٌ فِي أَصْحَابِهِ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ ثُمَّ اسْتَدَرْتُ أَنْظُرُ إِلَى ظَهْرِهِ هَلْ أَرَى الْخَاتَمَ الَّذِي وَصَفَ لِي صَاحِبِي، فَلَمَّا رَآنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ اسْتَدَرْتُهُ عَرَفَ أَنِّي أَسْتَثْبِتُ فِي شَيْءٍ وُصِفَ لِي، قَالَ فَأَلْقَى رِدَاءَهُ عَنْ ظَهْرِهِ، فَنَظَرْتُ إِلَى الْخَاتَمِ فَعَرَفْتُهُ فَانْكَبَبْتُ عَلَيْهِ أُقَبِّلُهُ وَأَبْكِي، فَقَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : تَحَوَّلْ . فَتَحَوَّلْتُ فَقَصَصْتُ عَلَيْهِ حَدِيثِي كَمَا حَدَّثْتُكَ يَا ابْنَ عَبَّاسٍ، قَالَ فَأَعْجَبَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَنْ يَسْمَعَ ذَلِكَ أَصْحَابُهُ، ثُمَّ شَغَلَ سَلْمَانَ الرِّقُّ حَتَّى فَاتَهُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بَدْرٌ وَأُحُدٌ ...» [1].

(1) مسند الإمام أحمد بن حنبل ( ٥ \ ٤٤١ )

كان سلمان فارسيًا غير الفرس...

حالة فريدة في وجودها وجودتها وجدِّيتها...حالة ثرية في بذل الطاقة وقبول المعرفة...غريب عصره ومصره... راحته في بحثه لا في مكثه .

طالب علم مثالي يتمناه كل عالم... صبور على المعلم، شغوف على العلم، دؤوب على العمل، بعيد التسرع أو الملل...يدفع قوَّته للعلم قبل القوت، ويؤثر راحة روحه على جسد يفنى ويموت .

تحول برغبته من سيد فارسي مكرَّم إلى طالب علم يلهث خلف العلماء يعرض الخدمة مقابل المعرفة، ثم حولته مرارة الزمان ووحشية الإنسان إلى عبدٍ يثربيٍّ ذليل، والسيد ليس أوسيّا ولا خررجيًّا، السيد يهوديّ وما أدراك...يا ويل كل سيد عبده يهودي، فما بالك إن كان اليهودي هو السيد، والعبد الذي دونه قد كان سيدا مرفَّهًا يخشى عليه أبوه من الهواء الطلق !! كان الله في عون العبد...كان الله في عون سلمان .

سنواتٌ مريرةٌ ذاق فيها كل أنواع الألم...عمل لا ينفض، ومعاملة لا تُسعد، وغربة لا تنفد...فارسيٌّ اعتنق النصرانية

ويخدم في يهود بني قريظة الشحيحة الثريَّة...يعمل ويتعب فلا يُشكر ولا يُؤجر ولا يُترك وشأنه...ورغم ذلك فهو صابرٌ حليمٌ حالمٌ، في كل صباح ينتظر سماع خبر هجرة نبي آخر الزمان إلى يثرب، ثم يدخل المساء ولا جديد، فيستيقظ على ذات الأمل دون ملل، ولولا علمه بأنها مهجر نبي الله وتأكيد اليهود على الخبر كلما قاتلوا الأوس والخزرج لما احتمل البقاء فيها لحظة، وما طاب فيها حاضرٌ ولا مستقبل...

إن هذا المكان دون رسول الله ﷺ موحش مفزعٌ غير معين على الطاعة أو حتى العيش...وكيف يطيب العيش في مكان بعضه يهود، وبعضه يعبدون صنمًا أسموها مناة ؟؟..

كيف يطيب العيش في مكان يتهيأ لتنصيب عبد الله ابن أُبيّ بن سلول ملكًا ؟؟ ما لهذا جاء سلمان وتحمل الرِّقَّ لسنوات !!....

فإن ما تركه في وطنه أفضل وأليق وأشرف مما هو فيه من مهانة وعذاب وضعف هنا...لقد خلَّف وراءه عزًّا يتمناه كل بني قومه...أراد عزًّا حقيقيا، وغنًا روحيا، وثراءً قلبيًا...أراد إلهًا لا تطفئه الماء، ولا تقتله مجاعة نفاذ الوقود...إلهًا يتصرف

في الكون كيف يشاء، وينصرف عنه السوء من الأشياء، إلهًا يستغني ويُغني، إلهًا يعين خلقه لا يستعين بهم .

**كأنه ورقة بن نوفل بنسخته الفارسية...**

ولأنه قدم تضحيات استثنائية، فقد استحق بركة مثالية تفوق البركات...بركة تنفذ الى رحمة لا حدَّ لها ولا ندّ... لأنه لم يكن مجرد عبد شغله الرِّقّ، إنما هو سيد رُقَّ لانشغاله بالحق...بالله...برسول الله ﷺ ....فكان سلمان أولى ممن سواه بطاقة تغسل متاعبه ثم لا تتركه حتى تداعبه .

لقد استحق الفارسي بركة غايتها « لست وحدك يا سلمان » ... وهذه هي الرحمة بعينها .

**لست وحدك يا سلمان...**

كنت وحيدًا طوال رحلتك العريضة، تتحمل المتاعب وحدك، وتحمل الهمَّ وحدك، وتفكر في المستقبل وحدك، وتنتظر الفرج وحدك، حتى أعلن رسول الله لك البشرى، وأظهر فيك الرحمة « كاتب يا سلمان »... قد آن لك أن تركن إلى غيرك...قد حان لك أن تأوى إلى سواك، وهو ليس كأي غير أو ككل سوى، إنه الركن

الركين والحصن الحصين، رحمة رب العالمين للعالمين... ولو لم ينطقها رسول الله لما كانت لك حرية يا سلمان، أو ربما تأخرت حتى فاتتك مشاهد وأحداث ومعجزات وأنوار وأسرار لا يُطالعها إلا رجالٌ يملكون حريتهم...لقد فتح لك الطريق، ولن يتركك تسير وحدك، بل ولن تسير إلا بعده .

**لست وحدك يا سلمان...**

إن كنت قد تركت أهلك وحريتك في بلادك فإنك قد سكنت مدينة تعوض المرء عما فقده بأضعاف مضاعفة، مدينة ترد الخير خيرات والتضحية تسهيلات، مدينة تحكمها الحكمة والرحمة، وحاكمها رسول الله ﷺ...لقد أكرمك أيما كرم ورحمك أيما رحمة حينما قال لأصحابه عنك وفي حضورك « أعينوا أخاكم »...كنت في أشد الحاجة ــ حال عبوديتك ــ إلى كلمة ترفع روحك وتطيب خاطرك وقد كان...لم يقل رسول الله لأصحابه « أعينوا سلمان « ...إنما سمَّاك بأشرف الأسماء وأرفعها وأرحمها وأجبرها، حتى لا تشعر ولو للحظة أنك دونهم كونك عبدٌ وهم أحرار، فأعلمك وذكّرهم أن كل المسلمين إخوة لا فرق بينهم إلا بالتقوى، وأنك أحد جماعة

كبيرة متساوية...كما أنه يخبرك أن هؤلاء المهاجرين والأنصار هم أهلك بحقٍّ، فهم أعمال صالحة . ولا حاجة لك بأهل يكفرون كما كفر ابن سيدنا نوح فلم يبق من أهله بأمر من الله .

## لست وحدك يا سلمان ....

ما كنت تملك نخلة أو فرخًا أو حتى جريدة أو مجرد سعفة يتيمة وقتما كاتبت اليهودي، لكنك ضحَّيت قديما بمزرعة أبيك العامرة لأجل الحق...أكنت تظن أن الحق سيتركك وحيدًا في محنة الثلاثمائة نخلة ؟؟ ...أكنت تظن أن الرحمة المهداة سيقف صامتًا غير مكترث ؟؟... لقد حدث ما لا يمكن تخيله أبدًا في مجتمع إنساني خارج حدود المدينة المنورة، أما هنا وفي حضور نبي الرحمة فلا يمكن تخيل فعلٍ غير الذي قد كان.... لأجلك طلب رسول الله ﷺ من أصحابه أن يعينوك، فما تخلفوا ولا بخلوا وأعانوك «الرجل بثلاثين ودية والرجل بعشرين والرجل بخمس عشرة والرجل بعشر » حتى أتموها لك ثلاثمائة، ثم لم يتركوك حتى فقّروا لها معك...

وتحولت برحمته مسألة تحريرك إلى مناسبة عامة احتفل فيها الجميع بك وقدَّموا لك الهدايا، فمنهم من أهداك وديه، ومنهم من أهداك بالتفقير جهده، ومنهم من أهداك غيرهم ودَّه... وانصهر المهاجرون والأنصار في ساحة كبيرة لمناسبة غير الجهاد في سبيل الله، يضربون الأرض بالفؤوس، ويُخرجون الشحّ من النفوس....رحمة منه ﷺ بنفسك وفأسك .

## لست وحدك يا سلمان....

قد كنت تحفر وتزرع وتحصد وتقلع وتُهذِّب النخل لسنوات قبل قدوم رسول الله ﷺ وبعده، وتصبر على ذلك كرامة لرسول الله، لكن...أكنت تتخيل في أبهى أوقات تفاؤلك وأكثرها استبشارًا أن يتم تحريرك بهده الطريقة التي كانت ؟؟... أن يزرع رسول الله ﷺ بنفسه وبيديه الشريفتين الثلاثمائة ودية التي فيها خلاصك!!...هو أغرب من الخيال بمراحل خيالية...

ما هذه الرحمة المجاوزة لحدود ما نعتقد ؟! وما هذا الجبر الجميل المستدرِك لأفهامنا وأعمالنا ؟؟...بنفسه يا سلمان قام على أمرك حتى أتمَّه !!... كان يكفيك طلبه من أصحابه على

إعانتك، لكنه أراد مكافئتك برحمة وفرحة تستغرق ما قاسيته بدرجات لا نهائية، وكأنه يقول لك «إن كنت قد زرعت لأجلي مرة أو اثنتين أو ثلاثين، فها أنا ذا أزرع لأجلك ثلاثمائة «... بنفسه أعانك في معاناتك رحمة بك...لا شك أن ما شعرت به في هذه الساعة قد مسح كل سنوات الألم بآلامها، وبدلها بهجةً وراحةً وثقةً وعزًا .

**لست وحدك يا سلمان....**

كنت تملك بقرات وغنيمات أنفقتها أجرة للقافلة رغبة منك في دار الهجرة، ولما ظلموك وباعوك خسرت مالك وحريتك، وها أنت تحتاج الأن إلى أربعين أوقية ذهبية تستعيد بها حريتك المسلوبة ولا مال لك، تحتاج إلى معجزة يقتنع فيها اليهودي بالتخلي عن شرط الذهب، أو معجزة يتوفر بها الذهب... بدا الأمر صعبًا، وتأجَّل العتق وربما يُلغى...ثم تجلَّت رحمة رسول الله ﷺ عليك مرة أخرى، وأُعيد إنتاج أملك من جديد، لينتهي على إثرها حسبانك من العبيد..« **فأتى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بمثل بيضة الدجاجة من ذهب من بعض المغازي، فقال: ما فعل الفارسي المكاتب؟. قال:**

**فدعيت له، فقال: خذ هذه فأد بها ما عليك يا سلمان! فقلت: وأين تقع هذه يا رسول الله مما علي؟ قال: خذها، فإن الله عز وجل سيؤدي بها عنك، قال: فأخذتها فوزنت لهم منها -والذي نفس سلمان بيده - أربعين أوقية، فأوفيتهم حقهم وعتقت** » ... ما كان لك أن تقول متعجبًا « وأين تقع هذه يا رسول الله مما عليّ ؟ »...إن كان ولا بد أن تقول فقل : وأين يقع ما عليَّ من هذه يا رسول الله ؟..

إنه نبي الرحمة يا سلمان...ولو كان ما عليك أربعون ألف أوقية لكفت وما نقصت، فاحمد الله على أن ما في يديه ينمو من بركة دارجة إلى رحمة خارقةٍ، ولو كانت بركته لا تترقى فما كان لك أن تُعتق، وما كان لك خلاص من ذاك اليهودي الذي يُحسن استعمال ثرواته وأنت أحدها... لكنك تكرمت بفضل الله عليك حتى حزت رحمة حبيبه ﷺ، فجزت الصعاب، ورافقت الأصحاب، وكنت من الأهل والأحباب... فلم تبق وحدك، ولقيت وعدك .

*****

لم تكن أبدا مصادفة أن يتم تحرير سيدنا سلمان بهذا الشكل التضامني الفريد، إنما أُريد له قصة مبهرة ملهمة

تتناسب وقصة كفاحه المبهرة الملهمة، والحقيقة أنها فاقت قصته شكلًا ومضمونًا...أُريد له جبرًا يستره ويجمِّله... أُريد له ذكرًا خالدا لا ينفد عبر الأزمنة والأمكنة، كما جاهد عبريهما جهادا كبيرا...أُريد له عُرسًا يليق بمشتاقٍ قبل أن يرى، وعاشقٍ بعدما رأى...أُريد له رحمة تنقله من عالَمه إلى معلِّمه .

وقبل أن نترك ملحمة عتق سيدنا سلمان رضي الله عنه وجب أن نشير إلى أن قول الحق عز وجل ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ .

تعدّى في هذه القصة عتق سيدنا سلمان بفيض من رحمته ﷺ إلى غيره من المسلمين، وأن السيد اليهودي المغالي في مطالبه قد أفاد المسلمين أيما إفادة دون أن يُدرك، ولو أدرك لما فعل... لم يكن يعلم أن هذه النخلات المباركات وغيرها من أراضٍ وبساتين ودور ستؤول إلى رسول الله وإلى المسلمين عما قريب، إما بما أوصى به مُخيريق ــ خير يهود ــ للنبي بعد مقتله في أُحدٍ دفاعًا عن رسول الله وإيفاءً للعهد، وإما بما حكم به سعد بن معاذ في بني قريظة إثر هزيمة

الأحزاب ووقوفهم ضد رسول الله وقد خانوا العهد... ولو كان يعلم أن شرطه سيزيد المسلمين غِنًا ورفعة وتوطينًا في المدينة لما شرطه، بل ربما اشترط أن يقطع له سلمان ثلاثمائة نخلة من نخل المسلمين، فيفقرهم بدل أن يزيد غناهم . ولو كان سلمان والمسلمون يعلمون أن النخل الذي سيزرعه رسول الله ﷺ بيديه الشريفتين إنما يزرعه لهم لا لليهودي لاستنقصوا العدد وطالبوا اليهودي باشتراط الزيادة لأضعاف، أو ربما تبرعوا بالزيادة عن طيب خاطر وحسن أداء .

ولأنه رحمة للعالمين فقد أسعدهم وطيبهم ونعَّمهم بتمر لا مثيل له في الدنيا، تمر أساسه رحمة سرت من يديه الشريفتين تستمد منه النخل غذاءها وبهاءها وعافيتها، تستمد منه هيبتها ومكانتها بين سائر النخيل، فتقف شامخة رافعة هاماتها عنان السماء متسائلة في بني جنسها « من غرسكن ؟؟ فيقلن : فلان بن فلان...فتلتفت إلى نخلات أخريات في اتجاه آخر : وأنتن من غرسكن ؟؟ فيقلن : فلان بن فلان ...ثم الى اتجاه ثالث ورابع، والإجابة عند نخيل المشرق والمغرب لا تزيد عن : فلان بن فلان...ثم يجتمعن على نخل الميثب بسؤال ضروري

استهجاني : وأنتن من غرسكن يا متفاخرات ؟؟ فيجيب الميثب بصوت لا ينقصه عزة وفرحة وروعة : غرسنا رسول الله ﷺ...، فتنخفض النخيل منكبة على وجهها عن قناعة ورضا تام استعظامًا لشيء وضع فيه الحبيب يده واعتنى به »

وكذا حال التمر بين التمور...فالتمر الذي أساسه رسول الله لا يعدله تمر في اللون والطعم والرائحة والصلاحية والفائدة...بل إنه لا يوزن بشيء من الفواكه ــ مهما علت جودته وقيمته ــ إلا وزنه بنواه عوضا عن لحمه .

والعجيب في الأمر أن النخل الذي زرعه رسول الله ﷺ بيديه الشريفتين قد أثمر في نفس العام ، رغم أن النخل يحتاج إلى أعوام ليثمر، إلا أن بركة رسول الله المفعمة بالرحمة قد نزلت به فاختصرت أعوامه في أشهر معدودات...والأعجب والأغرب أن هذا النخل باقٍ إلى اليوم على حاله يُثمر !!... دون أن يُقطع أو يشيخ أو يقلعه السوس !!...باقٍ كما هو رحمة متجددة من رسول الله ﷺ لا تنقطع، فتتزين به منطقة العوالي بالمدينة المنورة، ويأكل منه المسلمون ما لا يجدونه في أي مكان في العالم .

وإذا كان قد مر على زراعة النخل أكثر من 1435 عاما هجريًا، فإن ذلك يُظهر في أول ما يتبادر إلى الأذهان أن ملايين المسلمين قد شُرِّفوا بالتغذي والتفكُّه والتبرك بالتمر النبوي، وأنهم قد نالوا قسطهم من الرحمة النبوية في هذا الجانب، الذي تجاوز بكل انسيابية عجيبة سيدنا سلمان وقصة عتقه النابضة بالمواساة والإخاء والبذل إلى من أراد الله من العالمين...فمن أراد الله إكرامه أطعمه منها ولو شق تمرة .

وستبقى مزرعة " سلمان الفارسي " أو " الميثب « جزء من التاريخ الممتد إلى الحاضر والمستقبل، جزء هام شاهد على جزء من رحمة رسول الله ﷺ بسيدنا سلمان وبالمسلمين في عصره وما بعده من عصور إلى أن يشاء الله، جزء لا يُحكى فقط....بل يُرى ويُستطعم .

# نفحة من تواضعه ﷺ

# زاهر وجليبيب

كسمة كل عصر... الغني مميز، والقوي مميز، والفصيح مميز، والجميل مميز . وأضدادهم مُحقَّرون، مُنفَّرون، مُعلَّلون...!!

ولأن عصر صدر الإسلام لم يكن ذا بُعدٍ عمري عن عصر الجاهلية فقد بقي في النفوس والأذهان شيء مما ألفته الطبائع والأعراف الجاهلية...شيء يُعيد المسلم إلى ما قبل الإسلام ولو للحظة...شيء يستحقر ويستهين ويسخر من كل ما يراه قليلا في عينيه... شيء يميل إلى الكبر والتسلط...شيء يفرِّق الأمَّة إلى طبقات لا معنى معها للأخوَّة...شيء يحتاج إلى أن يُنزع بالحب لا بالقوة...

والحقيقة أن رسول الله ﷺ قد تعامل مع هذا « الشيء » بطريقة لا تليق إلا به، ولا تكون إلا منه...فقد جاء النبي والكفَّة راجحة بشكل صارخ لكل من له ميزة ظاهرية، فأدخل في النفوس أول ما أدخل أن الأمر مداره القلب، وأنه هو محل نظر الرب فقال (**إنَّ الله لا ينظر إلى أجسامكم ولا**

**إلى صوركم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم)** [1].. ونظر الرب هو المعتبر، لا نظرة البشر.

وبين لأغنياء المال وفقرائه أن **(ليسَ الغِنَى عن كَثْرَةِ العَرَضِ، ولَكِنَّ الغِنَى غِنَى النَّفْسِ.)** [2]..

وأسعد الفقراء مرة أخرى حينما أخبرهم أنهم يدخلون الجنة قبل الأغنياء بخمسمائة عام...ورفع رأسهم حينما دعا ربه أن يحيه مسكينا وأن يحشره في زمرة المساكين... ومواقف أخرى ينتصر فيها للفقير على المجتمع الذي لا يراه ولا يعتد به ولا يستوعب مشاعره .

وبين لأقوياء الجسد وضعفائه أن «**ليسَ الشَّدِيدُ بالصُّرَعَةِ، إنَّما الشَّدِيدُ الذي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الغَضَبِ**» [3]

وبين لفصحاء اللسان ومتلعثميه أن الله عز وجل لا ينخدع بحسن المقال ولا يقضي كما البشر بظاهر الحجج فقال « إنَّما أنا بَشَرٌ وإنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إلَيَّ، ولَعَلَّ بَعْضَكُمْ أنْ يَكونَ

(1) صحيح مسلم ( ٢٥٦٤ )
(2) صحيح البخاري ( ٦٤٤٦ )
(3) صحيح البخاري ( ٦١١٤ )

أَلْحَنَ بحُجَّتِهِ مِن بَعْضٍ، فأَقْضِي علَى نَحْوِ ما أَسْمَعُ، فمَن قَضَيْتُ له مِن حَقِّ أخِيهِ شيئًا، فلا يَأْخُذْهُ فإنَّما أقْطَعُ له قِطْعَةً مِنَ النَّارِ»[1] فيهدأ العاجز عن التعبير ويطمئن إلى عدم ضياع حقه، حتى وإن حُرمه في الدنيا لتلعثمه فإنه آخذه لا محالة بما هو أفضل يوم القيامة .

ولما رأى المجتمع ينفر من الدَّميم وينجذب الى الجميل كانت له وقفة غاية الروعة لفرط ما أظهره ﷺ من تواضع مليء بمكونات الرحمة الكاملة ..

وقد كان ذلك في مناسبات عديدة نقتطف منها مشهدين يحسن الجمع بينهما...

**( ١ ) عن أنسٍ أنَّ رجُلًا مِن أهلِ البادِيَةِ اسمُه زاهِرٌ كان يُهدي للنبيِّ صلَّى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم ... فقال النبيِّ ﷺ : « زاهِرٌ بادِيَتُنا ونحنُ حاضِرَتُه، وكان النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم يُجَهِّزُه إذا أراد الخُروجَ إلى البادِيَةِ، وكان زاهِرٌ دَميمَ الخِلقَةِ فأتاه النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم وهو يَبيعُ شيئًا له**

(1) صحيح البخاري ( ٧١٦٩ )

فِي السُّوقِ فاحتَضَنه مِن خَلفِه، فقال له: مَن هذا ؟ أَرسِلْني، والتَفَت فعرَف النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم فجعَل النبي صلَّى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم يقولُ: مَن يَشتَري مِنِّي هذا العبدَ ؟ وجعَل هو يَلصِقُ ظهرَه بصدرِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم ويقولُ: إذًا تَجِدُني كاسِدًا، فقال له النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم: ولكنَّكَ عِندَ اللهِ لستَ بكاسِدٍ » (1)

( ٢ ) ورجل آخر من الصحابة الكرام يدعى جليبيبًا، وقد كان فقيرًا دميم الوجه قصير القامة، ولم يكن محل نظر أحدٍ من الخلق...وكان يُكثر الجلوس عند رسول الله ﷺ ...

عن أبي برزة الأسلمي «أنَّ جُلَيبيبًا كان امرَأً يَدخُلُ على النِّساءِ، يَمُرُّ بهنَّ ويُلاعِبُهنَّ، فقُلتُ لامرأتي: لا يَدخُلَنَّ عليكم جُلَيبيبٌ؛ فإنَّه إنْ دَخَلَ عليكم، لأفعَلَنَّ ولأفعَلَنَّ، قال: وكانتِ الأنصارُ إذا كان لأحَدِهم أَيِّمٌ لم يُزوِّجْها حتى يَعلَمَ هل للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ فيها حاجةٌ أم لا، فقال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ لرَجُلٍ مِن الأنصارِ: زَوِّجْني ابنتَكَ، فقَالَ: نَعَمْ وكَرامةً يا رسولَ اللهِ، ونُعْمَ عَيني، قال: إنِّي لستُ

(1) ابن حجر العسقلاني ( الإصابة ١ \ ١ ٥٤٢ )

أُريدُها لنَفْسي، قال: فلمَن يا رسولَ الله؟ قال: لجُلَيبيبٍ، قال: فقال: يا رسولَ الله، أُشاوِرُ أُمَّها، فأتى أُمَّها فقال: رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وَسلَّمَ يَخطُبُ ابنتَكِ، فقالتْ: نَعَمْ، ونُعمةُ عَيَني، فقال: إنَّه ليس يَخطُبُها لنَفْسِه، إنَّما يَخطُبُها لجُلَيبيب، فقالتْ: أجُلَيبيبٌ إنِيهِ؟ أجُلَيبيبٌ إنِيهِ؟ أجُلَيبيبٌ إنِيهِ؟ لا، لعَمرُ الله لا نُزوِّجُه، فلمَّا أرادَ أنْ يَقومَ؛ لِيأتيَ رسولَ الله صلَّى اللهُ عليهَ وسلَّمَ فيُخبِرَه بما قالتْ أُمُّها، قالتِ الجاريةُ: مَن خَطَبَني إليكم؟ فأخبَرَتْها أُمُّها، فقالتْ: أتَرُدُّونَ على رسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أمْرَه؟ ادفَعوني؛ فإنَّه لم يُضيِّعْني، فانطلَقَ أبوها إلى رسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ فأخبَرَه، فقال: شَأنَكَ بها، فزَوَّجَها جُلَيبيبًا، قال: فخَرَجَ رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في غَزْوةٍ له، قال: فلمَّا أفاءَ اللهُ عليه قال لأصحابِه: هل تَفقِدونَ مِن أحَدٍ؟ قالوا: نَفقِدُ فُلانًا ونَفقِدُ فُلانًا، قال: انظُروا هل تَفقِدونَ مِن أحَدٍ؟ قالوا: لا، قال: لكنِّي أفقِدُ جُلَيبيبًا. قال: فاطلُبوه في القَتلى، قال: فطَلَبوه فوَجَدوه إلى جَنبِ سَبعةٍ قد قَتَلَهم، ثُمَّ قَتَلوه، فقالوا: يا رسولَ الله، ها هو ذا إلى جَنبِ سَبعةٍ قد قَتَلَهم، ثُمَّ قَتَلوه، فأتاه النَّبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ فقام عليه فقال: قَتَلَ سَبعةً وقَتَلوه، هذا منِّي وأنا منه، هذا منِّي

**وأنا منه، مرَّتَينِ أو ثلاثًا، ثُمَّ وَضَعَه رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ على ساعدَيْه وحَفَرَ له، ما له سَريرٌ إلَّا ساعِدا رسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، ثُمَّ وَضَعَه في قَبرِه، ولم يُذكَرْ أنَّه غَسَّلَه. قال ثابتٌ: فما كان في الأنصارِ أيِّمٌ أنفقَ منها، وحَدَّثَ إسحاقُ بنُ عبدِ الله بنِ أبي طَلحةَ ثابتًا قال: هل تَعلَمُ ما دَعا لها رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؟ قال: اللَّهُمَّ صُبَّ عليها الخيرَ صَبًّا، ولا تَجعَلْ عَيشَها كَدًّا كَدًّا، قال: فما كان في الأنصارِ أيِّمٌ أنفقَ منها »**[1].

لم يكن ذلك النبي العربي ممن يكتفون بالإشارة إلى مكارم الأخلاق، لم يكن أحد أولئك المنظِّرون الذين يجيدون التكليف ولا يُكلَّفون، الذين يحسنون القول ولا يعملون، الذين يوزعون المهام والاتهام ولا يُحاسَبون... كان ﷺ يطبق ثم ينطق، وإن كان النطق مرة فالتطبيق مرات .

لو قال لأصحابه ألف مرة : تواضعوا....ثم هو لا يفعل فلن يستجيبوا، ولو أمرهم ألف مرة بالإحسان إلى زاهر وجليبيب وأمثالهما ثم هو ينفر منهما فلن يفعلوا غير الذي يفعل لأنه قدوتهم .

(1) شعيب الأرناؤوط ( تخريج المسند ـ ١٩٧٨٤ ) ...إسناده صحيح على شرط مسلم .

لكن الذي فعله رسول الإنسانية معهما قد فاق شروط الفعل وأسباب اللين وبواعث التواضع، ومن الجور أن يُصنَّف ما قام به النبي ﷺ معهما تحت باب التواضع العاميّ، ذلك الذي يمارسه العابد لتهذيب نفسه وإبعادها عن الكبر ومقدماته...أما تواضع النبي ﷺ فليس لتهذيب نفسٍ أو لإبعاد كبرٍ، فهو معصوم من ذلك وقد أدَّبه ربه فأحسن تأديبه، إنما دافع تواضعه في كل موقف من مواقف حياته مع الجميع رحمة خالصة بالخلق وللخلق، رحمة تجبر كسر القلوب، وتنصر ضعف النفوس، وتنير ظلام الأرواح...

رحمة تنقل أحطَّ الناس في نظر الناس إلى أشرفهم وأعلاهم...

رحمة تُحبِّب النظر إلى وجوه قد كانت منفَّرة، وتُطيِّب التعامل مع نفوس قد كانت محقَّرة، وتُصفِّي التأمل في أرواح قد كانت مكدَّرة .

وككل مجتمع إنساني تتباين فيه الأشكال كان المجتمع النبوي... فيهم شديد الجمال كمصعب بن عمير ودحية الكلبي، وفيهم الشكل العادي المألوف كأغلب أصحابه،

وفيهم قبيح الوجه جميل الخُلق كزاهر وجليبيب...

والظاهر أن المجتمع لم يحسن التعامل معهما بما هما له أهل، لا نقول بأن المجتمع كان يمارس معهما كِبرًا دفينًا، أو استعلاءً مصطنعًا، ربما هي قلة اكتراث ناجمة عن فطرة بشرية لا تميل بطبعها إلى كل ما هو أدنى... وأيًا ما كانت الدوافع الحقيقية لحالة النقص التي يشعر بها زاهر وجليبيب فالنتيجة واحدة، هناك ألم عنيف يحتاج إلى تدخل لطيف، هناك أزمة نفسية طبقية مجتمعية تحتاج إلى حل لا يخسر معه أحد ويربح معه الجميع...المعتدِي والمعتدَى عليه، الظالم والمظلوم، الفاعل والمفعول به، المجتمع وزاهر وجليبيب .

ومن غير نبي الرحمة قادر على الحل دون تكاليف يتكبدها أحدهم ؟؟...

من أفضل منه ينصر الظالم والمظلوم ؟؟...

من أجدر منه يرفع الحرج عن الجميع دونما حرج ؟؟ .

لا أحد غيره ﷺ ...

**أولا....رحمته بزاهر.**

والخبر الذي بين أيدينا مفعم بتواضع غايته رحمة...

( ❋ ) كان رسول الله يقبل هديته كلما جاء من البادية بأعشاب، ثم يهاديه إذا عاد إليها بما يحتاجه أهل البدو من الحضر، الأمر الذي يرفع شأن البدوي الدميم بين الناس ويعزز ثقته في نفسه، فقد قُبلت هداياه من خير الخلق ثم أُهدي منه، وفي ذلك علامة على علو منزلته عند رسول الله ﷺ .

( ❋ ) قول النبي لأصحابه **( زاهر باديتنا ونحن حاضرته )** يحمل في ظاهره وباطنه شرفا لا يُضاهى، وكرامة لا تُحصى... فإن قال زاهر ــ ولو في نفسه ــ على سبيل الفخر : إن كان بلال مؤذن الرسول، وحسان شاعره، فها أنا ذا باديته »...لو قال ذلك لما كذبه أحد .

( ❋ ) لم يخف النبي ﷺ عن أصحابه حبه الشديد لزاهر، وقد ظهر ذلك جليًا في مشهد نادر الحدوث في مجتمع إنساني وبالأحرى عربي...الطبيعي ألا ينشغل القائد العظيم بنفسية فرد عادي لا ينفع ولا يضر، البديهي ألا يلتفت من أُعطي

الجمال كله إلى قبيح تنفر منه الأعين وتخشى منه الأنفس... لكنه أُرسل رحمة للعالمين، وزاهر في أشد الحاجة إلى رحمة تغير حاله وتبدد آلامه...من يشتري المتاع من بائع قبيح الوجه ؟ ربما وقف طوال يومه في السوق وأمتعته كما هي لم يُبع منها واحدًا، لا شك أن ذلك يدور في ذهنه كل لحظة وهو ينتظر مشترٍ يقف أمامه فيناقشه ويفاصله في السعر والجودة .

ثم فجأة يأتي من خلفه من يحتضنه بشدة لم يقدر معها البدوي القوي على الإفلات، ربما هو عدو يحاول الإيقاع به، أو منتهب يأخذ أموال الناس غصبًا .

حاول زاهر بكل ما أوتي من قوة أن يتخلص من هذه الجذبة العفيَّة فلم يستطع، فبدأ يسأل ويطلب : من هذا ؟، أرسلني » ....

ثم سُمح له بالالتفات وهو مُحتضَن فإذ به يُشرق ويبتسم ويهدأ ويستسلم ويُلصق ظهره بصدر النبي ﷺ زيادة في الكرامة والرحمة والشرف والأمان، والناس لا يكادون يصدقون تواضع النبي ومداعبته لذلك البدوي الدميم المهجور... مشهد يتجاور فيه أجمل وجه خلقه الله مع وجه قبيح في عُرف البشر.

ثم نادى رسول الله في الناس مازحًا « **من يشتري مني هذا العبد ؟** » فأعلن زاهر بما في نفسه وربما بما في نفوس الناس أمامه من فكرة الكساد التي تلاحقه، والواضح أن رسول الله ﷺ قصد حدوث كل ذلك من احتضان ومداعبة وعرضٍ للبيع مزاحًا لينبه الجميع وأوهم البدوي بمقامه قائلا » «لكنك عند الله لست بكاسد» أو قال: « عند الله أنت غال» [(١)] ....

ما هو موقف زاهر حينما يعلم مكانته عند الله وعند رسوله ؟... هو غالٍ عند ربه محبوبٌ عند رسوله، أي شرف ينتظر زاهرٌ بعد هذا الشرف العظيم ؟... وكل ذلك على مرأى ومسمع من الناس، كأنه يخاطبهم ( إن كنتم ترونه لا شيء فهو عندنا شيء كبير )...

إنها رحمة هائلة تفوق ما أراده البدوي الدميم...لقد تصاعدت ثقته في نفسه، وارتفعت أسهمه لدى الناس، وراجت تجارته، وهو في كلٍ مشغول بمكانته عند ربه ونبيه... ذلك البدوي الغالي المحبوبٍ .

ما أعظمها من رحمة يا زاهر....

(١) زيادة « عند الله أنت غال » مسند أحمد بن حنبل ( ٣ | ١٦١ )

## ثانيا....رحمته بجليبيب ..

والمتأمل في قصة النبي مع جليبيب يلاحظ قدرًا هائلًا من التواضع المغموس بوافر الرحمة الكاملة .

( * ) لم يكن لجليبيب من متاع الدنيا شيء...لا مال ولا جمال ولا جاه، سوى أنه يحب الله ورسوله، فلم يكن يُلتفت إليه، ولا يُراعى في متطلباته الإنسانية، فصارت مسألة زواجه أمرًا صعب المنال...ومن يزوج اخته أو ابنته لفقير دميم لا عائلة له ؟؟

لا ميزة فيه تُرغِّب إحداهن أو وليّها في إبرام عقد النكاح الأبدي، يحتاج إلى تدخل عُلوي لإحداث ذلك، أو لامرأة تشابهه الحال فلا ترفضه...

ولأنه نبي الرحمة فقد تدخل في الأمر دونما طلب من جليبيب، فعرض عليه أن يزوجه، فشعر جليبيب بأنه كاسد إلى الحد الذي يتوسط معه النبي ليزوِّجه، فأخبره النبي وأعلم الصحابة أنه ما توسط في زواجه إلا لأنه عند الله غال وليس لأنه كاسد....كأنه يعالج نفسيته ونفسية أصحابه تجاهه .. وكيف يكون كاسدا من كان النبي وليُّه في الزواج ؟

( * ) إن كان ولا بُدَّ لرسول الله ﷺ أن يُزوِّجه فليختر له فتاة تشاركه الفقر والدَّمامة، تشاركه المعاناة من نظرة المجتمع، تشاركه المصير الباهت...

لكن رسول الله ﷺ اختار له من تشاركه صفاء القلب، وجودة القرار، وحُسن الاختبار، اختار له من تشاركه حب الله ورسوله...اختار له بمعيار التقوى من تليق به، وكانت الفتاة بمعيار البشر جميلة لا تليق بأمثاله .

بالفعل خطب له النبي ابنة رجل من الأنصار، وقد تأمَّل الرجل أن يكون الخاطب رسول الله ﷺ لا غيره، فإن كانت لغيره فلتكن لسيد من السَّادة الأغنياء الوسماء خليقٌ بها وخليقةٌ به، لكنه لم يتخيل ـ للحظة ـ حينما أخبره النبي ﷺ أنه يخطبها لغيره أن يكون الخاطب ذلك الفقير الدميم !!

حاول الرجل إرجاء الرَّفض احترامًا لرسول الله ﷺ فطلب الانتظار حتى يستشير أمَّها ـ ولو كان الخاطب غير جليبيب لما أشار من الأساس ـ وهو يوقن بأنَّ أمَّها سترفض بكل كلمات الرفض فيكون الرفض من غيره لا منه .

ولم تخيَّب المرأة ظنَّ زوجها بها فرفضت واستنكرت

وأقسمت باستحالة ذلك الأمر...إن الفتاة صغيرةٌ وجميلةٌ ولبيبةٌ ومقتدرةٌ، وقد رُفض من هم أرقى شأنًا من جليبيب لعدم مكافئتهم لها...أيُكافئها هو ؟!

فلما همَّ الرجل بالقيام لإخبار النبي ﷺ بالرفض ــ المنطقي ــ قالت البنت التي لا تنظر بعين المجتمع، ولا تفكِّر بعقله : «**أَتَرُدُّونَ على رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أمْرَه؟ ادفَعوني؛ فإنَّه لم يُضيِّعْني** » .

فتراجعا ووافقا على الزواج، ودعا رسول الله لها بالبركة لما علم من قناعتها وعدم اكتراثها لما تلتفت إليه الفتيات... فالمرء لا يُعيبه إلا دينه، وعلى هذا يُزوَّج أو يُرفض، وقد كان جليبيب شديد الغنى والجمال بدينه، حتى صار عند الله غال جدا .

( ❋ ) لقد أشعر النبي جليبيبًا بقيمته التي لم يكن يشعر بها، فلم يعد مستغربًا أن يزيد حب الله ورسوله في قلبه أضعاف ما كان، وتجلى ذلك حينما خرج النبي للغزو بعد زواجه بأيام فخرج معه جليبيب يقاتل كأفضل وأشجع ما يكون من مقاتل في سبيل الله .

وبعد انتهاء المعركة انشغل الصحابة بمن يفقدون من أصحابهم، ورسول الله يسألهم : « **هل تَفقِدونَ مِن أحَدٍ؟ قالوا: نَفقِدُ فُلانًا ونَفقِدُ فُلانًا، قال: انظُروا هل تَفقِدونَ مِن أحَدٍ؟ قالوا: لا، قال: لكنِّي أفقِدُ جُلَيبيبًا** »..

مرة أخرى يذكرهم بمكانة جليبيب عنده وعند ربه، لم يسأل رسول الله ﷺ عن أحد غيره، رغم أنه يفقد جميع من فُقدوا، إلا أن كل مفقود له من يطلبه ويذكره ويبحث عنه، فمن لذلك الفقيد الفقير الدميم الوحيد !!

لا تحزن يا جليبيب، لك رسول الله يطلبك ويبحث عنك ....

وبعد بحث من الجميع وجده رسول الله بين سبعة قتلهم فقتلوه، وتلك شجاعة استثنائية نابعة عن حب صادق وإيمان خالص، لأن المؤمن قد خفف الله عنه ورُخِّص له أن يفرَّ إن كان العدو أمامه فوق اثنين ولا إثم عليه «**الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ**

**يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ »**[1] .

لكن جليبيبًا قد ثبت أمام سبعة من المشركين وقتلهم !! ... لأنه ما رأى من هذا الدين ونبيه الكريم إلا كل رحمة وكرامة وشرف، فأنَّى له الفرار من خدمة هذا الدين ونصرة نبيه الرحيم ؟؟

وحينما رآه الحبيب المصطفى على هذه الحالة الإيمانية العالية زاده رحمة وكرامة وشرفًا «**هذا منِّي وأنا منه، هذا منِّي وأنا منه، مرَّتَينِ أو ثلاثًا** »...

يا سعدك يا جليبيب. ..الرجل يعيش عمره ويموت ولا يخاطب بمثل ما خوطبت به، أنت من رسول الله وهو منك !!.

يكفيك هذا القول حينما يسألك الملكان : من ربك ؟؟... فتقول بكرامة...: الذي أنا عنده غال .

(1) سورة **الأنفال ( ٦٦ )**

فيسألانك. .. ما دينك..؟؟...فتجيبهما بعزة ... : الذي قُتلت في سبيل الدفاع عنه.... فيسألانك ثالثة... من النبي الذي بُعث فيك..؟؟.. فتخبرهما بفخر : الذي هو مني وأنا منه ... يكفيك هذا القول حينما تقابل ربك يا جليبيب .

ثم جلس نبي الرحمة متربعًا، وحمله على ساعديه حتى حفروا له قبره، وما كان له فراش غير ساعدي النبي حتى دُفن ﵁ .

فهل من العدل أن يوضع ما فعله الرسول ﷺ مع زاهر وجليبيب في إطار التواضع الإنساني المتعارف عليه بين الناس ؟! إن ما فعله معهما لا يُقارن به تواضع بشري، ولا يُعرف له نظير إنساني لا من حيث القول ولا من جهة الفعل .

أما من حيث القول فقد أثبت لهما المكانة العالية عند الله ونفى عنهما الكساد، وأما الفعل فمرة يحتضن زاهرًا، ومرة يحمل جليبيبًا، وهو الأغلى والأجمل بين جميع من نفر منهما من العباد !!...

إنها رحمة صافية فاض بها رسول الله ﷺ على رجلين لم

يكن لهما حظٌّ قبلُ في الدنيا، لم يكن لهما صاحب، لم يكن لهما مُحبّ، لم يكن لهما أمل فيما يمارسه الناس يوميًا من أشياء تبدو عادية، لم يكن لهما ترحابٌ ولا استيعابٌ...

فازدانت الحياة بقوله وفعله كأمتع وأسعد ما يكون للمرء من نصيب، وأشرقت الآخرة لأجسادٍ وأرواحٍ لامسها الحبيب.

وكانا من جملة من شمله قول الله تعالى ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ**﴾ .

# أنصار حنين

قد يناسب البعض إدراج هذه الحادثة بمجملها تحت باب « الحكمة » لما تحويه من حكمة بالغة لا يمكن أبدا تجاهلها، لكن الحق أن كل مواقف رسول الله ﷺ الفعلية والقولية وحتى السكوتية لا تخلو من الحكمة، لأنه ﷺ أبدًا لا ينطق ولا يفعل ولا يسكت عن هوى، فكلها وحي من لدن حكيم عليم، فكان بديهيًّا أن تكون كل حركة وسكنة لرسول الله لها حكمة....

لكن الحكمة في أعلى مراتبها لا تكون غاية بقدر ما تكون وسيلة لشيء وُجدت لإنفاذه...ذلك الشيء لا يكون إلا « الرحمة » . .

فالحكمة إن لم توصِّل إلى رحمة فإنها مكرٌ يضر أول ما يضر صاحبه، ولا نفع لأحد من ورائه إلا الشيطان الرجيم .

وكل الصفات لها شأن الحكمة، لا بد أن تكون غايتها «الرحمة »، وإلا فقل على الدنيا السلام .

والحقيقة أن « الرحمة » في جانبٍ ــ غير صغيرــ من هذه

القصة متوفرة بشكل أكبر عبر منفذ « التواضع » ...

فكان من الحكمة أن نضمِّنها تحت هذا الباب إظهارًا لما فعله سيد الخلق ﷺ .

قال تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ * ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾[1]

لم تكن حنين مجرد معركة انتصر فيها المسلمون، كانت تجربة غنية بالأحداث والعبر، بداية من نشوة فتح مكة، وكثرة الجند فيها عن أي معركة، وفرار جانب من الجيش الحصين، وثبات رسول الله والمؤمنين، وحصول الانتصار الثمين، ثم الغنائم الهائلة، وقسمة رسول الله العاقلة العادلة، وأخيرًا وجِدةُ الأنصار الغافلة .

والذي يعنينا في هذا الباب آخر ما ورد في هذه القصة من

(1) سورة التوبة ( ٢٥ ـ ٢٦ )

فعل الأنصار ورد فعل النبي ﷺ

«لَمَّا أعْطى رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ما أعْطى من تلك العَطايا في قُرَيشٍ وقَبائِلِ العَرَبِ، ولم يكُنْ في الأنْصارِ منها شَيءٌ، وَجَدَ هذاً الحَيُّ من الأنْصارِ في أنْفُسِهم؛ حتى كَثُرَت فيهم القالةُ؛ حتى قال قائِلُهم: لَقِيَ رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قَومَه، فدَخَلَ عليه سعدُ بنُ عُبادةَ، فقال: يا رسولَ الله، إنَّ هذا الحَيَّ قد وَجَدوا عليكَ في أنْفُسِهم؛ لِمَا صَنَعتَ في هذَا الفَيءِ الَّذي أَصَبتَ؛ قَسَمتَ في قَومِك، وأعْطَيتَ عَطايا عِظامًا في قَبائِلِ العَرَبِ، ولم يَكُ في هذا الحَيِّ من الأنْصارِ شَيءٌ، قال: فأين أنتَ من ذلك يا سَعدُ؟ قال: يا رسولَ الله، ما أنا إلَّا امرُؤٌ من قَومي، وما أنا؟! قال: فاجْمَعْ لي قَومَك في هذه الحَظيرةِ، قال: فخَرَجَ سَعدٌ، فجَمَعَ الأنْصارَ في تلك الحَظيرةِ، قال: فجاءَ رِجالٌ من المُهاجِرينَ، فتَرَكَهم فدَخَلوا، وجاءَ آخَرون، فرَدَّهم، فلَمَّا اجتَمَعوا أتاهُ سَعدٌ، فقال: قد اجتَمَعَ لكَ هذا الحَيُّ من الأنْصارِ، قال: فأَتاهُم رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فحَمِدَ اللهَ وأثْنى عليه بالَّذي هو له أهْلٌ، ثُمَّ قال: يا مَعشَرَ الأنْصارِ، ما قالَةٌ بَلَغَتْني عنكم، وجِدَةٌ وَجَدتُموها في أنْفُسِكم؟! أَلَمْ آتِكم ضُلَّالًا فهَداكُمُ اللهُ؟ وعالةً فأغْناكُمُ

اللهُ؟ وأعداءً فألَّفَ اللهُ بيْنَ قُلوبِكم؟ قالوا: بَلِ اللهُ ورسولُه أمَنُّ وأفضَلُ، قال: ألَا تُجيبونَني، يا مَعشَرَ الأَنْصارِ؟ قالوا: وبماذا نُجيبُكَ يا رسولَ اللهِ؟ وللهِ ولرسولِه المَنُّ والفَضْلُ، قال: أمَا واللهِ لو شِئتُم لَقُلتُم، فلَصَدَقتُم وصُدِّقتُم، أَتيتَنا مُكذَّبًا فصَدَّقْناكَ، ومَخذولًا فنَصَرْناك، وطَريدًا فآوَيْناك، وعائِلًا فآسَيْناك، أوَجَدتُم في أنْفُسِكم يا مَعشَرَ الأنْصارِ، في لُعاعةٍ من الدُّنيا، تَألَّفتُ بها قَومًا لِيُسلِموا، ووَكَلتُكم إلى إسْلامِكم، أفَلا تَرضَوْنَ يا مَعشَرَ الأنْصارِ، أنْ يَذهَبَ النَّاسُ بالشَّاةِ والبَعيرِ، وتَرجِعون برسولِ اللهِ في رِحالِكم؟ فوالَّذي نَفْسُ مُحمَّدٍ بيَدِه، لولا الهِجْرةُ لَكُنتُ امرَأً من الأنْصارِ، ولو سَلَكَ النَّاسُ شِعْبًا، وسَلَكَتِ الأنْصارُ شِعْبًا، لَسَلَكتُ شِعْبَ الأنْصارِ، اللَّهُمَّ ارْحَمِ الأنْصارَ، وأبْناءَ الأنْصارِ، وأبْناءَ أبْناءِ الأنْصارِ! قال: فبَكى القَومُ، حتى أخْضَلوا لِحاهُم، وقالوا: رَضِينا برسولِ اللهِ قَسْمًا وحَظًّا، ثُمَّ انصَرَفَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وتَفَرَّقوا.» [1].

العجيب في الأمر أن إلحاق هذه الحادثة الفارقة

(1) شعيب الأرناؤوط ( تخريج المسند ـ ١١٧٣٠ )

ضمن باب تواضع النبي لم يذهب إليه كثير من المسلمين، رغم ما تحويه من جميع مكونات التواضع، لكنَّا نعذر من لم ير ذلك لأن رسول الله مُحيِّرٌ في أفعاله وأقواله، فقد أوتي جوامع الكلم كما أوتي كمال الفعل... والمتأمل في أقوال وأفعال وسكوت النبي يدرك أنه ما زاد إلا تحيرًا مع شدة الإعجاب، يدرك أنه لم يدرك شيئا... **وكيفَ يُدرِكُ في الدُّنيا حَقيقَتَه...قَوْمٌ نِيَامٌ تَسَلَّوا عنهُ بالحُلُمِ فمَبْلَغ العِلمِ فيه أنه بَشَرٌ... وأَنَّهُ خير خلْقِ الله كُلِّهِمِ**[1].

وخذ هذه الحادثة التي بين أيدينا مثالًا...يمكن تصنيفها ضمن باب الحكمة، ويجوز وضعها في باب الحلم، ويُقبل إضافتها تحت باب الصبر، ولا يُستغرب إلحاقها بباب اللين، ولا يُستهجن إلصاقها بباب العفو، ولا مانع من إدخالها بباب جبر الخواطر...

وكلها نافعة تؤدي غرضها، وتُزيد الباحث والسامع والقارئ انبهارًا برسول الله ﷺ، وكيف عالج الأزمة بدون خسائر !!

(1) قصيدة البردة للإمام البوصيري

ورغم ذلك....فالأولى بهذه الحادثة أن تُوضع ضمن تواضعه ﷺ عن غيره من صفاته الخُلقية، لأن قول الله تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ .

**قد وضح في جانب التواضع أكثر .**

كانت الأنصار يومئذ في أمسِّ الحاجة إلى رحمة رسول الله ﷺ، ولو لم تُعط لهم لما كان لهم فوز ولا مستقر بعده أبدًا، ولربما عادوا على شفا حفرتهم التي قد أُنقذوا منها، ولربما أمرّ من ذلك، إلا أن قربهم من قلب رسول الله، ومكانتهم لدى الدين الحنيف، وصلتهم بالله رب العالمين قد سهَّل بروز الرحمة فيهم بكمية وكيفية تليق بمقامهم الرفيع...

الأنصار.....حُضن الإسلام الآمن وقت جفوة الأهل والعشيرة، وحِصن الإيمان الكامل زمن ضلال أهل الكتب والبصيرة....

هم الحب في أعلى درجاته، والإيثار في أرقى كمالاته.... نفحة الإخلاص في جوِّ النفاق، ونفخة اللين في فضاء الشقاق....

رسول الله دينهم ودنيتهم، وأنفسهم وأنفاسهم .. لذا فقد جعلهم رسول الله ﷺ اختبارًا إجباريًا يمرُّ عليه جميع المسلمين، من نجح فيه كان مؤمنًا...وإلا فهو من جملة المنافقين... **عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله علبيه وسلم الأَنْصارُ لا يُحِبُّهُمْ إلَّا مُؤْمِنٌ، ولا يُبْغِضُهُمْ إلَّا مُنافِقٌ، فمَن أحَبَّهُمْ أحَبَّهُ اللَّهُ، ومَن أبْغَضَهُمْ أبْغَضَهُ اللَّهُ.** ﴾[1]

ولأنهم يحبون رسول الله إلى هذه الدرجة، ويُخلصون إلى الدين لهذا الحد...فقد انجرفوا بعواطفهم ومشاعرهم نحو هذا المسلك الغريب عليهم ومنهم، ووضعوا أنفسهم في حرج أغضبهم منه ثم أبكاهم لأجله...

والحق يُقال، لم تكن وجِدة الأنصار عن نفاق أو طمع في الدنيا، إنما كانت رغبة في استبقاء كمال عناية رسول الله بهم، ظنًا منهم أن هذه العناية قد تلاشت وقتها وجد رسول الله قومه، فكانت منهم هذه الصرخة العفوية...

بداية الأمر كانت في مكاسب الغزوة المادية، فقد غنِم

(1) صحيح البخاري ( ٣٧٨٣ )

المسلمون في حنين غنائم هائلة لا مثيل لها من قبل، فظن الأنصار ـ كغيرهم ـ أن نصيبهم من الغنائم سيكون على قدر ما غُنم، لكنهم فوجئوا برسول الله يُعطى أبا سفيان بن حرب، وسهيل بن عمرو، وحكيم بن حزام، وصفوان بن أمية، وعيينة بن حصن الفزاري، والأقرع بن حابس، كل واحد منهم مائة من الإبل ..!! كما أعطى أعرابيًا قد سأل شيئًا إبلًا بين جبلين قد كانت له ﷺ !! بخلاف ما أغدق من البعير والغنم والذهب والفضة على غيرهم ممن لهم قرب عهد بالجاهلية وقد أسلموا أعقاب فتح مكة الذي لم يمض عليه سوى أيام.. ورغم كل هذه العطايا الخيالية، لم يكن للأنصار منها شيء !!

ولما رأى الأنصار البعير تُساق يمينًا، والشاء تُقاد يسارًا، والذهب يسكن السُّرر، والفضة تُعانق الجيوب، وهم لا شيء لهم من هذا كله وجدوا في أنفسهم من رسول الله ﷺ، وكثُرت فيهم القالة بأن رسول الله لقي قومه ولا حاجة له بهم بعد اليوم، رغم أنهم وقفوا مع رسول الله لسنوات، وحاربوا معه هؤلاء القوم لغزوات، حتى أن سيوفهم تقطر من دمائهم، لكن المرء بطبعه يميل إلى أهله وعشيرته، كيف لا وقد أسلموا وأذعنوا لرسالته...

لم يفطن الأنصار لغاية النبي من الإغداق الشديد على هؤلاء المسلمين الجدد، لم يفهموا أن ذلك العطاء دافعه الأول والأخير هو تأليف القلوب للإسلام... فغضبوا وحزنوا.. ولأنهم أصحاب قلوب طاهرة لم يُخفوا ذلك عن رسول الله، فأمر رسول الله سعد بن عبادة أن يجمعهم في مكان يستوعبهم وحدهم حتى يحدثهم حديثًا خاصًا بهم، ولما اجتمعوا قد كانت لرسول الله خيارات إن شاء فعل أحدها، وهو يومئذٍ قد ملك الجزيرة العربية من أقصاها إلى أقصاها، وقد دانت له القوى، ولانت له الصعاب، واستتب الأمر لنبي الإسلام وحده...

**الأول**...أن يتخلص منهم ــ كما يفعل بعض القادة ــ لأنهم بكلامهم يُهدِّدون استقرار دولته الحصينة .

**الثاني**...أن يُعنِّفهم ــ كإجراء خفيف ــ لأنهم ظنوا منه ما ليس فيه وهو لا يحب أن يؤذيهم .

**الثالث**... أن يُخبرهم ــ بكل بساطة ــ أن القسمة التي حدثت هي أمر من الله ولا دخل له فيها، ومن ثم فلا سبيل للاعتراض عليها ولو في النفس .

لم يستعمل رسول الله شيئًا من هذه الخيارات، لأنه لا يريد بهم إلا الرحمة...لا يريد تعذيبهم أو تهديدهم أو إسكاتهم، إنما يريد إفهامهم والحفاظ عليهم، فتواضع معهم ﷺ أيما تواضع حتى رُحموا .

**أولا..... التذكير بسابق النعم...**

واجههم رسول الله بوجِدة أنفسهم عليه، وقرر أن يزيل ذلك عنهم وبأقصى سرعة، حتى لا ينالهم من الله غضب شديد وعذاب أليم، فلا يرضى الله عن قوم في أنفسهم شيء من رسوله ﷺ، فلما جمعهم ذكّرهم بنعم الله عليهم، وقد كان سببها رحمة رسول الله بهم وقت الهجرة إليهم؟! « **أَلَمْ آتِكم ضُلَّالًا فهَداكمُ اللهُ؟ وعالةً فأغْناكمُ اللهُ؟ وأعداءً فألَّفَ اللهُ بيْنَ قُلوبِكم؟** »...ذكّرهم بحالتهم السابقة البائدة، ضلالٌ لا ينتهي إلى حكمة، وفقرٌ لا يوصل إلى مغنم، وعداوةٌ لا تصبُّ إلى أمان...حياةٌ بائسةٌ نهايتها الجحيم المحتَّم...

لكن بقدومه تغيَّر كل شيء، فالضلال أضحى هدى، والفقر أصبح غنى، والعداوة صارت لُقى...

تذكّروا أنهم كانوا به أنصارًا وسادة للعُرب والعجم،

تذكّروا أن ما قدَّمه لهم من خدمات كافية جدًا بل وزائدة عما يستحقون ويحلمون...فقالوا جماعة « بَلِ اللهُ ورسولُه أمَنُّ وأفضَلُ»...فانتفى عنهم العذاب أو العتاب مجرد إقرارهم بذلك وقد عادوا عن وجدتهم المهلكة لهم بحديثه إليهم . ولو أنه ﷺ استعمل أساليب القادة المستكبرين ما كان لهم أن يفهموا ويُرحموا، ولربما زادوا قناعة بفكرتهم التي تدَّعى بأن الرسول يفضِّل قومه عليهم بمجرد إسلامهم...

لكنه استعمل أسلوبه الخاص، فأخفض لهم جناحه، واهتم لأمرهم، وتحدث إليهم بلين ورفق، فما كان لهم بديل غير الفهم والرجوع إلى الحق... ولا شك أن ذلك رحمة شديدة بهم ...

**ثانيا....الإعتراف بفضلهم ...**

لو أنه قائدٌ يُصنَّف ضمن القادة العظماء لاكتفى بما قال وبجوابهم، ولأنهى الاجتماع السريع بهذه التوبة النَّصوح العاجلة...لكنه القائد الأعظم، والسياسي الأبرع، والنبي المقدَّم، لذا فلن تُرفع الجلسة حتى يطمئنهم بأن مكانتهم لديه لم تهتز بعد وجدتهم هذه ...فقال متواضعًا «**أَلَا**

**تُجيبونَني، يا مَعشَرَ الأنْصارِ؟ قالوا: وبماذا نُجيبُكَ يا رسولَ اللهِ؟ ولله ولرسولِه المَنُّ والفَضْلُ، قال: أمَا واللهِ لو شِئتُم لَقُلَتُم، فلَصَدَقتُم وصُدِّقتُم، أَتَيتَنا مُكذَّبًا فصَدَّقْناكَ، ومَخذولًا فنَصَرْناك، وطَريدًا فآوَيْناك، وعائِلًا فآسَيْناك..»**...هذه القطعة الإنسانية الفريدة تُصنَّف ـ عندي ـ من أقوى الكلمات التي تواضع فيها رسول الله ﷺ في حياته العامرة بالأقوال والأفعال المشرَّبة بالتواضع...

أراد أن يسمع لهم ردًّا غير الذي كان منهم، فكرروه بلفظه ومعناه، فاقترح عليهم ردًّا لو قالوه لصَدقوا فيه ولصُدِّقوا منه عليه الصلاة والسلام، وقبِل على نفسه أن يكون مُكذَّبًا ومخذولًا وطريدًا وعائلًا، ثم هم صدقوه ونصروه وآووه وآسوه !!...

هذه النبرة الراقية لا تصدر إلا عن حالة كمال، أن يُنسب الفضل لفاعله، ويُنصب الجهد لباذله، فذاك عين الاعتراف بدور المجتمع في حياة الفرد، وهو أيضا عين كمال الفرد المتصالح مع نفسه إلى الحد الذي يستعظم معه كل مساهمة ـ ولو قليلة جدا ــ صدرت عن المجتمع ....

إن هذا النبي العربي متواضع حد الكمال المطلق !!... يُضيف إلى الأنصار فضلًا حاشاه أن يكون محتاجًا إليه، فلم يكن بحاجة أبدًا إلى تصديقٍ أو نصرٍ أو مأوى أو مواساة من بشرٍ كائنًا من كان، ومن يظن في نبيه غير ذلك فهو مضطرٌ لإعادة النظر في علاقة الله تعالى بنبيه عليه الصلاة والسلام...

ما كان الحبيب بحاجة إلى غيره من المخلوقات في كل مراحله، بداية من خلقه إلى الناس وحتى قبضه إلى الله... تأمل قول الله عز وجل لحبيبه ﴿وَالضُّحَىٰ ۝١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ۝٤ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ۝٥ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ﴾ [ سورة الضحي ١ ، ٨ ] .

وكيف يعود محتاجًا من أنشأه الله غنيًا به عن الخلق ؟!... كيف يرجع ناقصا من كمَّله الله ؟!

فرسول الله ﷺ مصدقٌ ومنصورٌ ومأويٌّ ومواسَى من الحق قبل وبعد الخلق شاء من شاء وأبى من أبى...واليقين أن رسالته ماضيةٌ في العالمين حال استقبال الأنصار للنبي أو

حتى مع الرفض، لأنه ببساطة مؤيدٌ من الله....

وذات اليقين أن المنتفع الوحيد من استقبال الأنصار للنبي هم الأنصار أنفسهم، لأنهم ربحوا عِشْرة سيد ولد آدم، صاحب خير أمَّة أُخرجت للناس، أول من تنشق عنه الأرض يوم القيامة، وأول شافع وأول مشفَّع ﷺ، كما استُنقذوا من عذاب النار، وسُعدوا برضوان الله عليهم، وسكنوا جنة عرضها السماوات والأرض أُعدت للمتقين...

أما رسول الله فمعصومٌ من الناس، منصورٌ برب الناس في كل الأحوال، لا يُشغله الخلق عن الحق، ولا يحجبه عن البيان إنسٌ ولا جانّ...كل ما في الأمر أن أهل مكة لم يجاروا سنة الله النافذة في نبيه، وأهل المدينة استحسنوها واتبعوها وأخلصوا لها، فكان الضلال والفقر والخذلان لمن حارب سنة الله، وكانت الهداية والغنى والإيلاف لمن أذعن لسنة الله...ففاز الأنصار وخسر الكفار ...

غير أنه ﷺ يشكر للأنصار نواياهم الطيبة، ومبادراتهم الحسنة، وصدق التوجه إلى الله بالذَّود عن رسوله قدر إمكان البشر...والهدف من ذلك إعلامهم بأن مكانتهم عنده مستقرة

كما هي حتى بعد وجدتهم الغير موفقة، وأنه سيصدِّقهم لو ذكروا لهم أفضالًا عليه ...

وتلك رحمة ثانية خصَّهم بها، وميَّزهم بوجودها . .

**ثالثا.... ثقته في اختياراتهم وإيمانهم .**

في القطعة الأولى ذكّرهم بفضل الإسلام عليهم، وفي الثانية أثبت لهم الفضل عليه، لكنه لم يتطرق ولو تلميحًا إلى سبب وجدتهم إلا في هذه القطعة، وقد ذكرها صراحة وبأسلوبه الخاص جدا...فقال «**أوَجَدتُم في أنْفُسِكم يا مَعشَرَ الأنْصارِ، في لُعاعةٍ من الدُّنيا، تَألَّفتُ بها قَومًا لِيُسلِموا، ووَكَلتُكم إلى إسْلامِكم، أفَلا ترضَوْنَ يا مَعشَرَ الأنْصارِ، أنْ يَذهَبَ النَّاسُ بالشَّاةِ والبَعيرِ، وتَرجِعون برسولِ الله في رِحالِكم؟ فوالَّذي نَفْسُ مُحمَّدٍ بيَدِه، لولا الهِجْرةُ لَكُنتُ امرَأً من الأنْصارِ، ولو سَلَكَ النَّاسُ شِعْبًا، وسَلَكَتِ الأنْصارُ شِعْبًا، لَسَلَكتُ شِعْبَ الأنْصار**» ...

وهنا انتبه الأنصار إلى ما كانوا عنه غافلين .

وكأني أراهم يضعون أيديهم على رؤوسهم حسرةً لحظة سماعهم لهذه القطعة الرقيقة، وجوههم مصفرَّةٌ، وأعينهم لامعة تستجمع الدَّمع ...وكأنهم يقولون : ما هذا الذي صنعناه ؟!...

أين كانت عقولنا ؟!...

أين ذهبت قلوبنا ؟! ...

ألهذه الدرجة ابتعدنا ـ في لحظة ـ عن خطى رسول الله ؟! ...

كيف رأيناه يفضِّل قومه لأجل لعاعة من الدنيا، وهو لا يفضِّلُ أحدًا في العالمين علينا ؟! ...

لقد أشعرهم بوضاعة ما تاقت إليه نفوسهم فور ما أخبرهم بما في نفسه تجاههم، إنه يراهم مؤمنين راسخين لا يلتفتون إلى النقائص ولا تسرقهم الدنيا بزركشتها الخادعة، فما وكلهم إليه خير مما حرمهم منه، وما حرمهم منه لا يليق بمقامهم الفريد....فلما وصل إليهم ذلك المعنى خجلوا من أنفسهم .

( ✻ ) ثم زادهم رفعةً به وخجلًا منه حينما رفع سقف التواضع النبوي إلى عُلوٍّ لا نظير له.... أن يجعل ذاته الشريفة من جملة المكاسب والغنائم التي يُرجع بها من الغزوات، وأنه ﷺ قد قسم لغيرهم بالشاة والبعير وقسم لهم بذاته الشريفة، ثم يسألهم أتُرضيهم هذه القسمة أم لا!!.. رغم أن ما ينقلبون به خير مما ينقلب به الناس !!... من أي منبع عظيم يستقي هذا الأعظم تواضعه ؟!...

( ✻ ) ثم يُقسم بربِّه أنه لولا الهجرة لكان منهم...وكأنه يقول لهم وهم أهل فطانة وكياسة « لا أحبكم لأجل نصرتكم لي حينما جئتكم مهاجرًا، إنما أحبكم لذاتكم ولإيمانكم، ولو لم يسبق الكتاب بالهجرة إليكم، لسبق بالإيجاد منكم »...فأثبت بتواضعه أن الانتساب إليهم شرف وهذا صحيح .

لكن الأصح أن وجوده ﷺ في أي سلسلة بشرية يرفع شأن أصولها وفروعها إلى مكانة عالية يستحيل الوصول إلى أدنى درجات علوها مهما تعاظمت السلاسل الطامعة في الشرف المنسَّب والمحسَّب، يكفي أنها موصولة برسول الله وغيرها مقطوع....ورغم أنه موطن الشرف والفخر فقد

أخبرهم بأن الانتساب إليهم شرف وفخر !!

( * ) ثم أكد لهم ثقته في اختياراتهم وقراراتهم ـ بعدما وكلهم إلى إسلامهم ـ بأنه يتَّبع طريقهم وطريقتهم حينما يسلكون شعبًا غير الناس، وكأنه يقول لهم...( الناس جميعًا في كفَّة، وأنتم أصحاب الكفَّة الراجحة ) وليس ذلك من قبيل المجاملة أو المحاباة، إنما لأجل الحق الذي يسير أينما ساروا ويصير كيفما صاروا...

ومع أن الأنصار أهلٌ لذلك كله مع جميع الخلق إلا أنهم مع سيد الخلق تابعٌ يشرف بالاتِّباع والمتابعة، تابعٌ يرى نفسه محظوظًا لوجوده في عصر النبوة وقد آمن بها، تابعٌ يجاهد ليل نهار لتجنب مخالفة الأمر النبوي، تابعٌ يتلقف الأمر المحمدي باستعذاب يودُّ أن لا ينتهي...

غير أن رسول الله أوتي التواضع كله، فجعل مراده مرادهم وطريقه طريقهم، وجعل لهم شرفًا يزداد بكل كلمة ينطقها في حقهم .

فنالتهم بتواضعه عليه الصلاة والسلام رحمة ترتفع بها جباههم، وتنتصر بها راياتهم .

**رابعا....مكافئتهم على إخلاصهم ...**

وكأن كل ما سبق منه تجاههم عبارة عن مجرد مقدمات لنتيجة واحدة... « **اللَّهُمَّ ارْحَمِ الأنْصارَ، وأبْناءَ الأنْصارِ، وأبْناءَ أبْناءِ الأنْصارِ!**»...

رغم أن كل جملة من الجمل السابقة لهذا الدعاء كافية جدا لبناء وطن، ورحمة أمة، وفخر يدوم إلى يوم القيامة، إلا أن الحبيب المصطفى أجود بالخير من الريح المرسلة، فدعا لهم وألحق بهم أبناءهم وأحفادهم كرامة لهم... والثابت أن دعاء النبي مستجاب لا محالة، فكانت المكافأة واقعة للأجيال الثلاثة دونما شك..

والمتأمل يلحظ أن رسول الله ﷺ لم يدعُ للأنصار بشيء سوى الرحمة « اللهم ارحم...»

وهذا دليل على أن الرحمة هي غاية الغايات ومنتهى النهايات، فلولا الرحمة لهلكت الأكوان بالعدل، ولولا الرحمة لما كان لشيء ينبض أن ينبض، وما كان لشيء يسعد أن يسعد...

كما أن دعاءه لهم بالرحمة تأكيدٌ صريحٌ بما كان مبطَّنًا في كل كلمة تواضع فيها معهم، حتى يطمئنوا تمام الاطمئنان أن النَّازل بهم ـــ رغم وجدتهم عليه ـــ رحمة ولا غير...

**لقد أكدت هذه الحادثة أن رسول الله بشر غير البشر...** يرفع النفوس من وضاعتها إلى تواضعه، ويطهِّر القلوب من خبثها إلى خيره، وينقي الأرواح من فسادها إلى سداده .. جاءه الأنصار وفي أنفسهم شيء، فخرجوا من عنده يبكون وقد أخضلوا لحاهم، وليس لهم قول إلا.. « **رَضِينا برسولِ اللهِ قَسْمًا وحَظًّا**» ...!!...

ولو كان له تصرُّف غير الذي فعل، لكان لهم قول غير الذي قالوا، ومن ثمَّ كانت لهم عاقبة غير التي جُعلت فيهم، فلم تكن لهم رحمة ..

لكن رسول الله مفتاح كل مغلول، وطبيب كل معلول، وعزَّة كل مذلول...قد كسب بتواضعه قلوبهم فعادوا إلى رشدهم مسرعين، ثم أكسبهم راحتهم فبكوا بكاء النادمين...

فكانوا من خيرة من أكرمهم الله بقوله ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ**﴾.

وحده رسول الله قادرٌ على إنفاذ الرحمة وقتما يظهر للناس استحالتها...

وحده رسول الله علاجه حُلوٌ وفعَّال...

وحده رسول الله بابنا إلى الله .

# البساطة

( * ) كان ﷺ في خدمة أهله، فيحلب شاته، ويخصف نعله، ويخيط ثوبه، ويُقطع لهم اللحم...رحمة بأهله...فيخفف عنهم مشقةً، ويرفع عنهم عملًا.

( * ) كان ﷺ يؤاكل المساكين، ويقبل دعوة المملوك... رحمة بالضعفاء...فلا يشعرون بأنهم أنقص من الأغنياء في شيء، بل هم أعلى، وطعامهم أشهى ...

( * ) كان ﷺ يُلاعب الغلمان، وتسحبه الجارية إلى دار سيدها فيشفع لها، ويحتضن الصغير الذي مات نُغيره...رحمة بالصغار... فيزدادون به شغفًا لعدم ترفعه عنهم، ولمخالطته إياهم .

( * ) كان ﷺ يقبل المعذرة، ولا يُحرج أحدًا أخطأ...رحمة بالمذنبين...فيشعرون بأبويته لهم، وستره عليهم، وحرصه على صورتهم...

( * ) كان ﷺ يجمع حطب الطعام، ويحمل حجر المسجد، ويحفر أرض الخندق...رحمة بالمسلمين... فتعلوا

همَّتهم ، وتنشط طاقتهم، ويهين أمامهم الصعب...

( ❊ ) كان ﷺ ينام على الحصير، ويتوسد الليف، ويضع طعامه على الأرض، ويركب الحمار، ويُردف خلفه، ويشد الحجر على بطنه من الجوع...رحمة بالفقراء....فلا يحزنون لفاقتهم وحاجتهم، وقدوتهم يشاركهم الحال...

رحمات بعضها فوق بعض...وما على البشر إلا حسن الاستقبال .

# لمحة من شجاعته ﷺ

# الصدع بالدعوة

**هادئة جدا...**

في براءتها يكمن الذنب، وفي حكمتها تستتر الجاهلية، وفي أناقتها تختبئ الفوضى، وفي سلطنتها يعتكف الوهن، وفي شرفها تسكن الرذيلة !!

**مكة...مجمع المتناقضات..**

الكعبة والصنم...

زمزم والخمر...

المناسك والحُمس...

اللسان الفصيح والعقل الجاهلي...

أحب البلاد إلى الله، وأحب الناس لمن سواه...!!

لم تكن تلك البقعة الجافة تنتظر تغييرًا يلامس أفكارها ويختبر معتقداتها، ولم تكن تتخيل ـ في أقصى أطراف الخيال ـ أن الثلاثمائة وستين صنمًا ستُنزع وتُهدم وتُبعد عن الكعبة، ولم تكن تستشعر أبدًا حدوث مفاجآت قد تقلب الموازين، وتُقلِّبُ المُوالين .

ثقةٌ قاهرةٌ تتكئ على نفوذ بارز وقوة مستفحلة...

ومن يقدر على مكة بأهلها ؟!..بل ومن يقدر عليها ولو بدون أهلها ؟! ...ولجميع الملوك والجيوش في أبرهة وجيشه عبرة عظيمة...

إنها محمية بقوة خارقة يظنونها نابعة من قربهم وتوددهم للأوثان، وطالما هم يُعظمونها ويخدمونها ويعبدونها فلا خوف على وطنٍ تحرسه المثالية، ولا خوف من عدو مهما بلغت فاعليته القتالية...يكفي أهل مكة الوقوف على الجبال للاستمتاع بمشاهدة العدو يُقذف بالعذاب الثقيل...

وإن تخلت السماء عنهم فإنهم قد تسلحوا بفرسان عظماء لم يكن لهم وجود عام الفيل...

من يقدر على مكة وفيها حمزة وعمر بن الخطاب وعمرو بن هشام وخالد بن الوليد وعمرو بن العاص، وكثير من الشجعان الذين لم يجد الزمن بمثلهم في عصر واحد ؟؟...

من يقدر على تحدى حكمة عتبة بن الربيع، أو رأي الوليد بن المغيرة ؟؟...

من يقدر أن يوقف عنفوان أمية بن خلف، وشراسة أبي لهب ؟؟....

من يقدر أن يتحدى نفوذ أبي سفيان، وسيادة أبي طالب ؟؟ كل المؤشرات تُحيل حدوث شيء يُصادم هواها... فمكة محصَّنة من كل ما لا ترضاه، وهي لا ترضى سوى هُبل وأمثاله آلهة رسمية لها...

وبينما هي تستعرض أمانها وسطوتها واستقرارها الممتد عبر الدهر إذ فاجأها صوت مَصدره أعلى جبل الصفا، فتوقفت عن مهامها حينما نظرته فعلمته محمدًا بن عبد الله، ولو كان غيره المتكلم لما انتبهت بكاملها، فمحمد قليل الكلام والاختلاط مع صدقه وأمانته وهيئته وهيبته، لا شك أن الأمر هام جدا، ولا مانع من الإنصات إليه ومن ثَم تُستأنف المعايش...

**عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما.. «لَمَّا نَزَلَتْ: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾** [سورة الشعراء :٤١٢] **صَعِدَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم علَى الصَّفَا، فَجَعَلَ يُنَادِي: يا بَنِي فِهْرٍ، يا بَنِي عَدِيٍّ -لِبُطُونِ قُرَيْشٍ- حتَّى اجْتَمَعُوا، فَجَعَلَ الرَّجُلُ إذَا**

**لَمْ يَسْتَطِعْ أنْ يَخْرُجَ أرْسَلَ رَسولًا لِيَنْظُرَ ما هُوَ، فَجاءَ أبو لَهَب وقُرَيْشٌ، فَقالَ: أرَأَيْتَكُمْ لو أخْبَرْتُكُمْ أنَّ خَيْلًا بالوَادِي تُرِيدُ أنْ تُغِيرَ علَيْكُم؛ أكُنْتُمْ مُصَدِّقِيَّ؟ قالوا: نَعَمْ، ما جَرَّبْنَا عَلَيْكَ إلَّا صِدْقًا، قالَ: فإنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ، فَقالَ أبو لَهَبٍ: تَبًّا لكَ سَائِرَ اليَوم، ألِهذا جَمَعْتَنَا؟! فَنَزَلَتْ: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ * مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ﴾ »**[1]

نزل رسول الله ﷺ من على جبل الصفا وقد صعدت دعوته عنان السماء، دعوة تنمو بالدفاع لها والتدافع عنها، دعوة تزدهر بالحب و الحرب، دعوة تُشرق بالشيوع والشائعات، دعوة تكبر بتجاولها وتجاهلها ...إن حاصروها زادت، وإن أرسلوها راجت !!

لم تكن كتلك الخطابات التي تُستأنف بعدها المعايش، لم تكن مجرد صوت ملأ فراغ الوقت، أو مجرد صورة اكتمل بها المنظر،أو حتى مجرد فكرة اشتغل بها الذهن...هي مجردة عن المجردات والمجربات... بِكْرٌ في صوتها وصورتها وفكرتها وتأثيرها...بِكْرٌ في صدق طرحها وتطلعاتها...بِكْرٌ في كمالها

(1) صحيح البخاري ( ٤٧٧٠ )

وجمالها وجلالها... بِكْرٌ في براعتها وشجاعتها...

مشهد يُثير الخوف في النفس حال تخيله عوضًا عن الاشتراك فيه بل وصناعته...أن يقف أحدٌ يحاول نسف ما تقتات عليه مكة مالاً ونفوذًا وقوةً وترابطًا وشرفًا وسُلطةً لعشرات السنوات فهو بلا شك شجاعٌ لا يعرف الخوف، أو مجنون لا يعرف العواقب...

بكل بساطة يُريد هدم الأصنام !!.....أوَ يهدم هبل ؟!
بكل هدوء يُريد المساواة بين السادة والعبيد !!....أوَ يساوي بلال الحبشي أُمية القرشي؟!

بكل سلاسة يُريد الحياة للموءودة !!.....أوَ تستحق العار شرف الحياة ؟!

بكل أريحية يُريد تحريم الزنا !!....أوَ يُمنع الرجل من لذَّاته المستحقة ؟!

بكل سهولة يُريد دينًا جديدًا!! .... أوَ يُعصى الآباء والأجداد في قبورهم ؟!

ثوابت لا تقبل المساس، وقواعد راسخة لها أساس...

لقد أشعل محمد بن عبد الله نارًا لم يكن لها داعٍ، ولن تنطفئ حتى تحرق...لقد استباح مكة بحاضرها المجيد وتاريخها الفريد...أوَ تُدعَى قبلة الحجاج لدين جديد ؟!

بهذه العقلية الهزلية قابلوا دعوة رسول الله ﷺ...عناد لا يُشترَى، واستكبار لا يُباع، وجهل لا يُؤجَّر، وقُبح لا يُؤجَر....!!

فيُؤذَى أول ما يكون من عمِّه، الذي هو لحمه ودمه ... « تبًا لك ...ألهذا جمعتنا ؟! »... يسبُّه حتى قبل أن ينزل من على الصفا !!...والرجلُ إذا باعه لحمه يسهل الطمع فيه... فتتفنن «أم جميل» زوجته في إيذاء النبي بشتى الطرق، فتضع الشوك في طريقه، وتسميه عوضا عن اسمه « مُذمَّمًا »، وتنشد فيه شعرًا غاية الاستهزاء، وتعايره بانقطاع الوحي فترة غاية التشفي والازدراء !!

ثم تتقافز نحوه كل وسائل الأذى التي يمكن تخيلها ولا يمكن احتمالها من غيره..

« مجنون » ...حمله جنونه على ادِّعاء نبوة غير كائنة لبشري، والنبوة لا تكون إلا لملائكة السماء !!

« شاعر » ...ساعده لسانه الفصيح على افتراء أشعارٍ جذَّابة ينسبها زورًا إلى الوحي !!

« ساحر » ...مكَّنه سحره من التلاعب بعقول وقلوب الناس حتى فتنهم عن دينهم !!

« مسحور »...أفقده المرض اتزانه العقلي والنفسي حتى رأى في نفسه الكمال !!

« كاهن »...علَّمه تابعه من الجن بغيبيات ونبوءات أوهمت الناس بنبوته المزيفة !!

« كذاب »...جرَّأه مكره الشديد على اختلاق كذبة الرسالة وغرَّ بها البسطاء !!

سيل من الافتراءات البغيضة المتناقضة تلاحق مسمعه أينما ذهب، وجفاء متصاعد يواجه مبصره أينما رحل، ثم أضحى غير مرحب به في المكان والزمان !!...

يفتح باب داره للخروج فإذا بالقاذورات والأشواك تحت قدميه !!...

يمشي في الطرقات لدعوتهم فإذا بالشتائم تتدافع إليه من كل دار وجار!!...

يذهب للمستضعفين للاطمئنان عليهم فإذا بسمية قد ماتت صحبة زوجها ياسر من شدة العذاب المستعِر، وعمارٌ يكفر بلسانه لينجو من ألم لا يتحمله بشر، وبلالٌ يصرخ « أحد أحد» وعلى بطنه العاري حجر!!...

يتجه إلى الكعبة للصلاة فإذا بأشقى القوم يضع سَلَى جزور بين كتفيه وهو ساجد، والمستكبرون يتضاحكون ويتمايلون على بعضهم !!...

يبتعد عن العمران للخلاء فإذا بالقوم يعيبون عليه استتاره وتبوله جالسًا !!....

يقرأ أمامهم القرءان لهدايتهم فإذا بهم يهربون أو يجعلون أصابعهم في آذانهم أو يُصفقون ويلغون !!...

يأكل الطعام ويمشي في الأسواق فإذا بهم يستنكرون !!... يعود إلى داره وقد أتعبته مضايقاتهم فإذا بهم يجلسون قرب عمه وحاميه يشتكون منه ﷺ !!...

يا لقبحهم...ومما يشتكون ؟!...وممن يشتكون ؟!

«يا أبا طالب ، إن ابن أخيك قد سب آلهتنا، وعاب ديننا، وسفه أحلامنا، وضلل آباءنا ؛ فإما أن تكفه عنا، وإما أن تخلي بيننا وبينه، فإنك على مثل ما نحن عليه من خلافه، فنكفيكه فقال لهم أبو طالب قولا رفيقا، وردهم ردا جميلا، فانصرفوا عنه . ومضى رسول الله ﷺ على ما هو عليه، يظهر دين الله، ويدعو إليه، ثم شرى الأمر بينه وبينهم حتى تباعد الرجال وتضاغنوا، وأكثرت قريش ذكر رسول الله ﷺ بينها، فتذامروا فيه، وحض بعضهم بعضا عليه، ثم إنهم مشوا إلى أبي طالب مرة أخرى، فقالوا له : يا أبا طالب ، إن لك سنا وشرفا ومنزلة فينا، وإنا قد استنهيناك من ابن أخيك فلم تنهه عنا، وإنا والله لا نصبر على هذا من شتم آبائنا، وتسفيه أحلامنا، وعيب آلهتنا، حتى تكفه عنا، أو ننازله وإياك في ذلك، حتى يهلك أحد الفريقين، أو كما قالوا له . ( ثم ) انصرفوا عنه، فعظم على أبي طالب فراق قومه وعداوتهم، ولم يطب نفسا بإسلام رسول الله ﷺ لهم ولا خذلانه .

قال ابن إسحاق : وحدثني يعقوب بن عتبة بن المغيرة

بن الأخنس أنه حدث : أن قريشا حين قالوا لأبي طالب هذه المقالة، بعث إلى رسول الله ﷺ، فقال له : يا ابن أخي، إن قومك قد جاءوني، فقالوا لي كذا وكذا، للذي كانوا قالوا له، فأبق علي وعلى نفسك، ولا تحملني من الأمر ما لا أطيق ؛ قال : فظن رسول الله ﷺ أنه قد بدا لعمه فيه بداء أنه خاذله ومسلمه، وأنه قد ضعف عن نصرته والقيام معه . قال : فقال رسول الله ﷺ : يا عم، والله لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله، أو أهلك فيه، ما تركته قال : ثم استعبر رسول الله ﷺ، فبكى ثم قام، فلما ولى ناداه أبو طالب ، فقال : أقبل يا ابن أخي، قال : فأقبل عليه رسول الله ﷺ، فقال : اذهب يا ابن أخي، فقل ما أحببت، فوالله لا أسلمك لشيء أبدا» (1)

## الآن قد انجلت الحقائق...

إنهم يشتكون صموده وثباته وإصراره، يشتكون شجاعته التي لا تنفطر، يشتكون صلابته التي لا تنكسر، يشتكون نفاذ جميع الحلول ضده دون جدوى، يشتكون سمعة تتناقص كل

(1) السيرة النبوية لابن هشام ( ١ \ ٢٦٥ _ ٢٦٦ )

يوم بوجود دعواه، يشتكون سيادة تتآكل كل لحظة بدوام نبوته....لا شيء يوقف محمدًا غير قلبه، ولا أحد يملك قلب محمد سوى أبي طالب ...لكنهم لا يعلمون أن أبا طالب نفسه ــبقلبه وعقله وروحه وجسده ــأسير كلمة لرسول الله ﷺ... وكيف يُسلِّمه إليهم وهو مستسلم له ؟!..

أيام عصيبة امتدت لسنوات عاشتها مكة الجاهلية خلال الدعوة الجديدة وقائدها الشجاع، والعكس، سنوات عصيبة عاشتها الدعوة الجديدة وقائدها الشجاع في حضن مكة الجاهلية...ثلاثة عشر عاما من الشتم والضرب والتعريض والحصار والتجويع والتحريض على القتل...ثلاثة عشر عاما من الشجاعة المتزايدة، والصبر المتمدد، والأمل المتجدد .... فلم كل ذلك ؟!

حقا، لم كل هذه الشجاعة ؟!...وعلى ما الصبر ؟!... وفيما الأمل ؟!

**تزعجهم الفكرة، وتعجزهم العبرة !!**

إن العربي المحسَّب المنسَّب لا يحتمل كلمة في نفسه، لا يحتمل لكمة في وجهه، لا يحتمل تلميحًا يحطُّ من شأنه،

لا يحتمل نيةً تنتقص من قدره إلا وقد استلَّ سيفه، وسنَّ لسانه، واستجمع غضبه، وأعلن الحرب الشرسة دون النظر إلى العواقب...فما بال محمد يبتسم ويصمت !!، وقد أُوذي وضُيِّق عليه بما لا يحتمله أحلم العُرب والعجم !! وهو أشرف الناس فيهم حسبًا ونسبًا وكرامة وجمالا وبلاغة ووقارًا !!... ألا ينتفض لنفسه ومكانته فيقابل الجفاء بالجفاء والعداء بالعداء؟!... أو ليرجعنَّ عن أساطير الأولين التي اكتتبها فجلبت له الإهانة والتعب، وقد فرَّق بها بين المرء وزوجه، والابن وأبيه، وطمَّع العبيد في السادة، وجرَّأ النساء على الرجال، ونفَّل الفقراء على أصحاب الأموال..

**لكنه لا ينتفض فينتقم، ولا يرجع فيُكفى !!**

إنها شجاعة مختلفة عما تعارفه الناس في شتى بقاع الأرض...شجاعة تخترق قواعد الطبع الإنساني المنجرف إلى رد الإساءة...شجاعة تستند على مُلكٍ أضخم من شمس توضع في يمينه، وقمر يسكن في يساره...شجاعة لا تبدو غاية بقدر ما تكون وسيلة لشيء أكبر وأعظم...شجاعة تحتمي وتستقوي بقوة خاصة لا يملكها غيره، ولا يستعملها سواه...

إنها قوة الرحمة...

ما صعد على جبل الصفا إلا ليرحمهم، وقد أعلنها صراحة « **فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد** »، لكنهم لا يفقهون ...!!

ما وقف أمام جحافلهم يهدم معتقداتهم وموروثاتهم الخاطئة إلا رغبة في هدايتهم ورحمتهم من عذاب الله.... لكنهم لا يدركون !!

ما عاب أصنامهم، وسفَّه أحلامهم، وأبطل أنديتهم إلا ليعيدهم إلى فطرتهم الأولى التي فُطروا عليها... لكنهم لا يعقلون !!

ما صمد على جرائمهم القذرة بحقه وحق أصحابه المستضعفين إلا حذرًا عليهم من غضب الله وعقابه... فكان يردد « اللَّهمَّ اغفر لقومي فإنَّهم لا يعلمونَ » [1]!!

أولًا.... يواجه فظاظة أبي جهل وأُميَّة بن خلف وعُقبة بن أبي معيط وأمثالهم في وجوههم بكل صلابة، لا بالاختباء في

(1) صحيح البخاري ( ٣٤٧٧ )

بيته، أو الاستسلام لأفعالهم الخسيسة... لكي يفطن الجميع أن هذا الدين جدير بالاحترام والانتشار، ولو أنه استكان وخضع لإرهابهم لصدقت دعواهم في كونه إفكٌ مُفترى، لم يثبت أمام هجمة بشرية ضعيفة، فكيف يكون مؤيدًا من السماء ؟!... لكنه ﷺ قد صمد صمودًا أدهشهم وأربكهم .

ولما رأى العقلاء المترقِّبون ذلك منه وفيه أسلموا لله رب العالمين وشهدوا أنه رسول الله، فطالتهم رحمة رسول الله الكاملة...

ثانيًا... يقابل حكمة عتبة بن الربيع والوليد بن المغيرة وأمثالهما بردود أحكم وأعقل وأقنع، لا بالهروب خلف الحجج الواهية، أو الرضوخ للإغراءات الهائلة...ولو كان أحد أولئك المدعين للنبوة لما استطاع أن يُخرس الألسنة في كل مناسبة أرادوا فيها إحراجه أو إغراءه أو استعطافه أو استلطافه...

لو كان متقوِّلًا لفاز مرة، وخسر مرة، ولان مرة، وانتقم مرة، وبُهت مرة....لكنه ربح كل المنازلات الكلامية بأدب وثبات وابتسامة صافية، وما رجع المتحدث معه إلى قومه

إلا بغير الوجه الذي ذهب به إليه، حتى قال لهم عتبة بعدما فشلت حكمته..

« **اجعلوها بي، خلُّوا بين محمد وبين ما يقول....**»... فيدخل في دين الله من شهد بعين العدل شجاعة رسول الله وبراعته الكلامية، وتسعد أرواحٌ رحمها الله بحبيبه ..

**ثالثًا**... يُضحِّي براحته وسمعته وسكونه المعهود لأربعين عامًا قضاها قبل البعثة، لأجل قوم لا يرقبون فيه إلًّا ولا ذمة، لأجل بقعة تفننت في إنهاكه وإهلاكه، لأجل وطن لفَظَه من أول يوم حتى أُخرج منه...ولما رجع مكة فاتحًا لم يتغير، فلم ينتقم !!، رغم أن المعادلة كلها تغيرت وقد أصبحت في يده جميع القوى، فاختار منها ما يناسب كماله الفريد...

( **من شاء فليؤمن، ومن شاء فليكفر** ) .

اختار ما يحقق قول ربه فيه ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ**﴾ .

لأنه شجاع المرحمة...لا شجاع الملحمة ...

# ليلة عاشتها المدينة

كانت قد أَلِفت الأمان، بعد سنوات من التربص والاحتراب الداخلي..

نهارها جدّ، وليلها وُدّ...لا تخشى من أحد...

وكأن القوة العامَّة قد نُزعت من مكة لصالحها، والحقيقة أن هذا ما حدث باليقين، يوم هاجر رسول الله ﷺ إليها، فهجرت مكة قوة الرأي، وقوة الشجاعة، وقوة السيف، وقوة الشخصية، وبالتبعية قوة الصورة الخارجية...وتسلحت المدينة بكل ذلك وأضعافه دفعة بقدوم رسول الله ﷺ، وقد كانت قبله متفككة يطمع فيها ابن سلول، ويتلاعب بها اليهود ...ثم انطلقت تنشغل ببناء المستقبل المنشود، ومكة تعضُّ نواجذها على ماضٍ لن يعود .

لقد أصبحت المدينة ــ برسول الله ــ قوة عظمى لا يمكن أبدًا تغافل قدراتها القتالية ودوافعها الإيمانية، ولم يعد من السهل الطمع فيها أو التلاعب بها، ومن المستبعد ردع

تطلعاتها وتوسعاتها...

الآن تنام على حلم، وتستيقظ لتحقيقه...وأوَّل ما يساعدها في ذلك الأمان التام المُستنتَج من مكونات القوة العامَّة، أمانٌ يُصفِّي الذهن عن الشواغل، ويُطهَّرُ القلب من المخاوف...أمانٌ ينقل المرء إلى نفسه التي يريدها، وروحه التي خُلق بها...أمانٌ يُعيد إلى الفطرة، وتستمتع به الطبيعة ..

لكنها فزعت ليلةً أشد الفزع، وأفزع ما في الأمر أن المُفزِع مجهول...!!

ولولا أنها تطبَّعت بالأمان لما شعرت أبدًا بشيء يفزعها، لو أنها ظلت همجية تُثاقلها العداوات والمناوشات والمخادع لما فزعت، لو أنها تنتظر وارد سوء يُناسب ممارساتها المفزعة لما فزعت...لذا، فأخطر ما في الأمان توهم استدامته، وذلك في دنيا الناس محال ...

**عن أنس بن مالك رضي الله عنه « كانَ رَسولُ اللهِّ ﷺ أَحْسَنَ النَّاسِ، وأَجْوَدَ النَّاسِ، وأَشْجَعَ النَّاسِ، قالَ: وقدْ فَزِعَ أَهْلُ المَدِينَةِ لَيْلَةً سَمِعُوا صَوْتًا، قالَ: فَتَلَقَّاهُمُ النبيُّ ﷺ على فَرَسٍ لأبِي طَلْحَةَ عُرْيٍ، وهو مُتَقَلِّدٌ سَيْفَهُ، فَقالَ: لَمْ تُراعُوا، لَمْ**

**تُراعُوا، ثُمَّ قالَ رَسولُ اللهِ ﷺ: وجَدْتُهُ بَحْرًا يَعْنِي الفَرَسَ»** [1].

يُظهر الحديث الشريف عن طريق موقف سُجِّل لرسول الله ﷺ مدى شجاعته، وأنه لم يكن يخشى ما يخشاه البشر، حتى قالها سيدنا أنس بن مالك صراحة « وأشجع الناس» ، والأمر لوضوحه الشديد لا يحتاج منا إلى توضيح، بل وتُعاب فيه المحاولة بمجملها، فالشجاعة المحمدية أجلى من الشمس وسط النهار، وأنور من القمر ليالي الأَبدار...غير أن الحدث الذي يتناوله الحديث الشريف يذهب بالشجاعة إلى منحى مختلف، وينقلها إلى عالم غير منكشف، عالمٌ خاصٌ برسول الله ﷺ، شمسه وقمره وأرضه وسماؤه وهواؤه ونباته وجميع مكوناته قول الله عز وجل ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ**﴾ .

لا يمكن أبدًا أن تكون الشجاعة المتجسدة في هذا المشهد العظيم جزءًا مكمِّلًا لما بنته البشرية من ثباتها وصلابتها أمام المخاطر طوال عمرها...لا يمكن أبدًا أن تكون مسبوقة بدليل يُرشدها لما كانت عليه...لا يمكن أبدًا أن تكون نتاج تجربة قديمة صارت عليها أحكام النجاح والفشل...إنما هي

(1) صحيح البخاري ( ٣٠٤٠ )

شجاعةٌ جديدةٌ وجادَّةٌ، لا تتعلق إلا به، ولا تصدر إلا عنه، ولا تُفعَّل إلا له، ولا تنسجم إلا معه، ولا تُؤثِّر إلا منه، ولا تَسري إلا فيه...

### شجاعةٌ منبعها كمال الرحمة...

**أولا...حمَّال المسؤولية .**

ينعم القادة وحدهم بحراسة مشدَّدة...دخول وخروج بإذن مسبقٍ، وتفتيش دقيق وإجباري، وطعام تُختبر صلاحيته بأكل طاهيه منه أولًا، وبطانةٌ تُنقِّي الأخبار وتُعدِّل مدلولها، وقصرٌ مشيد يُرسِّخ الهيبة والجلال، وأشياء أخرى قد لا نعرفها...وكل ذلك تقتضيه المصلحة ولا حرج .

حراسةٌ كل نصيبها لحظة الكوارث حماية القائد ولا غير... وقائدٌ كامل نصيبه ساعة الكوارث حماية العرش ولا غير... وكوارثٌ وقت حلولها تحتاج إلى حلٍّ فتجد ما هو غير... ومن ثم تضيع الأمم بما فيها من خير!! .

غير أن رسول الله ﷺ قد غيَّر هذه التقاليد، وأبطل ما تحمله من أسانيد، فنزع الحراسة، وسكن الطين، وأكل الموجود، وجاد بالمجهود .

وقد يقبل العقل حدوث ذلك عند استتباب الأمان التام، أمَّا وقت الكوارث والأزمات فله حسابات أخرى لا يُعقل سواها ... مهما كانت عدالة القائد، ومهما بلغت شجاعته، ومهما وصلت محبته، ومهما حصلت أهليَّته، يجب أن يؤمَّن في الكوارث والأزمات، بل هو أولى بالتأمين من نظيره الظالم الجبان المبغوض المنقوص، فالعباد والبلاد في حاجة ماسَّة لسلامته .

ورغم أن رسول الله ﷺ أولى من كل من في الكون بالحراسة والتأمين وقت الأمن والأزمة إلا أنه اختار ـ كعادته ـ شيئًا يوافق تفرُّده الخِلقي والخُلُقي .

ففي ليلة صامتة آمنة من ليالي المدينة اخترق صوت عنيفٌ من الجبل الغربي الأجواء الساكنة، فانخلعت القلوب التي كانت مطمئنة، وهربت الأفكار التي كانت حاضرة، وعجز كل واحد من الشجعان عن الإقدام أو مجرد الاستطلاع، واجتمع القوم يُحفِّز بعضهم بعضًا على إعداد العدة ومواجهة ذلك التحدي المجهول جماعة، وربما يُستدعى الجيش بكامل قوته للتصدِّي...فأُدهشوا برسول الله ﷺ يستقبلهم وقد

استطلع الخبر وحده ورجع !!..

لم يحتمل رسول الله فيهم الفزع، فلم يستتر خلف جدران تحيطها حراسة تفديه بأرواحها رغبًا لا رهبًا...ولم ينتظر خروجهم واجتماعهم فيشاركهم الرأي، أو يأمرهم دونما مشورة...والأدهى أنه لما قرَّر الخروج وحده لم يلبث حتى يجد فرسًا رشيقًا مدرَّبًا على خوض المسافات والأزمات، بل امتطى ما وجد أمامه، وقد كان الذي أمامه لأبي طلحة، والمدينة كلها تعرف ما شأن فرس أبي طلحة، فرسٌ مهجورٌ منزوع الفائدة، تلتف أقدامه أو تتلوى كلما أراد أن يُسرع، لذا فهو فرسٌ بلا فارس...ولأنه لا يُمتطى فلم يكن بحاجة إلى أن يُخصَّص له سِرج، فركبه ﷺ عُريًا وذهب مُسرعًا تجاه الصوت، وقد تقلَّد سيفه في عنقه، وانطلق وهو لا يدري أي شيء سيواجهه، وما نتيجة ذلك...

ولو لم تكن غاية شجاعته رحمة لما خرج من الأساس، ولأمر بعضهم بالخروج على أن يبقى معه من يحميه ... لو لم تكن غاية شجاعته رحمة وأراد الخروج حفاظًا على هيبته لخرج في جمع من أجود المقاتلين الشجعان يتحصَّن بهم...

لو لم تكن غاية شجاعته رحمة لتمهَّل حتى اختار فرسًا لائقًا بالراكب والتوقيت والحدث...

لو لم تكن غاية شجاعته رحمة لانتظر حتى وجد سِرجًا يؤمِّن سلامته كي لا يسقط من على الفرس أمام ذلك المُفزع المجهول ....

لو لم تكن غاية شجاعته رحمة لتريَّث حتى تحزَّم وعلَّق سيفه بالحزام حتى لا يكون عُرضة للوقوع أثناء شدة التدافع... لكن هذا القائد العظيم رؤوفٌ رحيمٌ بالمؤمنين إلى درجة لا نهائية... يُعَرِّض نفسه للمخاطر لأجل راحتهم، ويَعرِض شجاعته على الكوارث لأجل رحيلها... وفي كل مرة ترحل، رحمة منه بهم...

**ثانيا...تهدئة الأجواء.**

أن يُطمئن الجيشُ القائدَ على الحالة الأمنية، فهذا أمر طبيعي...وأن يُطمئن القائدُ الشعبَ على استقرار الأمن، فهذا شيء ضروري...لكن أن يَطمئنَّ الجيش من القائد على زوال الخطر وعودة الأمن، فهذا جديد لا سابق له ولا لاحق !! فبعدما كفاهم النبي ﷺ شرَّ مواجهة ذلك الصوت وما يعنيه

من فزع، أراد أن يُزيل عن وجوههم وقلوبهم ونفوسهم آثار ذلك الصوت...فقال « **لم تُراعوا، لم تُراعوا** » أي لا تخافوا خوفًا يضركم، فأذهب روْعهم، وأظهر أمنهم، ولطَّف أجواءهم...وكان فيهم كما قال ربه «**النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ**»[ **الأحزاب : ٦** ] ..فرطَّب بصوته الحنون حدة الصوت، وكشف بوجهه البشوش غُمَّة المشهد .

ولو كان القائد غيره لقام في شجعانهم يوبِّخهم وينزع عنهم شجاعتهم ورجوليتهم، ويُعايرهم بفزعهم وقلة إقدامهم، ويتفاخر بينهم بشجاعته وكفاءته ....

**لكنه رحمة الله للعالمين، فلا يكون منه إلا الرفق واللين .**

**ثالثًا....إشغالهم في أمر آخر...**

كأنه كان في نُزهة ليليَّة تحت ضوء القمر، أو في رحلة صيدٍ رابحةٍ أنتجها القدر، أو في سفرةٍ لصُحبةٍ جمعتها أجواء السَّمر...كأنه لم يخرج لصوت مفزعٍ وعاد بالخبر !!

فبعدما طمأنهم أنه لا شيء يُخيف، صرف أذهانهم عما خفي عنهم، ووجَّهها لما تراه أعينهم ولم تكن تلتفت إليه... فلم يذكر لهم ما الذي وجد خلف ذلك الجبل .

هل كان عدوًا شرسًا ؟؟... أو وحشًا مفترسًا ؟؟... أو

مترصِّدا مختلسًا ؟؟...

وهل استعمل سيفه لردع ذلك المجهول ؟؟... أم أنه استعمل لسانه فقط ؟؟... أم أن مجرد حضوره قد أنهى الأمر ؟؟... وهل كان ذلك الشيء مفزعًا إلى الدرجة التي صوَّرها الصوت ؟؟...

أسئلة كثيرة لم يُرد نبي الرحمة أن تُطرح، بل ومنعها رسول الله من أن تُطرح، وكيف يُسأل عن المفزِع ولا أثر للفزع في وجهه ؟؟...كيف يُسأل عن الصوت وصوته خالٍ من توابع القلق أو الصدمة ؟؟... كيف يُسأل عما رأى وقد رأوه نشيطًا بشوشًا ؟؟...

وفي ذلك رحمة عظيمة بالمؤمنين، لأنهم لو لاحظوا في رسول الله ذرَّة اختلاف في صوته أو وجهه أو هيئته لسألوه عما وجد ولأخبرهم الحقيقة، وقد يكون ذلك سببًا في زيادة فزعهم لا تهدئتهم، ومقصود رسول الله ﷺ في كل الأوقات والأحوال التخفيف عن الناس ورفع الحرج عنهم رحمة منه بهم ....

ولذلك حوَّل الفكر إلى فرس أبي طلحة فقال « وجدته بحرًا » ، وكأنه يقول لهم أن الحدث الأبرز الليلة هو سرعة

فرس أبي طلحة المفاجئة، لا ذلك الصوت القادم من الجبل ولا غيره... فانشغل الناس بما أراده رسول الله ﷺ، وكيف تحول الفرس العليل البطيء ببركة رسول الله إلى المرونة والرَّشاقة التي تؤهِّله لأن يوصف بالبحر !!...حتى أنه لم يُسبق بعد ذلك من فرس مهما بلغت جاهزيته .

وعُصارة هذا الحديث الشريف، أن شجاعة رسول كانت غايتها رحمة في كل جانب...

فقد رحم أجسادهم من مواجهة ذلك الشيء المُفزع المجهول، ثم رحم قلوبهم حينما استقبلهم وقد أزال عنها الذهول، ثم رحم أذهانهم حينما ولَّى جهة فرس أبي طلحة الفضول...

فلا يكون أمام المستبصر خيار إلا أن يقول... ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ**﴾ .

# شهادة صحابي

«كُنَّا إِذَا احْمَرَّ الْبَأْسُ وَلَقِيَ الْقَوْمُ الْقَوْمَ اتَّقَيْنَا بِرَسُولِ اللهِ ﷺ ، فَمَا يَكُونُ مِنَّا أَحَدٌ أَدْنَى إِلَى الْقَوْمِ مِنْهُ»[1].

بديهيٌّ أن يستعين الفقيرُ بالغنيِّ، والبليدُ بالذَّكيِّ، والضعيفُ بالقويِّ ...

ومن يطلب المعونة غير ناقص الإمداد والاستعداد ؟؟..من تذهله الأنوار غير محفوف الظلام ؟؟...من تدهشه السرعة غير محمول الحركة ؟؟...من تفتنه الهيبة غير معدوم الوجود ؟؟.. لذا فالعقل يستنبئ ـ دونما تردد ـ أن تكون هذه الشهادة لصحابي لا يملك قوة البطش ولا شجاعة الإقدام، صحابي لا يجيد فن الحروب، ولا يحتمل وجع الكروب...صحابي كل مزاياه خارج الميدان .

ربما هي شهادة حسان بن ثابت، الفارس في غير القتال،

(1) مسند الإمام أحمد بن حنبل ( ١٣٤٦ )..وقال الشيخ أحمد شاكر في تحقيقه للمسند...إسناده صحيح

فسيفه وسهمه ودرعه وحربته أبيات شعرية، وقد كان في ذلك الموضع خير فارس، يدافع عن الإسلام ونبيه كأفضل ما يمكن لشاعر، حتى سُمي بشاعر الرسول...

وإن لم تكن الشهادة لحسان فهي لغيره ممن لا طاقة لهم بالدماء، ولا قدرة لهم بالمواجهة...

لكن الملفت للانتباه أن العقل قد خسر رهانه، وهان أمام الواقع ..!!

لقد كانت الشهادة لأحد أشجع وأصدق أصحاب رسول الله ﷺ ..!!

شهادة رجل صنع من الحروب تاريخه الفتِيُّ، وجمع من المبارزات الفردية ألقابه المتتالية...رجل يُحسب له ألف حساب، ودائمًا يفي بالمنتظر منه وأكثر...

بلغت شجاعته أن نام في فراش النبي ليلة الهجرة، وسيوف الأعداء مستلَّةٌ خلف الباب داخلة في أي لحظة لا محالة...نام ولم يخش الموت، بل كانت أهنأ نومة في حياته كلها ..!!

وامتنع الجميع عن تلبية نداء عمرو بن عبد ود يوم الأحزاب « **هل من مبارز** » ؟؟... فخرج له الشاب الشجاع، حتى استنقصه عمرو، واستنكف أن يُقتل على يديه شابٌّ تطلبه الحياة أكثر من الموت، فأصرَّ الشابُّ أن يقتل عمرًا بيديه، ولم يتوقف حتى فعلها، فكبَّر المسلمون، واستبشر الحبيب في خيمته...

وقد كان عمرو بن عبد ود غزير القوة غليظ القول غيور المكانة، فأضحى بكل بساطة صريع الشاب الشجاع ..!! ولما استعصت خيبر على المسلمين، أعطاه النبي ﷺ الراية، ففُتحت على يديه بفضل الله، وقد تترَّس يومها ببابٍ عند الحصن ما قدر على حمله بعدها ثمانية من أشد الرجال، وكان قد حمله وحده..!!

إنه سيدنا علي بن أبي طالب كرَّم الله وجهه ..

ولا شك أن هذه الشهادة منزوعة المداهنة أو المهادنة، فالمتحدِث مشهور العدالة الفائقة، والمتحدَث عنه أهلٌ لأكثر من ذلك وهو أشجع الناس، والحادثة تكررت في أكثر من معركة على مرأى ومسمع وتجربة من الجميع، فقد كانوا هم

المحتمين برسول الله ﷺ ..بل إنها أصدق وأبلغ ما قيل في شجاعة النبي ﷺ على مر التاريخ ..

والمتأمل بعمق في تعبير ــ الفارس الشجاع ــ عليّ بن أبي طالب يلحظ تنبيهًا بشجاعة خارقة تختص برسول الله دون غيره من المحاربين، شجاعة تصمد وقت استهلاك أشجع الشجعان، وتحمي ساعة نفاذ الحصون، وتنصر عند استشراف الهزيمة...شجاعة لم تخذل يومًا، ولم تتراجع أبدًا، ولم تندفع مرة... شجاعة عاقلة، تتصرف وفق ما يحتاجه المشهد من رسول الله، وما يطلبه رسول الله من المشهد... ذلك لأنها شجاعة مشرَّبةٌ بدوافع الرحمة ...

**أولًا...رحمته بالأصحاب ...**

كان أصحاب النبي أولي قوة وأولي بأسٍ شديد، لا ترهبهم كثرة جند العدو أو عدَّته، ولا تخيفهم احتمالية الموت، فقد صدقوا ما عاهدوا الله عليه، فسماهم الله عز وجل في سورة الأحزاب بالرجال « **مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ**

**وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا** » [ الأحزاب : ٢٣ ]
ولأن هؤلاء الرجال لم تزُل عنهم طبائع البشر وحاجات الإنسان، فقد كانت لهم طاقة تنتهي بدوام الاستعمال، وجسد يُنهك لطول فترة القتال، وذهنٌ يُشوَّش لكثرة الاشتغال،وصبرٌ يتحلل بتضاغط الأحمال...إنهم لحم ودم، وكل نفس ـ مهما علت ــ لها وسعٌ لا تُكلَّف إلا في حدوده، وقد بلغوا بصدقهم وإخلاصهم ذروة ما يمكن للمرء ــ غير الأنبياء ــ الوصول إليه .

إن الحرب قد تفتك بالنجباء كما تفتك بالجبناء...

تفتك بعمر بن الخطاب، وعلي بن أبي طالب، وعمرو بن العاص، وسعد بن الربيع، وأمثالهم، كما تفتك بعوام الجنود...

ولما كانت الحروب تطول أكثر من طاقتهم، أو يتلقى الأعداء مددًا فوق احتمالهم، يتحول دورهم من حماية النبي إلى الاحتماء بالنبي، لأنه لا حدَّ لطاقته وشجاعته وثباته، فما يكون من النبي ﷺ إلا رعايتهم حق الرعاية، فيسبقهم إلى العدو، ويجعلهم خلفه، حتى إذا ما شعروا بالأمان،

واستمدوا من فيوضه الطاقة، عادوا إلى مواقعهم بكامل نشاطهم وإقدامهم...

ولو لم تكن غاية شجاعته رحمة لما قدّم لهم يد العون في وقت حمي فيه الوطيس، واشتد البأس، واحمرّت الحدق، وتلك ساعة عصيبة يندر فيها البذل والإيثار ...لو لم تكن غاية شجاعته رحمة لما كانت لهم نجاة، فإما أن يولوا الأدبار وهي من كبائر الذنوب، وإما أن يقبلوا بالأسر في يد المشركين ـ إن فلتوا من القتل ـ وهي من مصائب الحروب...

لكنه ﷺ كفاهم كل ذلك بأن قَبِل لجوءهم، وأسقط كربهم، وأحسن ردهم .

**ثانيًا...رحمته بالأعداء ...**

يود العدو دومًا هشاشة مبارزه، حتى يُغير عليه فيقتله دونما مشقة، ودون الخوض في احتماليات تجعل الحرب مع منافسه سِجال...وقد كان الأعداء يتورعون عن مبارزة فردية تجمعهم بأحد فرسان الإسلام الشجعان، وكانوا يتخيرون ثغورًا غير التي يتواجدون فيها، إلا من ساء قدره وصادفه أحدهم، حينئذٍ لا بديل له عن الهلاك المؤكد...

أسمعت أن أحدًا واجه ابن الخطاب في معركة وقتله ؟؟..أو بارز عليًّا وهزمه ؟؟...أو لقي خالدًا فأفناه ؟؟...أو قابل ابن العاص فأرداه ؟؟...

لم يحدث أن نال أحد منهم في معركة أبدًا... حتى أسد الله حمزة بن عبد المطلب لما استُشهد في أُحد، لم يكن ذلك على يد فارس مواجهٍ أنجبته أُمُّه شجاعًا، لم يكن بسيفٍ يستحق حامله لقب « قاتل حمزة » ... إنما كان بحربة وحشيةٍ جبانةٍ تختبئ خلف الأحجار والأشجار خوفًا من ملاقاته .

وإذا كان ذلك شأنهم مع أصحاب النبي الشجعان، فكيف يكون تصرفهم حينما يقترب منهم أشجع الناس ؟! ...إن عدد من قُتلوا على أيدي هؤلاء الأبطال لا حصر له، فكم يكون عدد من لقوا حتفهم على يد من يحتمون به ويسبقهم إلى العدو ؟! كم طفل تيتَّم، وامرأة ترمَّلت، وأمّ نوَّحت جرَّاء بطشه ؟!...

كم عنقٍ قُطعت، وبطنٍ شُقَّت، وجارحة جُرحت بيده؟!... ستعجب كل العجب إن علمت أن عدد قتلاه في جميع غزواته واحدٌ فقط !!

رغم أنه القدوة العظمى لأنبل الفرسان المحاربين في

شجاعته وثباته وإقدامه وقربه من الأعداء، إلا أنه ﷺ كان أقلُّهم استجابة للقتل، بل هو أقلُّ في ذلك من أضعف جندي في جيشه العتيد... ولولا فُجر أُبيّ بن خلف، وتوعده للنبي بالقتل، وإقدامه على ذلك صراحة يوم أُحد، حتى قال للنبي (**لا نجوتُ إن نجوتَ**)، لما قُتل على يديه...لولا اقترابه من النبي أكثر مما يُعذَر فيه ويُعزَّر لما كانت هذه نهايته...لكنه تجبَّر وطغى وتمادى حتى نال درجة من سوء الخاتمة لم يُسبق فيها ولم يُلحق. أمَّا غير أُبيّ بن خلف من الأعداء ـ مع كثرتهم ـ فلم يُمسُّوا من رسول الله بشيء !!..وتلك عجيبة تُعزِّز هيمنة رحمته على شجاعته، فالشجاع تناسبه كثرة الدماء المستباحة، والأشجع تناسبه إبادة الكثرة دونما هوادة... لكن شجاعته ﷺ تُستعمل للرحمة لا للعقاب، وتخضع للرفق لا للعذاب. فكان ﷺ إذا حمي الوطيس واشتد البأس اقترب من العدو استبقاءً لحياة ذلك العدو، وكان يستخدم لذلك شيئا أُعطيه ضمن خمسة لم تُعط لنبي قبله، حيث أنه عليه الصلاة والسلام قد نُصر بالرُّعب، **فعن جابر بن عبد الله...« أنَّ النبيَّ ﷺ قالَ: أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أحَدٌ قَبْلِي: نُصِرْتُ بالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ، وجُعِلَتْ لي الأرْضُ مَسْجِدًا وطَهُورًا، فأيُّما رَجُلٍ مِن**

**أُمَّتي أدْرَكَتْهُ الصَّلاةُ فَلْيُصَلِّ، وأُحِلَّتْ لي المَغَانِمُ ولَمْ تَحِلَّ لأحَدٍ قَبْلِي، وأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ، وكانَ النبيُّ يُبْعَثُ إلى قَوْمِهِ خَاصَّةً وبُعِثْتُ إلى النَّاسِ عَامَّةً»** (1)

فكان كلما اقترب من العدو ازداد رعبًا وبُعدًا، فتكتب لهم النجاة علَّهم يعودوا مسلمين بعد حين...

ويدل على ذلك جميع أفعاله في كل غزواته، وكامل توجيهاته لقادة الجيوش النافذة في سبيل الله، وإذا كنا قد استعنَّا بشهادة سيدنا علي بن أبي طالب على شجاعة النبي ﷺ، فإننا سنستعين بما قاله النبي لسيدنا علي يوم أُعطي راية خيبر كمثالٍ على غاية شجاعة النبي ﷺ...

فعن سهل بن سعد الساعدي **أنَّ رَسولَ اللَّهِ ﷺ قالَ: «يومَ خَيْبَرَ: لَأُعْطِيَنَّ هذِه الرَّايَةَ غَدًا رَجُلًا يَفْتَحُ اللَّهُ علَى يَدَيْهِ، يُحِبُّ اللَّهَ ورَسوله ويُحِبُّهُ اللَّهُ ورَسولُهُ، قالَ: فَبَاتَ النَّاسُ يَدُوكُونَ لَيْلَتَهُمْ أيُّهُمْ يُعْطَاهَا، فَلَمَّا أصْبَحَ النَّاسُ غَدَوْا علَى رَسولِ اللَّهِ ﷺ كُلُّهُمْ يَرْجُو أنْ يُعْطَاهَا، فَقالَ: أيْنَ عَلِيُّ بنُ أبِي**

(1) صحيح البخاري ( ٣٣٥ )

**طَالِب. فقِيلَ: هو يا رَسولَ اللهَّ يَشْتَكِي عَيْنَيْهِ، قالَ: فأرْسَلُوا إلَيْهِ. فَأُتِيَ به فَبَصَقَ رَسولُ اللهَّ ﷺ في عَيْنَيْهِ ودَعَا له، فَبَرَأَ حتَّى كَأَنْ لَمْ يَكُنْ به وجَعٌ، فأعْطَاهُ الرَّايَةَ، فَقالَ عَلِيٌّ: يا رَسولَ اللهَّ، أُقَاتِلُهُمْ حتَّى يَكونُوا مِثْلَنَا؟ فَقالَ: انْفُذْ علَى رِسْلِكَ حتَّى تَنْزِلَ بسَاحَتِهِمْ، ثُمَّ ادْعُهُمْ إلى الإسْلَامِ، وأَخْبِرْهُمْ بما يَجِبُ عليهم مِن حَقِّ اللهَّ فِيهِ، فَوَاللهَّ لَأَنْ يَهْدِيَ اللهَّ بكَ رَجُلًا واحِدًا، خَيْرٌ لكَ مِن أنْ يَكونَ لكَ حُمْرُ النَّعَمِ» .** (1)

هذه النصيحة المحمدية لم تكن مجرد كلمات يلقيها على نوَّابه بدافع زيادة شعبيته بين أحبابه وأعدائه، إنما هي صورة مبسَّطة لما يحمله قلبه من رحمة كاملة للعالمين، ما هي إلا رأفة راقية تسع الجميع، يودُّ لو أن كل ما في الكون يُزحزح عن النار...فكيف وهو يحمل ذلك في قلبه يقترب من العدو ليقتله، ويُرسله إلى العذاب المؤبد ؟!...مُحال أن يفعل ذلك..

فيظهر للمستبصر أن أآمن وأسلمَ مُحاربٍ يلقاه العدو في الحرب هو رسول الله ﷺ، رغم أنه الأشجع في التاريخ البشري...ذلك لأن نسبة نجاة العدو في مبارزة فردية مع

(1) صحيح البخاري ( ٤٢١٠ )

أحد فرسان المسلمين الشجعان لا تتجاوز الصفر، ونسبة مقتله أمام رسول الله ﷺ لا تزيد عن الصفر .

فيكون ﷺ الخيار الأنسب للعدو...وتلك رحمة عظيمة لا يعرف قدرها إلا من كان في جيش المشركين، ثم نجا وأسلم وانتقل إلى جيش المسلمين، فيحتمي برسول الله ﷺ كلما حمي الوطيس واشتد البأس .

فيتضح دونما شك أن شجاعة النبي ﷺ في مواطن الجدِّ من الجهاد لم تكن سوى رحمة للفريقين... رحمة للمؤمنين من فجعة الانكسار، ورحمة للأعداء من استحقاق النار .

وتكون شجاعته مطوَّعة لقول الله تعالى ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ**﴾ .

# لقطة من حلمه ﷺ

## فظاظة الأعراب

**طِباعٌ تلائم الطبيعة ...**

ألسنةٌ حادّة، وقلوبٌ جادَّة...

وجوهٌ لا تبتسم، وأرواحٌ لا تعتصم...

جفاءٌ يدوم، ولينٌ معدوم...

كبرياءٌ بلا نهاية، وعداواتٌ بلا غاية...

نهمٌ دون خجل، وتأمُّر دون عمل.!!

تُزعجهم مرونة أهل الحضر وانسجامهم مع المستجدات، وتُضايقهم تدخلات العواطف الإنسانية في تمرير القرارت، وتستفزهم نظرات الاستهجان الحضرية تجاه ما يصدر عنهم من مقالات .

غضبهم أسرع من البرق، وإرضاؤهم غاية الصعوبة... إن عوملوا بالمثل أُهلِكوا، وإن عوملوا بالتجاهل أَهلَكوا... ولولا اضطرارهم لزاد الحضر ما نزلوا من بواديهم، ولولا اضطرار الحضر للخلاص منهم ما لبَّوا لهم مطلبًا...إن شئت قل، إنها علاقة مصالح بين فريقين لا تصالح فيها .

وقد تفرَّد ﷺ ــ دون غيره من الناس ــ بعلاقة متميزة جدًا مع الأعراب، تبادل فيها الطرفان كامل الاحترام والتقدير، مع الأخذ في الاعتبار أن الوصول إلى هذه المرحلة الإنسانية المتقدمة قد احتاج إلى تجارب نبويّةٍ عميقةٍ مع شخصيات بدويّةٍ مختلفة وفي أوقات متباعدة، حتى استيقنوا اختلافه عن البشر، وأنه رسول الله حقًا...

ولمَّا كانت غاية الحبيب المصطفى مع الناس كافَّة إيصال رحمة الله لهم، كان ولا بد أن يُوصل لهؤلاء الجفاة نصيبهم منه، ولم يكن هناك خُلقٌ نبويٌ تُقدم فيه الرحمة أصلح لهم من الحلم، وقد استعان به النبي أفضل استعانة، فكان أسرع طريقة تُقضى بها حاجته، وخير وسيلة تَنفُذُ منها رسالته، المشار إليها في قوله تعالى ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ**﴾ .

ولو استعمل معهم النبي غير الحلم لما فتحوا له أبواب قلوبهم، ولو لم تكن غاية حلمه رحمة بهم لما فُتحت لهم أبواب الجنان، فمن نعمة الله عليهم عدم التفات نبيه عنهم، وقد أحسن لهم وسيلةً وغايةً .

وقد كانت الأعراب زمن رسول الله ﷺ أصعب في فعلها

ورأيها ورؤيتها من أي زمن، وقد تعددت الأخبار لمواقف ذاق فيها رسول الله ﷺ شيئًا كبيرًا من تلك العائلة البدوية الجافة، نذكر منها ما تتسلسل به الفكرة، دون تشابه أو تشابك .

١ ــ عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال « **كنت أمشي مع رسول الله ﷺ، وعليه بردٌ نجرانيٌّ غليظ الحاشية، فأدركه أعرابيٌّ، فجبذه بردائه جبْذَةً شديدةً، حتى نظرت إلى صفحة عاتق رسول الله ﷺ قد أثَّرت بها حاشية البُرْد مِن شدَّة جَبْذَته، ثمَّ قال: يا محمَّد! مُرْ لي مِن مال الله الذي عندك، فالتفت إليه رسول الله ﷺ ثمَّ ضحك، ثمَّ أمر له بعطاء** »[1] .

٢ ــ عن أبي هريرة رضي الله عنه : **أَنَّ رَجُلًا تَقَاضَى رَسولَ اللَّه ﷺ، فأَغْلَظَ له فَهَمَّ به أَصْحَابُهُ، فَقالَ : دَعُوهُ، فإنَّ لِصَاحِبِ الحَقِّ مَقَالًا، واشْتَرُوا له بَعِيرًا فأَعْطُوهُ إيَّاهُ وقالوا: لا نَجِدُ إلَّا أَفْضَلَ مِن سِنِّهِ، قالَ: اشْتَرُوهُ، فأَعْطُوهُ إيَّاهُ، فإنَّ خَيْرَكُمْ أَحْسَنُكُمْ قَضَاءً**»[2] .

**٣ ــ عن أبي هريرة** رضي الله عنه: « **أَنَّ أَعْرَابِيًّا جَاءَ إلى النبي ـ**

(1) صحيح البخاري ( ٥٨٠٩ )

(2) صحيح البخاري ( ٢٣٩٠ )

ﷺ ـ يَطْلُبُ مِنْهُ شَيْئًا، فَأَعْطَاهُ، ثُمَّ قَالَ: أَحْسَنْتُ إِلَيْكَ؟ قَالَ الْأَعْرَابِيُّ: لَا وَلا أَجْمَلْتَ. فَغَضِبَ الْمُسْلِمُونَ، وَقَامُوا إِلَيْهِ، فَأَشَارَ إِلَيْهِمْ أَنْ كُفُّوا، ثُمَّ قَامَ وَدخَلَ مَنْزِلَهُ وَأرْسَلَ إِلَيْهِ ﷺ، وَزَادَهُ شَيْئًا، ثُمَّ قَالَ: أَحْسَنْتُ إِلَيْكَ؟ قَالَ: نَعَمْ. فَجَزَاكَ اللهُ مِنْ أَهْلٍ وَعَشِيرَةٍ خَيْرًا. فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: إِنَّكَ قُلْتَ مَا قُلْتَ وَفِي نَفْسِ أَصْحَابِي مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ، فإن أحببت فقل بين أيديهم ما قلت بَيْنَ يَدَيَّ حَتَّى يَذْهَبَ مَا فِي صُدُورِهِمْ عَلَيْكَ، قَالَ: نَعَمْ. فَلَمَّا كَانَ الْغَدُ أَوِ الْعَشِيُّ جاءَ، فَقَالَ ﷺ: إِنَّ هَذَا الْأَعْرَابِيَّ قَالَ مَا قَالَ فَزِدْنَاهُ، فَزَعَمَ أَنَّهُ رَضِيَ أَكَذَلِكَ؟ قَالَ: نَعَمْ. فَجَزَاكَ اللهُ مِنْ أَهْلٍ وَعِشِيرَةٍ خَيْرًا. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: مَثَلِي وَمَثَلُ هَذَا، مثل رَجُلٍ لَهُ نَاقَةٌ شَرَدَتْ عَلَيْهِ، فَاتَّبَعَهَا النَّاسُ فَلَمْ يَزِيدُوهَا إِلَّا نُفُورًا، فَنَادَاهُمْ صَاحِبُهَا: خَلُّوا بَيْنِي وَبَيْنَ نَاقَتِي، فَإِنِّي أَرْفَقُ بِهَا مِنْكُمْ وَأَعْلَمُ، فَتَوَجَّهَ لَهَا بَيْنَ يَدَيْهَا فَأَخَذَ لَهَا مِنْ قُمَامِ الْأَرْضِ، فَرَدَّهَا حَتَّى جَاءَتْ وَاسْتَنَاخَتْ، وَشَدَّ عَلَيْهَا رَحْلَهَا، وَاسْتَوَى عَلَيْهَا، وَإِنِّي لَوْ تَرَكْتُكُمْ حَيْثُ قَالَ الرَّجُلُ مَا قَالَ، فَقَتَلْتُمُوهُ دَخَلَ النَّارَ» (١).

غلظةٌ شديدة العنف تجاه رسول الله ﷺ ...جفوةٌ لا

(١) تخريج الإحياء للعراقي ( ٢ / ٤٦٦ ) ، البزار ( ٨٧٩٩ )

يستحقها ولا تليق به...قسوةٌ تناسب المجرمين لا رحمة رب العالمين للعالمين .

أن يُجذب من ثيابه جذبة اللصوص، ويُغلَّظ له في القول غلظة العُصاة، ويُتَّهم بما ليس فيه ولا منه تُهمة الأشرار، وتُنتهك حرمته وهيبته أمام أصحابه انتهاك الصعاليك... فهذا لا يليق !!

لا يستحق وجهًا عبوسًا يُطالعه، أو قلبًا عقورًا يراوده، أو عقلًا جهولًا يطارده .. ليس له إلا بهاء البسمة، ونقاء النبضة، وصفاء الفكرة...ليس له إلا كل الخير جزاءً منقوصًا لما قدَّم . أيكون جزاؤه جفوة غادرة ؟!

لو أنه انتقم لنفسه ما لامه إنسٌ ولا جانٌ ولا مَلَك، وما عوتب من فوق سبع سماوات على من هلك...لو قتلهم بيديه الشريفتين ما نقص شرفهما، ولا نقض على الخلق بركتهما...

ولو أذن لأصحابه أن يتعاملوا مع هذه الحالة الجافية بالسيف ـ لترفعه عن القتل ـ لما كانت هذه حميَّة جاهلية تنتصر للعرق أو القبيلة، إنما هي غيرة إيمانية تنتصر لمقام سيدهم صاحب الفضيلة.

لكنه لم ينتقم لنفسه....لا بنفسه ولا بأصحابه !!

فلم يبق له من خيارات الدفاع عن النفس إلا إماطة الأذى عن ذاته الشريفة، بأن يُطالب الأعرابي أن يُخفض صوته، ويُحسن مقالته، ويُزيل جذبته العنيفة وقد أثَّرت في عنقه الشريفة، أو أن يُزيلها ﷺ بنفسه بما يملكه من قوة كافية لأكثر من ذلك بكثير .

ورغم أنه الخيار الأنسب للنبي الحاني، والأسلم للأعرابي الجاني، إلا أنه تنازل عنه أيضا !!

ترك الأعرابي يفعل ما يحلو له، ويقول ما يُرضي غلظته، ويُمارس سُلطة تستدعيها طبيعته، دون أن يكون له رد فعل غير الابتسامة الرقيقة الرحيمة !!.

فإن كانت عنقه متأثرة بالجذبة الأعرابية، فقلبه متأثر بالجذبة الإلهية، ووجهه عاكس لما في قلبه، فلا أثر عليه سوى كمال البسمة المحمدية .

من الجور الشديد أن يُرى ذلك مجرد حِلم بشري تتداوله الأنفس البشرية، ومن شدة الغبن اعتباره دليلًا على كمال البشر، إنما هو دليل كمال النبي ﷺ وحده، فالحلم البشري مهما ارتفعت درجته له سقف لا يمكن تجاوزه، فإن استُغضب

أحد الناس وكان صالحًا كظم غيظه بالحلم، فإن كان إلى الله أقرب أرفق بالحلم عفوًا، فإن كان إلى الله أقرب أرفق بالعفو عطاءً مجاهدةً لنفسه، وتلك مقامات يعزُّ وجودها ويندر الوصول إليها...

أما رسول الله ﷺ فلم يكن لحلمه سقف، ولا لتحمله وقف، ومهما بلغت فظاظة معارضه لا يكون منه غير العطاء الوافر عن طيب نفس، فيعطي كلمة طيبة، وابتسامة راقية، ومالًا يسد به حاجته، ورحمةً تُغفر بها زلَّته...حتى إذا وجد ذلك من الحبيب هدأت روحه، وانطفأت ناره، وعاتب نفسه على سوء أدبه، وشكر ربه على نعمة نبيه، ولا يقوم من مقامه إلا وقد شعر بدوام الأمان، وسلامة الدين والدنيا... يأتيه الأعرابي غليظًا فاحشًا متعدِّيًا وخاسرًا، ويتركه رقيقًا داعيًا متأدبًا ورابحًا.... أي حلم يوصِّل إلى ذلك ؟!

إنه حلم رسول الله ﷺ المنسوج بالرحمة الخالصة... وكل شيء اختلط بالرحمة اكتمل بكمالها، ودام بدوامها، وصلح بصلاحها...

وقد بلغت رحمته مداها مع الأعراب في تلك الوقائع...

( * ) الأعرابي الأول...

استقبل تطاوله في طلبه بهدوء وابتسامة تطوَّرت إلى ضحكةٍ طيبةٍ، ثم أمر له بعطاء يُزيل كربته، وقد تنازل عن جذب الثياب، ورفع الصوت، والجهر بالقول، ودعاءه باسمه كدعاء بعضهم لبعض...

تنازل عن حقوقه المفروضة من فوق سبع سماوات في كتاب الله الكريم ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لا تَشْعُرُون** ﴾ [1] وأسقط واجبات الأعرابي تجاهه، وما فعل ذلك إلا مخافة أن تحبط أعمال ذلك المعتدي، فتهوى حسناته ولا يبقى له إلا إساءة للنبي ساء بها نفسه توجب له عذاب الجحيم... فيكون حلم رسول الله ﷺ معه رحمة به من عذاب الله، وقد أخذ كامل نصيبه من قوله تعالى ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ**﴾ .

( * ) الأعرابي الثاني...

(1) سورة الحجرات ( ٢ )

ترفَّق بذلك الأعرابي الفظّ الذي اختراق حواجز نواهي الحجرات كسابقه، ثم منع أصحابه من المساس به، والتمس له عذرًا أمامهم ( **دعوه فإنَّ لصاحب الحقِّ مقالًا** ) حتى لا يجدوا في أنفسهم شيئًا منه، وبعد ذلك أمرهم بأن يُعطوه بعيرًا سنُّه مثل سنِّ بعيره الذي استقرضه منه النبي ﷺ قبل ذلك، فلما استيقنوا عدم وجود المماثل أمرهم النبي الكريم أن يُعطوه بعيرًا أكبر قيمة وسنًّا ووزنًا من بعيره، ليعلمهم أن أفضل المسلمين أحسنهم قضاءً لدَينه .

فعاد الأعرابي من عند رسول الله ﷺ رابحًا من جميع الجهات، فقد استردَّ غِلظته حِلمًا، واسترجع ماله أموالًا، واستعاد عداوته أصحابًا... وتلك رحمة عظيمةٌ تفضَّل بها رسول الله عليه نابعة من قوله تعالى «**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ**» .

**( * ) الأعرابي الثالث...**

تعامل مع قسوته وحدَّته بحلم لا مثيل له، فعندما رفض الأعرابي إحسان النبي في عطائه بأسلوب فجّ، وهمَّ المسلمون الحاضرون لقتله نهاهم النبي وأبعدهم عنه، ثم

دخل الحبيب بيته وأمر الأعرابي بالدخول إليه، ثم زاده من العطاء ما يسدُّ شراهته وشراسته، ولفرط حلمه سأله ﷺ « **أحسنتُ إليك**» ؟؟ ، وبعدما تيقن الحبيب من رضا الأعرابي طلب منه أن يخرج لأصحابه الذين غضبوا منه ليُعلن لهم رضاه بعطاء رسول الله حتى لا يكون بينهم وبينه عداوة فيما بعد، فأتاهم الأعرابي بعد ذلك معترفًا بفضل رسول الله في عطاءه « **إِنَّ هَذَا الْأَعْرَابِيَّ قَالَ مَا قَالَ فَزِدْنَاهُ، فَزَعَمَ أَنَّهُ رَضِيَ أَكَذَلِكَ؟ قَالَ: نَعَمْ. فَجَزَاكَ اللهُ مِنْ أَهْلٍ وَعِشِيرَةٍ خَيْرًا** »...ثم بين لهم أن القلوب تُكسب بالحلم، لا بردِّ الاعتداء، ولا بتعجُّل اتخاذ المواقف المضادة... وإذا كان الذي حرَّكهم تجاه الأعرابي حبَّهم الشديد لرسول الله ﷺ، فإن الذي حرَّكه لمنعهم منه حرصه الأشدّ على نجاة ذلك الأعرابي من القتل، ومن عذاب الله يوم القيامة لأنه أولى بالمؤمنين من أنفسهم...وبيَّن لهم ذلك بمثل بليغ ..( **مَثَلِي وَمَثَلُ هَذَا، مثل رَجُلٍ لَهُ نَاقَةٌ شَرَدَتْ عَلَيْهِ، فَاتَّبَعَهَا النَّاسُ فَلَمْ يَزِيدُوهَا إِلَّا نُفُورًا، فَنَادَاهُمْ صَاحِبُهَا: خَلُّوا بَيْنِي وَبَيْنَ نَاقَتِي،**

فَإِنِّي أَرْفَقُ بِهَا مِنْكُمْ وَأَعْلَمُ، فَتَوَجَّهَ لَهَا بَيْنَ يَدَيْهَا فَأَخَذَ لَهَا مِنْ قُمَامِ الْأَرْضِ، فَرَدَّهَا حَتَّى جَاءَتْ وَاسْتَنَاخَتْ، وَشَدَّ عَلَيْهَا رَحْلَهَا، وَاسْتَوَى عَلَيْهَا، وَإِنِّي لَوْ تَرَكْتُكُمْ حَيْثُ قَالَ الرَّجُلُ مَا قَالَ، فَقَتَلْتُمُوهُ دَخَلَ النَّارَ).

هنيئًا للأعراب بقول الله تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ .

هنيئًا لقساة القلوب بقلب النبي ﷺ .

## حَبْرٌ يَختبر

عن عبد الله بن سلام : «لما أراد الله هَدي زيد بن سعنة، قال زيد بن سعنة : إنه لم يبق من علامات النبوة شيء إلا وقد عرفتها في وجه محمد حين نظرتُ إليه، إلا اثنتين لم أخبرهما منه: يسبق حلمُه جهلَه، ولا يزيده شدة الجهل عليه إلا حلمًا، فكنت أتلطف له لأن أخالطه، فأعرف حلمه وجهله.

قال: فخرج رسول الله من الحجرات، ومعه علي بن أبي طالب، فأتاه رجل على راحلته كالبدوي، فقال: يا رسول الله، قرية بني فلان قد أسلموا ودخلوا في الإسلام، وكنت أخبرتهم أنهم إن أسلموا أتاهم الرزق رغدًا، وقد أصابهم شدة وقحط من الغيث، وأنا أخشى -يا رسول الله- أن يخرجوا من الإسلام طمعًا كما دخلوا فيه طمعًا، فإن رأيت أن تُرسل إليهم من يُغيثهم به فعلت. قال: فنظر رسول الله إلى رجلٍ جانبه -أراه عمر- فقال: ما بقي منه شيء يا رسول الله.

قال زيد بن سعنة: فدنوت إليه، فقلت له: يا محمد، هل لك أن تبيعني تمرًا معلومًا من حائط بني فلان إلى أجل كذا وكذا؟ فقال: «لاَ يَا يَهُودِيُّ، وَلَكِنِّي أَبِيعُكَ تَمْرًا مَعْلُومًا إِلَى

أَجْلِ كَذَا وَكَذَا، وَلا أُسَمِّي حَائِطَ بني فُلانٍ». قلت: نعم. فبايَعَنِي، فأطلقت هِمْيَانِي، فأعطيته ثمانين مثقالاً من ذهب في تمر معلوم إلى أجل كذا وكذا. قال: فأعطاها الرجل وقال: «اعْجِلْ عَلَيهِمْ وَأَغِثْهُمْ بِهَا».

قال زيد بن سعنة: فلما كان قبل محل الأجل بيومين أو ثلاثة، خرج رسول الله في جنازة رجل من الأنصار ومعه أبو بكر وعمر وعثمان، ونفر من أصحابه، فلما صلَّى على الجنازة دنا من جدار فجلس إليه، فأخذت بمجامع قميصه، ونظرت إليه بوجه غليظ، ثم قلت: ألا تقضيني -يا محمد- حقي؟ فوالله إنكم -يا بني عبد المطلب- قوم مطل، ولقد كان لي بمخالطتكم علم!! قال: ونظرتُ إلى عمر بن الخطاب وعيناه تدوران في وجهه كالفلك المستدير، ثم رماني ببصره وقال: أي عدو الله، أتقول لرسول الله ما أسمع، وتفعل به ما أرى؟! فوالذي بعثه بالحق، لولا ما أحاذر فَوْتَهُ لضربت بسيفي هذا عنقك. ورسول الله ينظر إلى عمر في سكون وتؤدة، ثم قال: «يَا عُمَرُ، أَنَا وَهُوَ كُنَّا أَحْوَجَ إِلَى غَيْرِ هَذَا؛ أَنْ تَأْمُرَنِي بِحُسْنِ الأَدَاءِ، وتَأْمُرَهُ بِحُسْنِ التِّبَاعَةِ، اذْهَبْ بِهِ يَا عُمَرُ فَاقْضِهِ حَقَّهُ، وَزِدْهُ عِشْرِينَ صَاعًا مِنْ تَمْرٍ مَكَانَ مَا رُعْتَهُ» قال زيد: فذهب بي

عمر فقضاني حقي، وزادني عشرين صاعًا من تمر، فقلت: ما هذه الزيادة؟ قال: أمرني رسول الله أن أزيدك مكان ما رُعْتُكَ. فقلت: أتعرفني يا عمر؟ قال: لا، فمن أنت؟ قلت: أنا زيد بن سعنة. قال: الحبر؟ قلت: نعم، الحبر. قال: فما دعاك أن تقول لرسول الله ما قلت، وتفعل به ما فعلت؟ فقلت: يا عمر، كل علامات النبوة قد عرفتُها في وجه رسول الله حين نظرت إليه إلا اثنتين لم أختبرهما منه: يسبق حلمُه جهلَه، ولا يزيده شدة الجهل عليه إلا حلمًا، فقد اختبرتهما، فأُشهدك -يا عمر- أني قد رضيت بالله ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد نبيًّا، وأشهدك أن شطر مالي -فإني أكثرها مالاً- صدقة على أمة محمد. فقال عمر: أو على بعضهم؛ فإنك لا تسعهم كلهم. قلت: أو على بعضهم. فرجع عمر وزيد إلى رسول الله، فقال زيد: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا عبده ورسوله» [1]...

ما هذا النبي العظيم ؟!..

يُجبرك قوله على التأمل، ويُعجزك فعله عن التأمل !!

(1) صحيح بن حبان ( ٢٨٨ )، المستدرك للحاكم ( ٦٥٤٧ )، سنن البيهقي ( ١١٠٦٦ )

يُجبرك سمته على التعبير، ويُعجزك صمته عن التعبير !! من الإنصاف وصفه ومدحه، ومهما وصفت ومدحت فأنت غير منصف !!...

وفي كلٍّ أنت سعيد ومنتعش ومذهول...

وصدق البوصيري حينما قال في بردته..

**وَانْسُبْ إِلَى ذَاتِهِ مَا شِئْتَ مِنْ شَرَفٍ**

**وَانْسُبْ إِلَى قَدْرُهُ مَا شِئْتَ مِنْ عِظَمِ**

**فَإِنَّ فَضْلَ رَسُولِ اللهِ لَيْسَ لَهُ**

**حَدٌّ فَيُعْرِبَ عَنْهُ نَاطِقٌ بِفَمِ**

بالله عليك سيدي، كم سعة صدرك كي تستوعب كل هذا الحلم، كي تحتمل كل هذه المضايقات ؟!

بالله عليك يا حلم، هل وجدتَ بشرًا يستوفي كامل قدرتك، ويُعلي قدرك بين الناس مثل رسول الله ﷺ ؟! بالله عليك يا زيد بن سعنة، أقرأت في علم الأحبار أن نبيًّا من أنبياء بني إسرائيل - على كثرتهم - قد بلغ من الحلم ما بلغه النبي العربي ؟! كلمة السرِّ هي الرحمة...

وكل حلم لم تأخذ فيه الرحمة كفايتها كانت نهايته بنهايتها، وحلم رسول الله أحد سُفُن بحر رحمته الواسع العميق، بحرٌ تجري فيه كل صفاته الخُلقية من عدلٍ وتواضعٍ وصبرٍ وكرمٍ وصدقٍ وأمانةٍ وحلمٍ وزهدٍ وحياءٍ وشجاعةٍ، وغير ذلك مما أنعم الله به عليه من صفات لم تجد راحتها ورونقها وأثرها إلا في بحره الكبير .

فكلما استدعى الموقف جريان حلمه، لم يكن له سبيل غير بحر رحمته، فتكون الرحمة وسيلته للوصول، وغايته للقبول، ولا يمكن للسفينة أن تستقل عن البحر، أو تستقل غيره طريقًا، ومن ثم فلا وجود لحلمه إلا في عمق رحمته . فمهما بلغ تطاول البشر استوعبه حلم النبي .

وقد استعمل زيد بن سعنة منتهى وسائل سوء الأدب مع رسول الله ﷺ عامدًا، حتى يستبين منتهى حلمه، هل لحلمه نهاية أم لا ؟؟...فبعدما رأى في وجهه كل علامات النبوة التي أُخبرها من التوراة بقيت له علامتان لا يكفي فيهما الخبر، إنما تحتاجان لإدراكهما مخالطة عن قُرب، لكن المدينة تُعامل نبيَّها أفضل مما يجده الملوك في ممالكهم، وأحسن مما يلقاه الأمراء في

إماراتهم، كما قال أبو سُفيان وقت كُفره « **ما رأيت أحدًا يحب أحدًا كحب أصحاب محمدٍ محمدًا** »...وزيدٌ يُريد إساءة في حق محمد يختبر بها ما جاء في التوراة (: **يسبق حلمُه جهلَه، ولا يزيده شدة الجهل عليه إلا حلمًا** )...فإن كانتا فيه آمن به واتَّبعه عن يقين، وإلا فهو أحد دُعاة النبوة الكاذبين... وظل زيدٌ يراقب النبي ﷺ حتى حانت له الفرصة، يوم جاء الرجل يخشى خروج قبيلته من الإسلام لقلة الرزق وقد وُعدوا كثرته...ولأن معظم أموال المدينة في سُرَر اليهود، وزيد أحد أغنيائهم، فقد عرض المساعدة بشراء تمر معلوم من النبي لم يحن موعد قطفه، ولأن النبي رحيمٌ بهذه القبيلة وحريصٌ على بقائها في عصمة الإسلام فقد قبِل الثمانين مثقالًا من ذهب من اليهودي كعقد سَلَمٍ يُعجَّل فيه المال وتؤجَّل فيه السلعة .

( ❋ ) وهنا لمحةٌ يقبح تجاهلها...أن رسول الله ﷺ لم يكن يستنكف من معاملة غير المسلمين، فقد كان ليِّنًا سهلًا لا يُعقِّد الأمور، ولم يخش من اليهودي أن يظن أنه قد موَّل صفقة بقاء قبيلة تعيد النظر في استدامتها على الإسلام... لأنه يعمل للصالح العام، ولا يهمه القيل والقال...لأنه يخدم

الناس، لا يستخدمهم...

الأن بإمكان زيد أن يختبر حلم النبي ﷺ وبنفسه، وبات بمقدوره أن يستدعي غلظة شديدة ليست فيه ليتأكد مما يجعله مؤمنًا ــ عن قناعة ــ بمحمدٍ أو كافرًا به . والحقيقة أن زيدًا كان بارعًا جدًا في تصنُّعه للعنف، واستخدم بحرفية شديدة كل العناصر التي تعصف بالحلم وتأتي بالجهل بأسرع طريقة...

( **أولًا** )...اختار أكثر وقت ينتصر فيه المرء لنفسه، فقد يحتمل الحليم ــ بسهولة ــ سوء الأدب من الغير إذا كان بمفرده، أما أن يكون ذلك أمام جمع غفيرٍ من محبيه فإنه يصعب معه الحلم لسببين، لحرصه علَى صورته أمامهم، ولانتصاره بهم على ذلك المعتدي...وقد تخيَّر زيدٌ وقت فراغه ﷺ من صلاة الجنازة، وحوله ــ كما قال ــ أبو بكر وعمر وعثمان ونفرٌ من أصحابه...

( **ثانيًا** )...أخذ بمجامع قميصه ﷺ مستعملًا كل ما يملكه من قوة.

( **ثالثًا** )...نظر إليه ﷺ بوجه غليظ...

( **رابعًا** )...فعل ذلك كله دون مقدمات توحي بذلك، ودون أن يكون بينهما حديث سابقٌ أغضبه فكان هذا رده، بل إنه فعل ذلك قبل أن ينطق بكلمة واحدة، مما يُعجِّل بإثارة الطرف الآخر أسرع بكثير من الزمن الطبيعي لحدوث ذلك .

(**خامسًا**) ... ثم بدأ حديثه بالاستنكار «ألا تقضيني؟ » ...متجاهلًا ذكر اسم من يحدِّثه أولًا احترامًا له كما تفعل العرب...أو أن يبدأ حديثه ـ على أقل تقدير ـ بعرض الحادثة من بدايتها، كأن يقول « كنتَ قد وعدتني يوم كذا بتمرٍ معلوم بعته لي إلى أجل كذا بثمانين مثقالًا ذهبًا، فأين تمري ؟؟»...

لكن زيدًا تعمَّد أن يُقرَّ بنفسه لنفسه حقًا حرمه منه رسول الله ﷺ دون وجه حق، ولذا فهو يستنكر صنيع النبي « الظالم » .

( **سادسًا** )...أتبع استنكاره ذكر اسم النبي ﷺ مجردًا عن السيادة أو الرسالة، قاصدًا بذلك التقليل منه أمام أصحابه..

( **سابعًا** ) عابه ونسبه الشريف حينما أقسم أن بني عبد المطلب يماطلون في حقوق الناس، وما رسول الله إلا على

نهجهم...وأنه يعلم ذلك بكثرة مخالطته لهم، رغم أن زيدًا لم يعرف أحدًا من بني عبد المطلب قبل رسول الله، لكنه يقول ذلك استثارة للنبي .

( **ثامنًا** )...اختار أن ينظر الى سيدنا عمر متحدِّيًا، دون غيره من أصحاب رسول الله ﷺ، لعلمه أن ردَّ فعل عمر أشرس بكثير مما يكون من أبي بكر وعثمان وغيرهما، وقد يستجيب النبي لشراسة عمر فيُغريه على الانتقام، بخلاف غيره من الصحابة .

( **تاسعًا** )...أن الأجل لم يكن قد حل بعد، وبقي على حلوله يومان أو ثلاثة، وزيد يوقن أن رسول الله ﷺ يعلم ذلك، لكنه ادَّعى حلوله ليُهيئ للنبي حجة يستغني بها عن حلمه، فيدافع عن نفسه أمام الناس بأنه لم يماطل في الحق وأن الأجل لم يحلّ..

( **عاشرًا** )...أن زيدًا يهوديٌّ، والمُتطاوَل عليه رأسُ المسلمين وإمامهم، وإذا كان هذا الفعل غير مقبول من الأعراب المسلمين، فهو أشنع وأفظع من غيرهم، خصوصًا إذا كان ذلك في حضور أغلب المسلمين، فيكون ذلك باعثًا

طبيعيًا على استعمال القوة المُفرطة، حفاظًا على هيبة النبي ﷺ بين أتباعه المفتونين به....

إن أحد هذه الأسباب العشرة كافٍ جدًا للفتك بزيد بن سعنة، كافٍ جدًا لجعله عبرة قاسية ليهود المدينة ومن على شاكلتهم ممن لا يحترمون مقام النبي العربي... لا يحتاج زيد إلى كل هذه الأخطاء الكارثية ليلقى مصيرًا أشدّ كارثية مما كان منه، لكن زيدًا توغَّل في غلطته قولًا وفعلًا إلى درجة لا ينفع معها حلم، إلا أن يكون المعتَدَى عليه نبي آخر الزمان كما تشير التوراة...

حقًا يا زيد، لو لم يكن هو النبي الحقيقي فإنك قد خسرت حياتك بيدك...

وبالفعل استجاب سيدنا عمر إلى استفزازات زيد بن سعنة غِيرةً على رسوله ﷺ، وما منعه عن قتله إلا خوفه على فوات الجنة مع حبيبه عليه الصلاة والسلام...وزيد لا يستغرب رد فعل الفاروق، فتحول ببصره إلى النبي ينتظر رده على جناياته العشرة، فوجده ينظر إلى سيدنا عمر في سكون وتؤدة . الآن قد جاءت اللحظة الحاسمة التي ينتظرها زيد منذ

زمن...ربما يأذن له بقطع عنقه دون أن يخشى فوات جواره في الجنة...أو ربما يفعلها بيديه ليشفي غليله بنفسه...أو ربما يُدافع عن نفسه ـ بكل هدوء ـ بما يملكه من بلاغة لم يُعرف له مثيل فيها...

لكن رسول الله ﷺ ينظر للناس بعينٍ مختلفة، ويشعر لهم بقلبٍ مختلف، ويفكر لهم بعقلٍ مختلف...لأنه لهم، لا عليهم...ولأنهم به، لا عنه .

فقال لسيدنا عمر «**يَا عُمَرُ، أَنَا وَهُوَ كُنَّا أَحْوَجَ إِلَى غَيْرِ هَذَا؛ أَنْ تَأْمُرَنِي بِحُسْنِ الأَدَاءِ، وتَأْمُرَهُ بِحُسْنِ التِّبَاعَةِ، اذْهَبْ بِهِ يَا عُمَرُ فَاقْضِهِ حَقَّهُ، وَزِدْهُ عِشْرِينَ صَاعًا مِنْ تَمْرٍ مَكَانَ مَا رُعْتَهُ**».

ولقد جمعت هذه القطعة ـ المباركة ـ ما لم تجمعه كل دساتير الأرض قبله ولا بعده، فما تحويه من جمال الأدب، وكمال الحلم، وخلاصة الفضل، يكفي لأن تنهض به الأمم الهابطة، وتتقوى به الأمم المستقرة، وتتحصَّن به الأمم القوية....

إن هذه القطعة ــ الذهبية ــ خير دليل على سبب حُبِّ الصحابة للنبي إلى هذا القدر الإنساني العظيم، فيحبُّونه أكثر

من أنفسهم... إنها أفضل شاهدٍ على سبب كراهتهم لأن تصيبه شوكة وهو في مكانه آمنٌ، وهم في مكان مصرعهم يعذَّبون على أيدي الأعداء...

كما أنها أعظم علامة على سبب انتشار الإسلام الذي جاء به كل يوم أكثر من سابقه، رغم ما يُشاع ضده من افتراءات ممنهجة تكفي لسقوط أي دين، وانعدام أعتى حضارة...لكنه بدلًا من ذلك يُشرق أكثر !!

إن هذا النبي حريصٌ على تقديم صورة الإنسان الكامل في كل لمحة من لمحات حياته...في نصره وعُسره، في شبابه وشيبته، في وجده وفقده، في خصومته وخصوصيته...في كل أوضاعه شديد الحرص على تعليم البشر أفضل ما يمكنهم استيعابه من كل موقف، ومهما كانت حالته وقتها لا يفوِّت أبدًا إبراز الدعم لمعارضه قبل مؤيده، سواءً كان ماديًا أو معنويًا أو جسديًا . وما قدمه ﷺ في هذه الحادثة تسلسل طبيعي لحالته المتفرِّدة .

### ( * ) التغافل

فقد تغافل ــ طواعية ــ عن جميع الجرائم التي ارتكبها اليهودي المتعمِّد، فلم يبادله الجذبة، أو الكذبة، أو النظرة، أو

اللفظة... وكأنه لم يرتكب شيئًا !!...

إنما وجَّه كلامه لعمر بن الخطاب، رغم أنه لم يُخطئ في غضبته لمقام أفضل الأنبياء والمرسلين، بل هو مشكورٌ على نيَّته وهمَّته...لكن رسول الله يريد الأحسن دون الحسن، والأفضل دون الفاضل، والحلم مع اليهودي نتيجته أحسن وأفضل له وللبهودي ولعامَّة المخالفين، والفاروق جديرٌ بالأحسن والأفضل مما حدث منه، جديرٌ بأن يوافق هواه مراد النبي لا ما يردُّ الأذى عن النبي، جديرٌ بأن يرقى لا أن يبقى... لذلك نبَّهه رسول الله ﷺ إلى ذلك رحمة ارتقاء لا رحمة إبقاء .

**( * ) التعليم بالإشارة .**

بدأ حديثه بقوله « **يا عُمَرُ** »...احترامًا وتقديرًا لشأن المخاطب، وتعليمًا لليهودي الذي تعمَّد تجاهل ذلك عند حديثه معه قبل لحظات...فأراد أن يوجِّههُ دون أن يواجهه رحمةً بصورته .

**( * ) التواضع .**

ثم أرفق بحلمه الشديد تواضعًا مبهرًا...فقال « **أَنَا وَهُوَ**

**كُنَّا أَحْوَجَ إِلَى غَيْرِ هَذَا؛ أَنْ تَأْمُرَنِي بِحُسْنِ الأَدَاءِ، وتَأْمُرَهُ بِحُسْنِ التِّبَاعَةِ** » ...فعند الحديث عن الحاجة بدأ بـ ( أنا ) قبل ( **هو** ) وكأن احتياجه أعلى من خصمه !!..

وعند الحديث عن الأمر بالحُسنى بدأ بـ(تأمرني) قبل (تأمره) وكأنه أقل التزامًا من خصمه في اتباع الحقوق والواجبات !!.. وما ذلك إلا تسكينٌ لغضب اليهودي، وتهدئةً لحدة نفوره... ولو أنه ﷺ بدأ بـ ( هو ) قبل ( أنا )، وبـ ( تأمره ) قبل (تأمرني ) لظلَّ حليمًا عظيمًا، لأنه لم يردّ الغلظة بمثلها، ولبقي متواضعًا، لأنه غير محتاج لتوجيهات تصدر عن بشر...ورغم ذلك بدأ بنفسه في جوانب النقص، لكونه متمكنًا من حالة الكمال .

والعجيب أن رسول الله ﷺ لم يصدر عنه أي شيء على الإطلاق حتى يُؤمر بحُسن الأداء، لم يرفض أداء الدين حتى يُؤمر بخلافه !!...بل إن سوء الطلب تكرر كثيرًا من اليهودي بأشكال مختلفة، فيكون هو الأولى ــ وحده ــ بالأمر بالحسنى... وكان منطقيًا أن يقول النبي « يا عمر، هو أحوج إلى غير هذا منك، أن تأمره بحسن التباعة » ..ولو قالها رسول الله لكان حليمًا صادقًا...لكنه نبي الرحمة، فقد أنزل نفسه منزلة خصمه

في الخطأ، حرصًا عليه من معاداة أصحابه، وتأليفًا لقلبه .

## ( * ) التعويض المادي والأدبي.

ثم ختم حديثه بإطلاق صورة أعلى من الحلم حينما قال .. « **اذْهَبْ بِهِ يَا عُمَرُ فَاقْضِهِ حَقَّهُ، وَزِدْهُ عِشْرِينَ صَاعًا مِنْ تَمْرٍ مَكَانَ مَا رُعْتَهُ** »... أن يُعطيه حقه قبل حلول أجله وبعد سوء طلبه فذلك حلمٌ عظيمٌ يُحمد عليه، أمَّا أن يفيض عليه بأكثر من حقه جزاء روعه فهذا هو منتهى الحلم !!..

وقد ظنَّت المجتمعات المدنية الحديثة أنها استحدثت نظامًا فريدًا يُنصف المتضرِّرين، حينما سنَّت لهم تشريعًا يقضى بتعويض ماديٍّ جرَّاء تعرُّضهم لأذى نفسي، والحقيقة أنها نسخة مصغَّرة مما فعله النبي قبل ما يقارب الخمسة عشر قرنًا...

فقد تنازل الحبيب ﷺ عن جرائم زيد في حقه دون تعويض، ثم أقرَّ له تعويضًا فوريًّا على كلمة حقٍّ قالها الفاروق كرد فعل ضروري من مؤمن لنبيه، حتى يعلم الجميع أن هذا الدين دين حلم ورفق، وأن هذا النبي لا ينتصر بالأهل والأصحاب وقوة السيف، إنما ينتصر بقدرة الحلم وقوة الرحمة .

ولَمَّا تأكد زيد بن سعنة أن هذا الرجل يسبق حلمه جهله، ولا يزيده شدة الجهل عليه إلا حلمًا، استسلم لنبوته عن يقين لا يتزعزع، استسلم لاختلافه عن سائر البشر، فمحال أن تتَّسع صدور العوام ــ مهما وصلت رحابتها ــ لشيء يسير مما عُرض لرسول الله ﷺ، ولا يحتمل كل هذه المضايقات الكثيرة المتنوعة عن طيب نفس إلا صاحب رسالة هدفه نجاة مضايقه وراحته ورحمته .

ولو كان ممن تغرُّهم قوة الجسد أو تُغريهم قوة السلطة لما استمر زيد على قيد الحياة حتى يكمل جرائمه العشرة، بل كانت نهايته أقرب من يديه حينما همَّ أن يأخذ بمجامع قميص النبي ﷺ، أمَّا أن يُترك هكذا يفعل ما يحلو له، ثم يجازى فوق ما هو له تعويضًا فلا ريب أنه يتعامل مع نبي يجب اتباعه... فدخل زيدٌ تحت راية الإسلام من باب الحلم، رحمة كاملة من رسول الله ﷺ به...

ولأنه ذاق فضل رسول الله حينما أمر له بعشرين صاعًا من تمر زيادة على حقه، فقد طابت نفسه، وزكت روحه، وهُدِيَ إلى التصدُّق بشطر ماله ــ الكثير ــ على ما شاء الله من أمَّة رسول

الله ﷺ، فانتفع المسلمون بكثير ماله، كما انتفع هو بجديد حاله. وإذا كان رسول الله قد ودَّع أحد أصحابه من الأنصار وصلَّى عليه رحمة به، فإنه قد استقبل صاحبًا جديدًا في نفس اليوم وفي ذات المكان بسبب حلمه المغلَّف بجدار الرحمة.. فلا ينتهي انتفاع البشر به في حياتهم ومماتهم. لأن الله أراده كذلك ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ**﴾.

# رحمته ﷺ بالعُصاة

## يد العون

وحدها الملائكة مجبولة على دوام الطاعة...وحدها تفعل كل ما تؤمر به دون كلل أو ملل، ودون استفسار عن الحاجة أو العلل، ودون هفوة أو ذلل، ودون عيب أو خلل، فكل أمر من الله لها معتبرٌ وجلل...

هكذا خُلقت...فلم تُركَّب فيها شهوة...هي لا تأكل، فلا طمع لها في حُلو أو مُر ...ولا تشرب، فلا حاجة لها في ساخنٍ أو بارد...ولا تتكاثر، فلا رغبة لها في جمال بشرةٍ أو جسد...ولا تتنافس، فلا مُراد لها في حقد أو حسد .

كذلك أنبياء الله ورسله، لا يملُّون من الطاعة، ولا يميلون إلى المعصية، رغم أنه قد رُكِّبت فيهم الشهوة كونهم بشر يأكلون ويشربون ويتناسلون ويتنافسون، غير أن الله قد أقدرهم عليها فلم يستعملوها إلا فيما يرضي الله على الدوام، حتى تنافسهم كان فيمن يأخذ بأكبر عدد من أمَّته إلى الجنة، وفيمن يكون مفضَّلًا بصبره وحلمه وبلوغ نبوته...وهو أعظم تنافس لما فيه الخير الكبير للأمم.

أما باقي البشر...فليسوا أنبياء يستولون على غرائزهم، فنجحوا في الاختبار بامتياز...وليسوا ملائكة لا يعرفون ماهية الغرائز وأثرها وزينتها، ومن ثم فلم يتعرضوا لهذا الاختبار الصعب من الأساس .

إن كل بني آدم خطَّاء...في صراع دائمٍ وسباقٍ مُنهكٍ مع شهواتهم، فأحيانًا تسبقهم بعناية من الشيطان الرجيم، فيُزِّين لهم مال الغير فتقع السرقة...أو حُرمة الغير فيقع الزنا...أو دم الغير فيقع القتل...أو طعام الغير فينبت الجسم من حرام... أو شراب المحرَّم فيكون الخمر وأمثالها...أو غيبة ونميمة وكذب وغش وظلم وحسد وحقد وسحر وربا وخيانة عهد وخلف وعد ...الخ

والآدمي غير معصوم من الانغماس في واحدة أو أكثر من هذه المعاصي كبيرها وصغيرها، لكن خير الخطَّائين التوَّابون كما أخبر الصادق المصدوق ﷺ...بل إن وقوع الآدمي في المعصية سنة كونية وطبيعة بشرية لا تنفك عنه أينما حلَّ أو ارتحل...فلولا المعصية ما كانت التوبة، ولولا التوبة ما كانت الرأفة، ولولا الرأفة ما كان الحلم، ولولا الحلم ما كان العفو،

ولولا العفو ما كان الصفح، ولولا الصفح ما كانت المغفرة، وكلها صفات تنتسب إلى عائلة الرحمة في طبقتها الأولى .

وكيف يكون الخالق العظيم توَّابًا والبشر لا يُذنبون ؟!.. وما معنى كونه ستَّارًا وليس في أفعال العباد ما يُذم عند كشفه ؟!

لا حاجة لكونه رؤوفًا أو حليمًا أو عفوًّا أو غفورًا إذا كان البشر ملائكيِّين في جميع أفعالهم وأقوالهم وأحوالهم !!...

ستكون مجرد أسماء وصفات معطَّلة عن القيام بمدلولاتها، ستصبح نظريات عاجزة عن التطبيق، ولن يكون للرحمة باب تنفذ منه إلى البشر إلا من جهة دوام الإمداد بفرعيه، الأول دوام إمدادهم بالحياة كل نفس ولمحة، والثاني دوام إمدادهم بحالة الكمال التي تحجبهم عن المعصية .

مؤكد أن رحمة الله تعالى لن تتعطَّل بكليتها أبدًا، لأن في ذلك إفناءً للوجود بأكمله بلا رجعة، وإنهاءً للآمال بلا عودة، فالكون والكائنات يستمدون وجودهم وبقاءهم وتطلعاتهم من رحمته تعالى...لكن بقاء الرحمة بكامل أفرادها وعناصرها يستدعي بقاء كونه توَّابًا رؤوفًا حليمًا عفوًّا غفورًا، وبقاء هذه

الصفات يستدعي بقاء بواعثها، فيكون الخطأ البشري دليلًا على كمال الرحمة بأفرادها وعناصرها، كما أنه دليل على بقاء صاحبه بلا تبديل...فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لو لَمْ تُذْنِبُوا لَذَهَبَ اللَّهُ بِكُمْ، وَلَجَاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ، فَيَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ فَيَغْفِرُ لهمْ**»[1]

لكن ذلك لا يكون مدعاة للعبد للاجتراء على المعاصي أو الاستهانة بها أو الإصرار عليها، لأنها أفعال تجلب غضب الله تعالى على العبد، وقد لا يُوفَّق للتوبة إما بسبق الأجل عليه قبل توبته، أو أن يُطبع على قلبه فلا يرى نفسه عاصيًا يحتاج إلى توبة..

أما مقصود المعصية التي تُفعَّل لها أدوات الرحمة، فهي التي تحدث عن غلبة نفس دون اجتراء، أو عن لحظة ضعف دون إصرار، ويعقبها ندم ورجوع دون يأس من رحمة الله الغفَّار .

والعبد كلما جاهد نفسه وكبح جماحها لعدم الوقوع في

(1) صحيح مسلم ( ٢٧٤٩ )

المعصية، كلما ارتقى في مقامات القرب والأنس بالله تعالى، فتطمئن نفسه، وتهدأ روحه، وينصلح حاله، ومن ثم تُحَبَّبُ إليها الطاعات ويستمد بها راحته، فإذا ما وقع في معصية ــ لعدم عصمته ــ أورثته ذُلًّا وانكسارًا لخالقه أكثر من ذي قبل.

ولأن العصر النبوي مكونٌ من نبيٍّ معصوم وأصحاب غير معصومين ــ مهما بلغت درجة إيمانهم ــ، كان النبي ﷺ يتخوَّلهم بالموعظة الحسنة، ويذكِّرهم بمكارم الأخلاق، ويقبِّح لهم المحظورات، وقد كانوا خير أمَّة تستمع وتستجيب لرسولها الكريم، وكانوا على قناعة تامة بأن ما يأمرهم به خير لهم فعله، وأن ما ينهاهم عنه خيرٌ لهم تركه، فكانت قلوبهم تردِّد قبل ألسنتهم « سمعنا وأطعنا » .

وقد كان نُعيمان بن عمرو أحد هؤلاء المتلقِّفين لأوامر النبي ونواهيه بأهمية بالغة .

فلم يكن يستجيب لأمر الصلاة والصيام فقط، بل استجاب لما يُختبر فيه قويُّ الإيمان وضعيفه ألا وهو الجهاد في سبيل الله، فقد لبَّى النداء في بدرٍ وأُحد والخندق وكل المشاهد مثله في ذلك مثل كبار الصحابة رضوان الله عليهم، وكان

يجتنب المحرمات قدر طاقته...

وكان رسول الله ﷺ يُحبه حبًّا شديدًا لصفةٍ فيه تُميِّزه عن غيره، فقد كان نعيمان خفيف الظِّل يحب المزاح في غير مواطن الجدّ، وكان يُكثر منه في حضرة النبي ومع النبي نفسه .

قال الزبير ابن بكار... «**فكان لا يدخل المدينة إلا اشترى منها ثم جاء بها إلى النبي فيقول: هذا أهديته لك، فإذا جاء صاحبها يطلب نعيمان بثمنها أحضره إلى النبي وقال: أعط هذا ثمن متاعه، فيقول: «أوَ لم تهده لي»، فيقول: إنه والله لم يكن عندي ثمنه، ولقد أحببت أن تأكله، فيضحك ويأمر لصاحبه بثمنه...**

**ودخل أعرابي على النبي وأناخ ناقته بفنائه، فقال بعض الصحابة للنعيمان الأنصاري: لو عقرتها فأكلناها، فإنا قد قرمنا اللحم ففعل، فخرج الأعرابي وصاح: واعقراه يا محمد، فخرج النبي وقال: «من فعل هذا؟»، فقالوا: هو النعيمان، فأتبعه يسأل عنه حتى وجده قد دخل دار ضباعة بنت الزبير بن عبد المطلب واستخفى تحت سرب لها فوقه جريد، فأشار رجل إلى النبي حيث هو فأخرجه فقال له: «ما حملك**

على ما صنعت؟»، قال: الذين دلوك عليَّ يا رسول الله هم الذين أمروني بذلك، قال: فجعل يمسح التراب عن وجهه ويضحك، ثم غرمها للأعرابي » (1) .

وعن أم سَلَمَةَ رضي الله عنها « أنّ أَبَا بكرٍ خرج تاجرًا إلى بُصْرَى، ومعه نُعَيْمَانُ وَسُوَيْبِطُ بْنُ حَرْمَلَةَ، وكلاهما بدريّ، وكان سُوَيْبِطٌ على الزَّادِ، فَجَاءَهُ نُعَيْمَانُ، فقال: أَطْعِمْنِي، فقال: لا، حتى يَأْتِيَ أبو بكر، وكان نُعَيْمَانُ رَجُلًا مِضْحَاكًا مَزَّاحًا، فقال: لَأَغِيظَنَّكَ، فذهب إلى ناسٍ جَلَبُوا ظَهْرًا، فقال: ابْتَاعُوا منّي غلامًا عَرَبِيًّا فَارِهًا، وهو ذو لِسَانٍ، ولعلّه يقول: أنا حرّ، فإن كنتم تارِكِيه لذلك، فَدَعُونِي، لا تفسدوا عليَّ غُلَامِي، فقالوا: بلْ نَبْتَاعُهُ منك بِعَشْرِ قَلَائِصَ. فأقبل بها يَسُوقُهَا، وأقبل بالقوم حتى عقلها، ثم قال للقوم: دُونَكُمْ هو هَذَا، فجاء القوم، فقالوا: قَدْ اشْتَرَيْنَاكَ. قَالَ سُوَيْبِطٌ: هو كَاذِبٌ، أنا رجل حرّ، فقالوا: قد أَخْبَرَنَا خَبَرَكَ، وَطَرَحُوا الْحَبْلَ في رَقَبَتِهِ، فذهبوا به، فجاء أبو بكر فَأُخْبِرَ، فذهب هو وأصحاب له، فردّوا الْقَلَائِصَ وَأَخَذُوهُ. فَضَحِكَ منها النبي صلى الله عليه

(1) ابن حجر ( الإصابة في تمييز الصحابة ٦ \ ٣٦٦ ـ ٣٦٧ )

**وآله وسلم وأصحابُهُ حَوْلًا»**[1].

لقد كان رسول الله ﷺ عظيمًا بالقدر الذي يستوعب اختلاف أصحابه في أفهامهم وطبائعهم وتوجهاتهم، ولو عاملهم جميعًا بمقياس واحد لهلك معظمهم...فمتى علم من الصِّدِّيق لينًا إلا زاده لينًا يرحمه، ومتى علم من الفاروق شِدَّة في الحقِّ إلا زاده شِدَّة ترحمه، ومتى علم من ذي النورين حياءً إلا زاده حياءً يرحمه، ومتى علم من أبي الحسن حكمة إلا زاده حكمة ترحمه، وهكذا كل أصحابه....حتى إذا علم من نعيمان بن عمرو فكاهةً إلا قبلها منه وتقبَّله بها...

لو أنه أمسك على نعيمان مزاحه وملاطفته لما كان ذلك الشاب المقبل على الحياة سعيدًا ينتظر لقاء نبيِّه الحبيب، وكيف يستشرف بلقائه وهو ذا يكبت روحه ويكسر سعادته ؟؟... كيف يتودَّد إليه وهو لا يعرف من طُرق الوُّد إلا ما يُضحك ؟؟...

ولو لم يتقبله النبي بقبول حسن بطبعه هذا لما كان له في

(1) مسند الإمام أحمد ( ٦ \ ٣١٦ )

الإسلام نباتٌ حسنٌ، فينتهي المطاف بنعيمان في آخر صفوف المسلمين منزويًا عن كل اجتماع تُكبت فيه طلاقته ولطافته . ولو وقعت هذه المواقف من رجلٍ غيره فلربما رفضها النبي ﷺ، فهي مواقف لا يُقبل تخيُّلها من أبي بكر أو عمر أو عثمان أو علي أو حمزة أو خالد أو معاذ أو طلحة أو غيرهم...فلكلٍ طريقته وطبعه، وتلك طريقة نعيمان بن عمرو .

وبينما هو يمارس حياته في طاعة تتبعها طاعة إذ غلبته نفسه فشرب الخمر، وكان قد عوقب بها ثلاث مرات من قبل، ويبدو أنه كان مدمنًا لها قبل تحريمها على المسلمين، فأضحى بعد تحريمها مجاهدًا لنفسه فيها فيغلبها كل مرة إلا ما ضعُف فيه... جاء نعيمان إلى رسول الله ﷺ نادمًا أشدَّ الندم قاصدًا التوبة، وهو يعلم أن اعترافه على نفسه بالشراب موجبٌ لإقامة الحدِّ عليه للمرة الرابعة...

عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه **أَنَّ رَجُلًا على عَهْدِ النبيِّ ﷺ كانَ اسْمُهُ عَبْدَ اللَّهِ، وكانَ يُلَقَّبُ حِمَارًا، وكانَ يُضْحِكُ رَسولَ اللَّهِ ﷺ، وكانَ النَبيُّ ﷺ قدْ جَلَدَهُ في الشَّرَابِ، فَأُتِيَ به يَوْمًا فأمَرَ به فَجُلِدَ، فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ القَوْمِ: اللَّهُمَّ العنه، ما أَكْثَرَ ما**

**يُؤْتَى بِهِ؟ فَقَالَ النبيُّ ﷺ: لا تَلْعَنُوهُ، فَوَاللهَّ ما عَلِمْتُ إلا أَنَّه يُحِبُّ اللهَّ ورَسولَهُ.»** [1]

وعن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ : «**أُتِيَ النبيُّ ﷺ برَجُلٍ قدْ شَرِبَ، قَالَ: اضْرِبُوهُ قَالَ أبو هُرَيْرَةَ: فَمِنَّا الضَّارِبُ بيَدِهِ، والضَّارِبُ بنَعْلِهِ، والضَّارِبُ بثَوْبِهِ، فَلَمَّا انْصَرَفَ، قَالَ بَعْضُ القَوْمِ: أَخْزَاكَ اللهُّ، قَالَ: لا تَقُولوا هَكَذَا، لا تُعِينُوا عليه الشَّيْطَانَ. وفي روايةٍ: « لا تكونوا عَوْنَ الشَّيطانِ على أخيكم »** [2] .

أراد نعيمان بمجيئه إلى النبي ﷺ عقاب نفسه بإقامة الحد عليها، أراد أن يتخلص من سطوتها عليه كل حين، أراد أن يُحرجها أمام رسول الله ﷺ وأصحابه علّها تستسلم إليه بالكليَّة.

فأمر رسول الله ﷺ أصحابه أن يُقيموا الحد عليه أربعين ضربة، فمنهم من ضربه بيده، ومنهم من استعمل نعله، ومنهم من استخدم ثوبه، المهم أن يكون مجموعها أربعين ضربة... والأمر في مبدأه ومنتهاه للزَّجر والتَّرهيب لا للتَّشفي، لأن في

(1) صحيح البخاري ( ٦٧٨٠ )
(2) صحيح البخاري ( ٦٧٧٧ )

الخمر غفلة عن العبادة، وسلبٌ للعقل، ومن ثَمَّ يكون سوء القول والفعل، وكلُّ ذلك لا يتَّسق وحال المؤمن الكامل مع ربه .

وبعدما انتهى القوم من إقامة الحد على نعيمان تبرَّع أحدهم بلعنه، كونها رابع مرة يُؤتى به دون أن ينتهي، فسارع النبي ﷺ بالدفاع عنه وإحلال رحمته فيه بصورة غاية الكمال، وقد فاز نعيمان بوقفة رسول الله ﷺ لأجله أعظم فوز... وكان من جملة من شملهم قول الله لحبيبه «**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ** » .

**أولًا...النبي الحامي...**

لم يستسغ رسول الله ﷺ نبرة اللعن في حق مسلم له في الإسلام أيادٍ بيضاء، يكفي أنه قد شهد غزوة بدر الكبرى، وقد غفر الله لأهلها ما فعلوا...فقال للرجل وللجميع بكل حزم دفاعًا عن ـ البدريّ المجاهد ـ نعيمان بن عمرو.. « لا تلعنوه » .

إن هذا النبي العربي قد أعجز أفصح العرب ببيانه، وعالج أقسى القلوب بوجدانه، وأعاد أعتى العصاة بحنانه...

رحيمٌ في رخائه وشدَّته، وفي فرحه ووجدته، وفي منحه ومحنته...

رحيمٌ على الرحماء وأضدادهم، وعلى الطائعين وأغيارهم، وعلى المحبين وأخلافهم...

رحيمٌ حينما لا تُنتظر الرحمة، وحينما تشتعل الأزمة، وحينما تُفتقد الهمَّة .

رحيمٌ عند نقص الإيمان، وعند نقض الأيمان، وعند ضعف النعيمان .

وقد كان المتوقع أن يوافق النبي ﷺ الرجل في قوله، لأن شارب الخمر ملعون ومعه تسعة آخرون كما بين النبي ﷺ فعَنْ أنس بن مالك قَالَ : « **لَعَنَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي الْخَمْرِ عَشْرَةً عَاصِرَهَا وَمُعْتَصِرَهَا وَشَارِبَهَا وَحَامِلَهَا وَالْمَحْمُولَةُ إِلَيْهِ وَسَاقِيَهَا وَبَائِعَهَا وَآكِلَ ثَمَنِهَا وَالْمُشْتَرِي لَهَا وَالْمُشْتَرَاةُ لَهُ** » (1)

فالظاهر من قول الرجل موافقته للسنة النبوية وأحكام الله في كل من تربطهم بالخمر مصلحة من قريب أو بعيد، ولو

(1) سنن الترمذي ( ١٢٩٥ )

سكت النبي ﷺ ما كان لنعيمان أن يطمح ويطمع في غير ذلك.

لكن رسول الله ﷺ جديرٌ بما هُيِّئ له...فلم يوافق الرجل في لعنه لنعيمان، بل نهاهم جميعًا عن لعنه نهائيًا، ففهم العلماء منها النهي عن لعن المعيَّن ــ شخص بعينه ــ مهما صدر منه، لأن اللعن هو الطرد من رحمة الله، وذلك لإمكانية تغيُّره عن اللعن ونتيجته إما بتوبة، أو بأعمال صالحة، أو ابتلاءات مكفِّرة، أو بشفاعة مقبولة فيه...أما ما يجوز فهو لعن أهل المعاصي بصيغة العموم ...

وتلك رحمة عظيمة من النبي ﷺ بنعيمان رغم ما وقع منه من معصية كبيرة تقشعرُّ لها الأبدان، ويشيب لها الولدان .

**ثانيًا...النبي المُعِين..**

فريدٌ في توجُّهاته، عظيمٌ في قرارته، معجزٌ في تصرفاته . يفرِّق بين الجاني والجناية، ويطمئن المذنب ببقاء الرعاية، ويبشِّر العاصي بقرب الهداية .

يجنِّب العاصي طلائع الازدراء، ويجنِّب المجتمع بوادر الاستعلاء...

وقد كان نعيمان وقتها أحوج ما يكون لرحيم يستره، وطبيبٍ يجبره، ومعينٍ ينصره.. كان أضعف من أن يحتمل لفظة تلعنه، أو نظرة تحتقره، أو مقاطعة تعاقبه...لقد أجرم في حق نفسه إذ طاوعها، لكنه بأفعالهم هذه سيجرم في حق الجميع بمخالفتهم ، فليس بعد الازدراء شيء يخشى عليه نعيمان، فقد أصبح في نظرهم ماضٍ وكان، فما الذي سيمنعه بعد من ارتكاب الإثم والعدوان .

فبيَّن لهم الحبيب ﷺ العلة في النهي عن لعنه والدعاء عليه بالخزي « **لا تَكونوا عَوْنَ الشَّيطانِ على أخيكم** »

فقد وجَّههم النبي ﷺ إلى زاوية لم تكن في مرمى بصائرهم قبل أبصارهم، أن الشيطان يريد من المجتمع مساعدته في إهلاك العاصي باحتقاره وتجنُّبه والدعاء عليه، فمتى رأى العاصي من المجتمع نفورًا لشخصه زاد في عصيانه عنادًا أو قُنوطًا من رحمة الله تعالى، فيكون المجتمع أداة في يد الشيطان !! ...

وقد استعمل الحبيب ﷺ لفظًا غاية الرحمة حينما نبَّههم أنهم بذلك لا يُعينون الشيطان على مجرد رجل عاصٍ، إنما يُعينونه على أخيهم، والمرء لا يُعين أحدًا على أخيه أبدًا، إنما العكس، فكأنه يقول لهم « كونوا عونًا لأخيكم على الشيطان »... وهي في ذاتها رسالة عامَّة لكل مجتمع يضعف فيه أحد أفراده أمام المعصية بأن يوجِّهوه إلى الطاعة بالحكمة والموعظة الحسنة، لا أن يسلِّموه إلى الشيطان بسوء قولهم ونظرتهم إليه .

كما أن النبي ﷺ لما أثبت لنعيمان الأخوَّة رغم معصيته قد أشعره بقبول توبته، وحُسن رجوعه، ودوام بقائه واحدًا من أصحابه الكرام...وتلك رحمة عظيمة .

**ثالثًا...النبي المُحبّ**

ثم أكمل النبي ﷺ هداياه القيِّمة لنعيمان حينما فاجأه وجميع الحضور بكلماتٍ تمنَّى أفضلهم لو قيلت فيه.. « **فَوَاللَّهِ ما عَلِمْتُ إلا أَنَّه يُحِبُّ اللَّهَ ورَسولَهُ.** » ...

لو أنه قائدٌ يستخفُّ بأفعال القلوب، ويستصغر المعاني في مواجهة المباني، ويستضعف أثر الروح على الروح، ويستحقر سلاح الحب في مقابلة سلاح الحرب، لما قال هذه الكلمات

العظيمة الرحيمة...لو أنه لا يحبُّ نعيمان لما استعمل معه سلاح المحبِّ المتغافل عن الأخطاء، المستحضر للحسنات، ولا أعظم من حبِّ الله ورسوله حسنة تُستحضر .

كلماتٌ غيَّرت نظرة المجتمع في نعيمان إلى الأبد، فلم يعد عندهم مجرد رجلٍ يُضحك النبي ثم تغلبه الخمر لضعف إيمانه، ثم يُؤتى به كأشقى القوم فيُقام عليه الحدَّ مرَّةً تلو الأخرى... كلماتٌ غيَّرت نظرة نعيمان نفسه لنفسه، فلم يعد ذلك الضعيف الذي يغلبه من متاع الدنيا شيء مهما بلغ زهوه، وكيف يضعف بعد اللحظة قلبٌ أقسم النبي ﷺ أنه يُحب الله ورسوله ؟؟... كيف يعود من مكانه كئيبًا مقهورًا يائسًا من رحمة الله ؟؟. لقد عاد نعيمان نشيطًا فرحًا مرحومًا، فلم يعد بعدها للخمر أبدًا، وقد استلذَّ بما في قبله من حلاوة كمال الإيمان على يد رسول الله ﷺ...فإذا كان نعيمان سببًا لإدخال السرور على قلب النبي ﷺ لبعض الوقت، فإنه قد نال من لسانه الشريف سرورًا حقيقيًّا لا ينفد أبدًا...وتلك رحمة كاملة لم يكن يتخيلها النعيمان وقتما أُحضر لإقامة الحد عليه .

كما عاد المجتمع بعد هذه الواقعة متماسكًا أكثر لا يلعن

بعضه بعضًا لذنبٍ وقع عن ضعف نفسٍ لأحد أفراده الغير معصومين، وقد أدركوا أنهم جميعًا إخوة لا ينزعهم عن تلك الرابطة نازع حتى لو كان ذنبًا كبيرًا، وأن لعن بعضهم بعضًا سيكون مدعاة للعداوة والبغضاء فيما بينهم، ومن ثم تحدث الفرقة بين صفوف المسلمين فتمنعهم من الاعتصام بحبل الله جميعًا ...فكان قوله ﷺ رحمة بالجميع .

فيظهر دونما عناء أن قول الله تعالى ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ**﴾ .قد تجلَّى في هذا الموقف بصورة تليق برسول الله ﷺ ...وأن هذا النبي العظيم يستخدم كل أدواته لإنقاذ الأمَّة، وإنفاذ الرحمة .

# ماعز والغامدية

عن بُريدة بن الحصيب الأسلمي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ... «جَاءَ مَاعِزُ بنُ مَالِكٍ إلى النبيِّ ﷺ، فَقالَ: يا رَسولَ الله، طَهِّرْنِي، فَقالَ: وَيْحَكَ، ارْجِعْ فَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ وَتُبْ إلَيْهِ، قالَ: فَرَجَعَ غيرَ بَعِيدٍ، ثُمَّ جَاءَ، فَقالَ: يا رَسولَ الله، طَهِّرْنِي، فَقالَ رَسولُ الله ﷺ: وَيْحَكَ، ارْجِعْ فَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ وَتُبْ إلَيْهِ، قالَ: فَرَجَعَ غيرَ بَعِيدٍ، ثُمَّ جَاءَ، فَقالَ: يا رَسولَ الله، طَهِّرْنِي، فَقالَ النبيُّ ﷺ: مِثْلَ ذلكَ حتَّى إذَا كَانَتِ الرَّابِعَةُ، قالَ له رَسولُ الله: فِيمَ أُطَهِّرُكَ؟ فَقالَ: مِنَ الزِّنَى، فَسَأَلَ رَسولُ الله ﷺ: أَبِهِ جُنُونٌ؟ فَأُخْبِرَ أنَّهُ ليسَ بمَجْنُونٍ، فَقالَ: أَشَرِبَ خَمْرًا؟ فَقَامَ رَجُلٌ فَاسْتَنْكَهَهُ، فَلَمْ يَجِدْ منه رِيحَ خَمْرٍ، قالَ، فَقالَ رَسولُ الله ﷺ: أَزَنَيْتَ؟ فَقالَ: نَعَمْ، فأمَرَ به فَرُجِمَ، فَكانَ النَّاسُ فيه فِرْقَتَيْنِ، قَائِلٌ يقولُ: لقَدْ هَلَكَ، لقَدْ أَحَاطَتْ به خَطِيئَتُهُ، وَقَائِلٌ يقولُ: ما تَوْبَةٌ أَفْضَلَ مِن تَوْبَةِ مَاعِزٍ، أنَّهُ جَاءَ إلى النبيِّ ﷺ فَوَضَعَ يَدَهُ في يَدِهِ، ثُمَّ قالَ: اقْتُلْنِي بالحِجَارَةِ، قالَ: فَلَبِثُوا بذلكَ يومَيْنِ، أَوْ ثَلَاثَةً، ثُمَّ جَاءَ رَسولُ الله ﷺ وَهُمْ جُلُوسٌ، فَسَلَّمَ ثُمَّ جَلَسَ، فَقالَ: اسْتَغْفِرُوا لِمَاعِزِ بنِ مَالِكٍ، قالَ: فَقالوا: غَفَرَ اللَّهُ لِمَاعِزِ بنِ مَالِكٍ،

قالَ، فَقالَ رَسولُ الله ﷺ: لقَدْ تابَ تَوْبَةً لو قُسِمَتْ بيْنَ أُمَّةٍ لَوَسِعَتْهُمْ. قالَ: ثُمَّ جَاءَتْهُ امْرَأَةٌ مِن غَامِدٍ مِنَ الأزْدِ، فَقالَتْ: يا رَسولَ الله، طَهِّرْنِي، فَقالَ: وَيْحَكِ ارْجِعِي فَاسْتَغْفِرِي اللَّهَ وَتُوبِي إلَيْهِ فَقَالَتْ: أَرَاكَ تُرِيدُ أَنْ تُرَدِّدَنِي كما رَدَّدْتَ مَاعِزَ بنَ مَالِكٍ، قالَ: وَما ذَاكِ؟ قالَتْ: إنَّهَا حُبْلَى مِنَ الزِّنَى، فَقالَ: آنْتِ؟ قالَتْ: نَعَمْ، فَقالَ لَهَا: حتَّى تَضَعِي ما في بَطْنِكِ، قالَ: فَكَفَلَهَا رَجُلٌ مِنَ الأنْصارِ حتَّى وَضَعَتْ، قالَ: فأتَى النبيَّ ﷺ، فَقالَ: قدْ وَضَعَتِ الغَامِدِيَّةُ، فَقالَ: إذًا لا نَرْجُمُهَا وَنَدَعُ وَلَدَهَا صَغِيرًا ليسَ له مَن يُرْضِعُهُ، فَقَامَ رَجُلٌ مِنَ الأنْصَارِ، فَقالَ: إلَيَّ رَضَاعُهُ يا نَبِيَّ الله، قالَ: فَرَجَمَهَا. »[1]

حادثان غريبان على المجتمع المدني في العصر النبوي !!

رجلٌ أنعم الله عليه بالإسلام، وبرؤية الحبيب ﷺ كل صباح، ثم في إحدى الليالي يفعل أشدَّ الخبائث كأنما لا يُدرك عِظم العصر والمِصر الذي وُجد فيه، أو لا يدرك قبح ما أقدم عليه !!

(1) صحيح مسلم ( ١٦٩٥ )

وامرأةٌ كرَّمها الإسلام، وطهَّرها وحرَّرها من مطامع الرجال، ثم هي ترتضي أحدهم يهتك كرامتها وطهارتها وحرِّيتها !!

إن صغائر الذنوب في كل عصور الإسلام تتعاظم في العصر النبوي وتحديدًا في مدينته المنوَّرة، فالمسلم المدني في عصر النبوة يرى ويسمع الحبيب ﷺ كل وقت، يستمد منه النور كل لقاء...

إذا حضرت الصلاة كان الحبيب إمامه، وإذا نودي للجهاد كان أمامه...في الموت يُشيِّع معه الجنازات، وفي المرض يُشاركه العيادات...إن هبَّ الجوع سانده بربط الحجر على أحشائه، وإن هجم الخوف طمأنه بأن الله ناصره على أعدائه...يقبل هديَّته إذا أهداه الطيِّبات، ويحتمل تجاوزه إذا بادره بالإساءات... يبتسم في وجهه ببشاشته إذا قابله، ويُخفِّف عليه بسماحته إذا عامله...يعزُّ عليه ما يُؤلمه، و يسعد بكل ما يرحمه .

فهل بعد هذه الملازمة اللطيفة والمصاحبة الشريفة يختلي الصحابي بنفسه فيقع في معصية ولو كانت صغيرة جدا ؟!...

فما بالك وإذ به يمارس معصية من أكبر الكبائر ؟!...كيف وفيهم رسول الله ﷺ ؟!

وماذا ترك من الذنوب لمن يأتي بعد النبي بأزمان وقد كثُر الخبث، واختلطت الأفكار، وزحفت الفتن إلى كل دار ؟!..

كلُّ ذلك مدعاة لأن يُضاعف رسول الله ﷺ العقاب على من انتهك الحرمات، وأن يُبطل الدعم النبوي لمن لا يستحق الرحمات .

الطبيعي أن يُنكِّل النبي ﷺ بذلك الأسلمي وتلك الغامدية أشدَّ تنكيل...البديهيُّ أن يُغلظ لهما في الأقوال والأفاعيل...الأبجديُّ أن يجعلهما عبرة عنيفة لكل من تسوِّل له نفسه تدنيس شرف مدينته المنوَّرة، العاديُّ أن يفضحهما على رؤوس الأشهاد بطريقة مكبَّرة... كيف لا والله سبحانه وتعالى يقول ﴿**الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ**﴾[1]

(1) سورة النور ( ٢ )

هذا في حالة ما إذا كانا غير متزوجَين، أما إذا كانا مُحصنَين أو أحدهما فحكم المحصَن منهما الرَّجم بالحجارة حتى الموت، وإذا كان الله سبحانه وتعالى قد أمر فإن أولى الخلق بالسمع والطاعة رسوله الكريم ﷺ

لكن تطبيق رسول الله للأمر الإلهي يختلف تمامًا عن أفهامنا ومداركنا، كونه يعي دقائق الأمور ومراد الله منها، ومراد الله منه ذاته ﷺ في ذلك الأمر...فإن كانت مهمته هنا أن يُطبِّق حدَّ الله على أكمل وجه فذلك لا يتعارض مع ولوج رحمته في الحادثين، بل إن الرحمة هي الغالبة على المشهدين أكثر من تطبيق الحد ذاته !!

إن الحبيب ﷺ لا يتخلى أبدًا عن تقديم رحمته للعالمين مهما صدر منهم !!

إن أحسنوا كافأهم بها، وإن أساؤوا حماهم بها، وإن تغافلوا أنعشهم بها...

وهي سارية في أصحابه أكثر من غيرهم ولو بلغت ذنوبهم عنان السماء...

هو لا ينظر إلى الأمور نظرتنا القاصرة حينما نقول : كيف يخطئون وفيهم رسول الله ؟ »...

إنما نظرته الكاملة تستدعي « كيف لا يُرحمون وفيهم رسول الله ؟! »

كيف لا يُقدَّم الدعم لرجل ترك دين آبائه وأجداده طواعية لأجل رسول الله ﷺ ؟!...

كيف لا يمارس سلطاته الحسنة لرجل قبض على شهواته طوال عمره لتفلُّتها منه مرة ؟!...

كيف لا تبزغ رحمته لامرأة اختارت لنفسها العقاب رغم صدق التوبة ؟!...

كيف لا يُدافع عن سمعتها وقد ندمت أشد الندم على إساءتها ؟!..

لقد كانت رحمته ﷺ حاضرة بقوة مع الأسلمي والغامدية بصورتها الكاملة، ومهما حاولنا استيعابها فإننا لن نستوعب إلا أدنى قدرٍ منها، ولن يشعر أحدٌ ـ مهما كان ـ بحجمها شعور ماعز والغامدية...وقد كانا في كرب شديد لا يُنتظر

معه رحمة ولا أبسط جزء منها في عرف البشر، لكن فضل الله عليهما كان كبيرًا جدًا حينما خاطب نبيه بواجب الرحمة. ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ** ﴾ ...وهما جزء من العالمين، بل إنهما أحوج ما يكون إلى رحمة النبي ﷺ أكثر من أغلب من في العالمين .

وقد كان ماعز بن مالك الأسلمي أحد أصحاب رسول الله ﷺ المدنيِّين، وكتب له الرسول ﷺ كتابًا بإسلام قومه بني أسلم، وكانت له حياة هادئة يتنعم بها بين قومه وأهله، ولم يُعرف عنه نفاقٌ أو فسقٌ أو فجور ...وفي ليلة هي أتعس لياليه على الإطلاق أغراه الشيطان بجاريةٍ لهزال الأسلمي فوقع بها في غفلة من النفس، فلما أفاق من غفلته ندم ندمًا كاملًا، وأراد أن يُخلِّص نفسه من ذلك الذنب العظيم، فأشار عليه هزال بأن يذهب إلى رسول الله ﷺ لعل الله ينزل فيه قرءانًا يرحمه من العذاب .

وفي طريقه إلى النبي ﷺ لقي أبا بكر فقصَّ عليه قصته، فنصحه الصدِّيق رضى الله عنه بألا يخبر أحدًا بالأمر وليستغفر الله تعالى وليستر نفسه مع التوبة الصادقة، لكن ماعزًا أراد

عقابًا لفعلته الشنيعة يخفِّف ألمه الداخلي، فأكمل طريقه إلى حيث يكون رسول الله ﷺ، ثم لقي عمر بن الخطاب رضي الله عنه فأخبره بالأمر، فسمع من الفاروق ما سمع من الصدِّيق، ثم فعل مثلما فعل مع أبي بكر ومضى في طريقه إلى النبي .

دخل ماعز على رسول الله ﷺ وعلى وجهه جميع علامات الندم، ثم طلب من النبي بصوت متحسِّرٍ أن يُطهِّره دون أن يصرِّح بالزنا لأنه يعلم أن رسول الله ﷺ سيفطن إلى مقصده، فأعرض عنه الحبيب ﷺ بوجهه إلى الاتجاه الآخر، فاتجه ماعز إلى ذلك الاتجاه وأعاد طلبه من جديد، فقال له النبي ﷺ : «**وَيْحَكَ، ارْجِعْ فَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ وَتُبْ إِلَيْهِ** »، فانصرف ماعز من أمامه وابتعد لبضع خطوات لكنه سرعان ما عاد إلى رسول الله ﷺ، فقد استكثر على نفسه أن يمرَّ الأمر بسهولة هكذا دونما عقاب أو حتى عتاب، فأعاد طلبه للنبي ﷺ، فكرَّر له الحبيب قوله آملًا منه أن ينصرف بلا رجعة، فخرج ماعز ثم رجع، ثم هو على ذلك يردد « **طهِّرني** » حتى إذا كانت الرابعة سأله النبي وهو يعلم منذ أن رآه أول مرة «**فِيمَ أُطَهِّرُكَ؟** »، فصرَّح ماعزٌ بما صمَّم على التوبة منه علانية وقد نطق بالزنا !!

أما وأنه قد صرَّح أمام الحاكم فلم يعد بإمكانه الذِّهاب من أمامه مرة أخرى دونما سبب، فلن يطلب منه النبي بعدها أن يرجع فيستغفر إلا إذا كان له مخرج وجيه... فَسَأَلَ رَسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ الناس من قومه «: **أَبِهِ جُنُونٌ؟** »، فأَجابوه بأنه من أرجحهم عقلًا...ثم سألهم ثانية « **أَشَرِبَ خَمْرًا ؟** »، فقام إليه أحدهم فاستنكه فمه فلم يشمَّ منه رائحة خمر...ثم عرض له النبي ﷺ أشياء دون الزنا «**لَعَلَّكَ قَبَّلْتَ أَوْ غَمَزْتَ أَوْ نَظَرْتَ** » مما قد يظنه ماعز زنا يستوجب الحدَّ وهو ليس كذلك ، فأصرَّ ماعزٌ أنه لم يتوقف عند هذه الأشياء وإنما تعداها للمباشرة...فسأله الحبيب ﷺ للمرة الأخيرة « **أزنيت ؟** » فأجاب ماعز بنعم، فاضطَّر النبي باعترافه المستميت لأن يأمر أصحابه بإقامة حد الزنا عليه للمحصن وهو الرجم بالحجارة حتى الموت .

وبينما هم يباشرون أمر رسول الله ﷺ أحسَّ ماعز بألم الحجارة الشديد ففرَّ من مكانه كأنه رجع عن اعترافاته السابقة، فتبعه الصحابة دون أن يرجعوا لرسول الله فيستشيروه فيما استجدَّ، فلقيه رجل بلحي جمل فضربه به فمات، فلما رجعوا ذكروا ذلك للحبيب ﷺ فحزن وقال « **هلَّا تركْتُموهُ لعلَّهُ أن**

**يتوبَ فيتوبَ اللهُ عليهِ** » [1]

ثم عاتب النبي ﷺ هزالًا الذي أشار عليه بكشف أمره أمامه فقال له « **وَاللهِ يَا هَزَّالُ لَوْ كُنْتَ سَتَرْتَهُ بِثَوْبِكَ كَانَ خَيْرًا مِمَّا صَنَعْتَ بِهِ** » [2]

أما الغامديَّة فهي امرأة من قبيلة الأزد العريقة، وقد جاءت النبي ﷺ مقرَّة بالزنا، وموقفها من الندم لا يختلف عما أحسَّ به ماعز قبل أشهر، ففعل معها الحبيب كما فعل مع ماعز علَّها ترجع فتستغفر فيغفر الله لها، فحسمت المسألة بإعلانها حُبلى من الفاحشة، فأمرها النبي بأن ترجع حتى تضع حملها، ثم جاءته بعد أشهر بالرضيع على ذراعيها، فردَّها النبي ﷺ حتى يستغني الرضيع عنها، فعادت إليه بعد مدة تقارب الحولين والطفل يمسك بيدها وفي يده الأخرى كسرة خبز يأكلها، فدفع النبي ﷺ الطفل إلى رجل من الأنصار ثم أمر بإقامة الحد عليها.

والقصتان مكتظتان بالرحمة رغم انتهاء حياة الأسلمي

---

(1) سنن أبي داود ( ٤٤١٩ )

(2) موطأ مالك برواية يحيى الليثي ( ١٤٩٩ )

والغامدية بإقامة الحدِّ عليهما، وذلك مما ينفرد به النبي ﷺ وحده عن سائر الخلق، فهو وحده قادرٌ على تمرير الرَّاحة في ثنايا العقاب، والرَّحمة في شرايين العذاب، والفرحة في خلايا العتاب !!

**أولًا...رحمته بماعز.**

## ( ١ ) قبل إقامة الحدّ عليه...

لم يصدر من النبي ﷺ لفظ أو لحظ يُهين به ذلك الأسلمي المنتهك للحرمات !!

بل حاول مرارًا أن يمنع ماعزًا من الإقرار على نفسه بالزنا على أن يكتفي بستر نفسه مع صدق التوبة لرب العالمين... ففي أول الأمر حوَّل بصره عنه ليغادر من أمامه وكأنه لم يسمع منه شيئًا...ثم أمره صراحة لثلاث مرات «: **وَيْحَكَ، ارْجِعْ فَاسْتَغْفِرِ اللهَ وَتُبْ إِلَيْهِ** » دون أن يسأله : من أي شيء يُطهِّره؟، حتى لا يجرُّه للاعتراف الصريح بالزنا .

ولو كان رسول الله ﷺ أحد قضاة أي عصر لاستفرغ من ماعز الاعترافات التي تُدينه وتُحيله إلى الرجم، لكن رسول الله ﷺ يريد أن يرحمه بأن يمنعه من الاعتراف ما دام أنه قد

تاب إلى ربه ولم يعرف أحد من الناس بالأمر بعد...

ولما أصرَّ ماعز على الاعتراف بالزنا لم يتلقفه منه النبي سريعًا ليبدأ في تنفيذ الحدِّ، بل ظلَّ يقدِّم رحمته باحتمالات تمنع إقامة الحد عليه، كأن يكون مجنونًا أو مخمورًا وقت فعله للزنا أو وقت اعترافه على نفسه، أو بأنه ربما فعل شيئًا دون الزنا ظنًّا منه أنه الفاحشة الكاملة....

وما فعل رسول الله ﷺ كلَّ ذلك تحايلًا على شرع الله، إنما هو كمال شرع الله، فالستر أولى من الفضح، والتماس الأعذار أولى من التربُّص، وتقديم النُّصح أولى من تقديم الزَّجر، وتفعيل الرحمة أولى من تفعيل العذاب .

**( ٢ ) أثناء إقامة الحدّ عليه...**

معلوم أن الشَّفقة تتلاشى وقت إقامة الحدود حتى لا يُستهان بشرع الله بتخفيف العقاب عن المخطئ عطفًا عليه ورأفةً به .

والحالة التي بين أيدينا لرجل جاء بنفسه مختارًا عاقلًا مصمِّمًا على إقامة الحد على نفسه، ومن ثم فلا معنى لتخفيف

العقاب على مذنبٍ يريد أشدَّه...لكن الوضع تغيَّر حينما فرَّ ماعز أثناء رجمه بالحجارة، فظنَّ الصَّحابة أن الحكم بالرَّجم باقٍ دون رأفة ولا عبرة لفراره فقتلوه حدًّا .

فلما علم رسول الله بأمر فراره جاز له أن يستعمل رحمته بأن يعتبر فراره علامة واضحة على رجوعه عن إقراره السابق، أو هو على الأقل شبهة تدرأ الحد عنه...فقال « **هلَّا ترَكْتُموهُ لعلَّهُ أن يتوبَ فيتوبَ اللهُ عليهِ** »...ولو كان معهم وقتها لأمرهم بتركه درءًا للحدِّ بالشبهة رحمة به .

**( ٣ ) بعد إقامة الحدِّ عليه ..**

اختلف الصحابة في أمر ماعز بعد موته على فرقتين، فمنهم من يشكر له حرصه الشديد على تطهير نفسه وتوبته من خطيئته كأعظم توبة، ومنهم من يدَّعي هلاكه بالنَّظر إلى بشاعة الجرم الذي ارتكبه، وظلُّوا على اختلافهم ليومين أو ثلاثة .

فأراد النبي ﷺ أن يحسم الجدل في هذه المسألة وقد تخيَّر وقتًا يجتمع فيه عدد كبير من أصحابه رضوان الله عليهم... فقال بعدما سلَّم عليهم وجلس « **اسْتَغْفِرُوا لِمَاعِزِ بنِ مَالِكٍ،**

**قالَ: فَقالوا: غَفَرَ اللهُ لِمَاعِزِ بنِ مَالِكٍ، قالَ، فَقالَ رَسولُ الله صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: لقَدْ تَابَ تَوْبَةً لو قُسِمَتْ بيْنَ أُمَّةٍ لَوَسِعَتْهُمْ »**... بهذه الكلمات النورانية قد أكرم النبي ﷺ ماعزًا أيَّما كرم وأنصفه كل الإنصاف.

فتوبة ماعز لم تكن مجرد توبة عادية لرجل أذنب فندم فاستغفر الله وانتهى الأمر، إنما كانت توبات متتالية لذنب واحد، وكل توبة منها أصدق وأخلص من التي قبلها .

التوبة الأولى حينما أخبر هزالًا بالأمر، والثانية أمام أبي بكر، والثالثة أمام عمر، والرابعة حينما انطلق للنبي ﷺ فأعرض عنه بوجهه، والخامسة حينما توجَّه إلى حيث ينظر فأمره بالرجوع عنه، والسادسة حينما رجع إليه بعد خطوات، والثامنة مثلها، والتاسعة حينما اعترف صراحة للنبي ﷺ، والعاشرة حينما نفى عن نفسه ــ مع القوم ــ الجنون، والعاشرة حينما نفى زوال العقل بالخمر، والحادية عشرة حينما نفى توقفه عند مقدمات الزنا وإصراره على المباشرة الكاملة، والثانية عشرة حينما أُخذ إلى موضع الرجم باستسلام تام دون أدنى مقاومة...

لكن أهم توبة تابها ماعز الأسلمي هي تقديم نفسه كأول إنسان في التاريخ الإسلامي يُقام عليه حد الرجم، والأمر ليس بالهيِّن أبدًا على صحابي من صحابة رسول الله ﷺ أن يُذكر اسمه مقترنا بالزنا كلما ذُكر، وماعز يعلم أن حول رسول الله ﷺ صحابة يؤرِّخون بالتفصيل الدقيق جميع حركاته وسكناته وأقواله وأفعاله في كل موقف ولا شك أنهم سيذكرون فعله وقوله معه، فيتداول في البلدان والأزمان إلى قيام الساعة أن ماعز الأسلمي أول من حُكم عليه بالرجم زمن رسول الله ﷺ .

ورغم أن ماعزًا يُدرك ذلك جيدًا إلا أنه صمَّم على التوبة علانية أمام النبي ﷺ وعامة المسلمين، وأن يحتمل كل حجر يهلكه وكل عينٍ تحتقره...

ورغم أن الحبيب ﷺ لم يُرد له كل ذلك، وأنه كانت تكفيه توبته الأولى لأن يستر نفسه فيتوب الله عليه، ولذا فقد عاتب هزالًا فيه أشدَّ العتاب، إلا أنه ﷺ يُقدِّر لماعزٍ شجاعته وصدقه وحرصه على تطهير نفسه بأصعب طريقة، فقرر أن يُحسِّن صورته أمام أصحابه وأمام التاريخ فأمرهم بالاستغفار

له كما فعل ﷺ، ثم أخبرهم بأن توبة ماعز استثنائية تكفي أمَّة من الناس قد أحاطتهم الذنوب وغشيتهم الكروب...وليس ذلك إلا رحمة من الحبيب المصطفى ﷺ بالأسلمي التائب، وقد أخذ نصيبه من قول الله لحبيبه «**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ**» .

**ثانيًا...رحمته بالغامدية .**

## ( ١ ) قبل إقامة الحدِّ عليها...

لما حضرته ﷺ الغامدية بخطيئتها طالبة تطهير نفسها لم يُكلِّمها في الأمر، ولم يسألها عن خطيئتها مخافة أن تعترف صراحة، بل أمرها أن تنصرف من أمامه فورًا دون أن تنطق بكلمة واحدة، فقال «**وَيْحَكِ ارْجِعِي فَاسْتَغْفِرِي اللهَّ وَتُوبِي إِلَيْهِ**»، فلم يُرد لها مصير ماعزٍ ومعاناته ولتكتفي بالتوبة الصادقة مع الاستغفار، لكنها قطعت الطريق أمام محاولاته حينما أخبرته بأنها حُبلى سفاحًا، وأنها تريد الرجم كونها محصنة، ولو لم تخبره الغامدية بالحمل وغادرت وقت أن أمرها لكفاها ذلك رحمة منه ﷺ بها...

## ( ٢ ) وقت استحقاق الحدِّ عليها ...

بعدما أكدت اعترافها بالحمل كان للنبي ﷺ أن يأمر بإقامة الحدِّ عليها في وقتها، ويكون بذلك قد طبَّق حدَّ الله فيها، وخلَّص المجتمع من ولد السِّفاح، لكنه أمرها بأن ترجع حتى تضع حملها وهي مدة لا تقل عن ستة شهور، فربما ترجع عن إقرارها وتكتفي بالتوبة ولا تعود إليه بعد وضع الحمل، أو تذكر جنونًا أو خمرًا دفعتها للفاحشة فيدرأ عنها الحد بالشبهة... ثم أمر النبي وليَّها أمرًا عجيبًا، فقال له «**أحسن إليها، فإذا وضعت فأتني**» (1)

لأن المتوقع في هذه الحالة أن يُساء معاملتها وتُهان آدميتها كأبشع ما يكون بحجة أنها فضحت عائلتها ودنَّست شرفهم، فأراد نبي الرحمة ﷺ أن يضمن لها حياة طيِّبة توصف بالإحسان رغم أنها ارتكبت ذنبًا من أكبر الكبائر...وهي رحمة عظيمة لم تتوقعها الغامدية ولا وليّها !!

ورغم مرور الشهور إلا أنها لم ترجع عن إقرارها، فجاءته بالرضيع بعد الوضع، فأمرها النبي مرة أخرى بأن ترجع حتى يستغني الطفل عنها بالطعام والمشي مع تكرار الأمر

(1) صحيح مسلم ( ١٦٩٦ )

للوليّ بمداومة الإحسان إليها، وهي مدة تقارب الحولين .

وقد تجد الغامدية ما يدرأ عنها الحدّ، أو تفرّ من أمامه فتتوب فيتوب الله عليها كما أراد لماعز...فلما جاءته بعد استغناء الطفل عنها كان ضروريًّا أن يُقيم الحد عليها، ولو تخلَّفت الغامدية لأي سبب كان لما بعث إليها النبي ﷺ يطلبها لرجمها أو حتى لسؤالها، وما أخَّرها كل هذه المدة إلا رحمة منه بها .

## ( ٣ ) بعد إقامة الحدِّ عليها...

لما ماتت الغامدية رجمًا بالحجارة ـ كما اختارت ـ أراد النبي ﷺ أن يكرمها بالصلاة عليها، فقال له عمر« **تُصَلِّي عَلَيْهَا يا نَبِيَّ الله وَقَدْ زَنَتْ؟ فَقالَ: لقَدْ تابَتْ تَوْبَةً لو قُسِمَتْ بيْنَ سَبْعِينَ مِن أَهْلِ المَدِينَةِ لَوَسِعَتْهُمْ، وَهلْ وَجَدْتَ تَوْبَةً أَفْضَلَ مِن أَنْ جَادَتْ بنَفْسِهَا للهِ تَعَالَى؟**» (1)

والله لقد أنصفها ورفع شأنها بين المسلمين أجمعين وبين

(1) صحيح مسلم ( ١٦٩٦ )

قومها خاصة...وما كذب رسول الله ﷺ ولا جامل حينما ذكر أن توبتها تكفي سبعين من أهل المدينة، ومعلوم في لغة العرب أن ذكر العدد الكبير كالسبعين يُقصد به الكثرة لا الحصر، مما يعني أن توبتها تكفي عددًا كبيرًا جدًا من أهل المدينة ولو جاوزوا السبعين .

وإنما ذكر الفصيح المليح ﷺ هذا العدد الهائل ليوازي ما حصل منها من توبات هائلات، إن شئت قل أنها تابت في كل يوم من شهور حملها التسعة توبة، ثم في كل يوم من العامين الخاصَّين بالرضاعة توبة، فكم بكت، وكم تضرَّعت ، وكم رجت من خالقها أن يرحمها ؟؟...

إنها مدّة كبيرة نتجت عنها توبات كثيرة جدًا، فاستحقت أن يصرِّح النبي ﷺ بكثرة من تكفيهم توبتها لو قسمت بينهم . ثم علَّل للجميع سبب إكرامه لها أنها لَمَّا أخطأت لم تكابر ولم تواري ولم تستحسن طريق الرذيلة، إنما جاءته أمام الجميع معلنة ندمها وتوبتها وعزمها المتكرر على تحمل العقاب العنيف، فلم تجد أفضل من نفسها لتجود بها لله رب العالمين .

وهي تدرك أن التاريخ سيسجلها كأول امرأة يقام عليها حد الزنا، وقد يُعرِّض ذلك اسمها وسمعتها للذَّم والتحقير متى ذُكر الزنا وقبحه إلى يوم القيامة...

ولا شك أن صلاته ﷺ عليها ودفاعه الشديد عنها ـ رغم ما كان منها ـ رحمة عظيمة بها وبسمعتها أمد الدَّهر، وقد أعطاها حظَّها الكامل من خطاب ربه له «**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ**» .

**ثالثًا...رحمته بالمسلمين .**

**( ١ ) قبل إقامة الحدود ..**

فقد علَّمهم النبي ﷺ درسًا عظيمًا ينفعهم في دينهم ودنياهم وأخراهم، وهو أن ستر أهل المعاصي أفضل عند الله تعالى من فضحهم، وأن الأولى من رفع أمرهم للحاكم نصحهم برفع أمرهم لله رب العالمين وليتوبوا إلى الله توبة نصوحا...

فقد عاتب النبي ﷺ هزالًا الأسلمي حينما أشار على

ماعز بالذهاب إلى النبي ﷺ « **وَاللهِ يَا هَزَّالُ لَوْ كُنْتَ سَتَرْتَهُ بِثَوْبِكَ كَانَ خَيْرًا مِمَّا صَنَعْتَ بِهِ** »...ففهم المسلمون أن الستر خيرٌ للعاصي وللشاهد من التشهير، كما أن الستر يعود بالنفع على فاعله في الدارين «**من ستر مسلماً ستره الله في الدنيا والآخرة** »[1] ... فيظهر أن الحبيب ﷺ قد وجَّههم إلى ما فيه مصلحتهم رحمة منه بهم .

## ( ٢ ) وقت استحقاق الحدود...

ففي ذات ليلة رجمه لماعز أراد الحبيب ﷺ أن يحميهم من أحاديث داخلية ــ طبيعية ــ قد تجرُّ على المجتمع بأكمله الويلات ذلك لأنها أول حادثة يُرجم فيها أحد في الإسلام، فربما تأخذهم الشفقة بماعز كونه أعلن توبته ومن ثم لم تكن هناك حاجة لأن يأمر النبي ﷺ برجمه بالحجارة، بل كان يكفي زجره مع أخذ عهدٍ عليه بعدم العود إلى مثلها أبدًا... فنبَّههم النبي ﷺ إلى أمر في غاية الخطورة قد لا يخطر على

(1) حديث صحيح رواه مسلم عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ . وفي الصحيحين من حديث ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا .

باهم، فقال «... **أَوَ كُلَّمَا انْطَلَقْنَا غُزَاةً فِي سَبِيلِ اللهِ تَخَلَّفَ رَجُلٌ فِي عِيَالِنَا لَهُ نَبِيبٌ كَنَبِيبِ التَّيْسِ! عَلَيَّ أَنْ لَا أُوتَى بِرَجُلٍ فَعَلَ ذَلِكَ إِلَّا نَكَّلْتُ بِهِ** »[1] ... أراد النبي ﷺ بكلماته تلك أن يمنع أي تسلل شيطاني لقلوبهم من باب الرأفة على مرتكبي الكبائر الموجبة للحدود بحجة توبتهم، ومن ثم فلا يستحسنون حكمه ﷺ بشرع الله المنزل من فوق سبع سماوات، فيكون ذلك سببًا لغضب الله عليهم .

فكان من رحمته بهم أن يبين لهم أن توبة مرتكب الكبيرة الموجبة للحدِّ لا تمنع من إقامة الحد عليه ما دام أنه قد اعترف على نفسه وأصرَّ على اعترافه أو قد شهد على خطيئته العدد الكافي لإقامة الحدّ، لأن الرأفة بهؤلاء تفكِّك المجتمع وتسهِّل انتهاك حرماته، فكلما أراد أحد ارتكاب جريمة استعمل ذريعة التوبة المانعة من إقامة الحدِّ عليه، ومن ثم يضيع الأمان بين الناس ويضيع معه شرع الله الحكيم .

(1) صحيح مسلم ( ١٦٩٤ )

لكن متى علم هؤلاء المتجرؤون على الحرمات أن المجتمع لن تأخذه بهم رأفة في دين الله إن أساؤوا كان ذلك حاجزًا بينهم وبين حرمات المسلمين .

ولا تعارض بين طلب النبي ستر العصاة في النقطة الأولى وعدم الرأفة بهم في هذه النقطة...فالستر أولى قبل وصول الأمر للحاكم، فإذا وصل الأمر للحاكم واعترف الجاني على نفسه أو شهد عليه الشهود العدول بارتكاب جريمته لا يجوز للحاكم أو كائنًا من كان أن يمنع إقامة الحدّ ولو بحجة التوبة الصادقة، وحينئذٍ تكون الرأفة بالعاصي معصية .

ويدل على ذلك حديث المرأة المخزومية التي اجتمعت الأدلة أمام رسول الله ﷺ على سرقتها، فجاء أسامة بن زيد ليشفع لها أمام النبي ﷺ لقربه منه وحبه إياه، فغضب رسول الله ﷺ غضبًا شديدًا وقال «... **أَتَشْفَعُ فِي حَدٍّ مِن حُدُودِ اللهَّ، ثُمَّ قَامَ فَاخْتَطَبَ، ثُمَّ قالَ: إنَّما أَهْلَكَ الَّذِينَ قَبْلَكُمْ، أنَّهُمْ كَانُوا إذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ، وإذَا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عليه الحَدَّ، وايْمُ اللهَّ لو أنَّ فَاطِمَةَ بنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ**

**يَدَهَا.**»[1] ...فيكون إقامة الحد على مستحقه سبيلًا لأمان المجتمع...ويكون توضيح النبي ﷺ لهذه النقطة رحمة للمجتمع من عدم استحسان حكم الله ورسوله...فيدرأ عنهم العذاب

**( ٣ ) بعد إقامة الحدود...**

بادر الحبيب ﷺ لحماية المجتمع الإسلامي من الخوض في شأن إخوانهم وأخواتهم الذين كُتب عليهم الحدُّ، وألا يستحقروهم لمعصية وقعوا فيها ثم تابوا عنها وقد أخذوا جزاءهم كاملًا .

ولأنه أعلم منهم بحال من يخوضون فيهم ـ كماعز والغامدية ـ فقد منعهم من التفوُّه عليهم بكلمات أو تلميحات لا تناسب مكانتهم عند ربهم، فأظهر لهم مكانة ماعز عند ربه وأنه يتنعَّم في أنهار الجنة، وأن مكانة الغامدية تؤهلها لأن تكفى توبتها ذنوبهم لو قسمت فيهم...

فكان البيان المحمدي لحالة من أقيم عليهم الحدود

(1) صحيح البخاري ( ٣٤٧٥ )

وسيلة لرحمة المجتمع من اقتراف ذنوب بحق من أمرهم بيد الله عز وجل .

إن هاتين الحادثتين الشهيرتين رغم ما فيهما من شدَّة وألم وموت، إلا أن الجميع قد خرج منهما منتصرًا، المجتمَعُ مجتمِعًا على الخير، والمرجوم مرحومًا من الشر، وما ذلك إلا برحمة رسول الله ﷺ...

ولولاه ما كان لماعزٍ والغامدية أن يُعرَّفا في العالمين إلا بالخطيئة والعذاب الأليم، وما كان لأحد أن يستغفر لهما أو يدافع عن حقهما في النعيم، فقد أثبت لهما التفوق التام في تخطي كبيرة الزنا، وأنهما يتمتعان عند خالقهما بالسعادة والهنا.

هنيئًا لماعز والغامديَّة برسول الله ﷺ، فبدلًا من أن يقول الناس...أهلك الله ماعزًا والغامدية، فقد سمحت لنا رحمته الكاملة بهما أن نقول مطمئنين...غفر الله لسيدنا ماعزٍ رضى الله عنه وأرضاه، وغفر الله لسيدتنا الغامدية رضي الله عنها وأرضاها.

# شيء من حكمته ﷺ

## العقبة

سألت عائشة ـ رضي الله عنها ـ رسول الله ـ ﷺ ـ قائلة :
« هلْ أتَى عَلَيْكَ يَوْمٌ كانَ أشَدَّ مِن يَوم أُحُدٍ؟ قالَ: لقَدْ لَقِيتُ مِن قَوْمِكِ ما لَقِيتُ، وكانَ أشَدَّ ما لَقِيتُ منهمْ يَومَ العَقَبَةِ، إذْ عَرَضْتُ نَفْسِي علَى ابْنِ عبدِ يالِيلَ بنِ عبدِ كُلالٍ، فَلَمْ يُجِبْنِي إلى ما أرَدْتُ، فانْطَلَقْتُ وأنا مَهْمُومٌ علَى وجْهِي، فَلَمْ أسْتَفِقْ إلَّا وأنا بقَرْنِ الثَّعالِبِ، فَرَفَعْتُ رَأْسِي، فإذا أنا بسَحابَةٍ قدْ أظَلَّتْنِي، فَنَظَرْتُ فإذا فيها جِبْرِيلُ، فَنادانِي فقالَ: إنَّ اللَّهَ قدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ، وما رَدُّوا عَلَيْكَ، وقدْ بَعَثَ إلَيْكَ مَلَكَ الجِبالِ لِتَأْمُرَهُ بما شِئْتَ فيهم، فَنادانِي مَلَكُ الجِبالِ فَسَلَّمَ عَلَيَّ، ثُمَّ قالَ: يا مُحَمَّدُ، فقالَ ذلكَ فِيما شِئْتَ، إنْ شِئْتَ أنْ أُطْبِقَ عليهمُ الأخْشَبَيْنِ، فقالَ النَّبيُّ ﷺ: بَلْ أرْجُو أنْ يُخْرِجَ اللَّهُ مِن أصْلابِهِمْ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ وحْدَهُ لا يُشْرِكُ به شيئًا »[1] .

أدرك المسلمون يوم أحد، وشاهدوا ما حدث للنبي ﷺ يومئذ، ومن لم ير ذلك بعينيه قد سمع ما يكفيه واستنتج من الآثار ما لم يُحك له، فظنت أم المؤمنين رضي الله عنها ــ كما

(1) صحيح البخاري ( ٣٢٣١ )

ظن المسلمون ــ أنه الأشد على رسول الله...

وقد كان اليوم شديد القسوة على الحبيب ﷺ، فقد كُسرت رباعيته، وجُرحت شفَّته السفلى، وشُجَّت وجنته فدخلت حلقتان من حلق المغفر وجنته الشريفة، ووقع في حفرة من حفر المشركين، وانهزم جيشه على حافَّة النصر الثمين، وفقد من خيرة جنده وصحبه السبعين، ومُثِّل بجسد عمِّه حمزة بما لم يكن في العالمين..

وعاد رسول الله ﷺ إلى المدينة حزين النفس جريح الوجه منقوص الصحب، فعلق في الأذهان ذلك المشهد الصعب، حتى أصبح ـ لهم ـ مقياسًا عامًا تقاس عليه المشاهد المؤلمة لتحديد درجة قساوتها، فاستعملته السيدة عائشة في موقفنا هذا، ليفاجئها الحبيب ﷺ بما يُبطل المقياس لوجود ما هو أعلى منه شدة وقسوة...!!

والحقيقة أن يوم أُحد هو الأصعب على رسول الله في العصر المدني، غير أن العصر المكي مليء بالأيام العصيبة التي كوَّنت بتفاصيلها ومعاناتها وآلامها ثلاثة عشر عامًا، لكن يوم العقبة كان هو الأشد والأصعب على رسول الله ﷺ .

لم يكن يوم العقبة مجرد يوم بدأ صباحًا وانتهى في المساء ككل الأيام، ولم يكن مجرد عرضٍ للإيمان على قومٍ فقوبل بالرفض التام، أو مجرد تطاول سافر من أولئك الرافضين على خير الأنام، أو حتى مجرد رحلة طويلة خُذل في نهايتها من البشر السقام...إنما كان اختبارًا قويًّا وابتلاءً عظيمًا يفشل فيه جميع الخلق ويتخطاه الحبيب ﷺ وحده بفضل الله عليه وعلى الخلق...اختبارٌ استُفتح قبل العقبة بأيام، بأحداث تصاعدت تدريجيًّا حتى وصل رسول الله ﷺ إلى ذلك اليوم ليستنشق الأمل فازداد عليه الألم !!

بدأت الآلام بموت أبي طالب، العم والأب والسند، وزادت بكونه على دين آبائه وأجداده، واشتدت بمنع النبي من الاستغفار له من بعد ما تبين له أنه من أصحاب الجحيم...فانفطر القلب النبوي الرحيم على لوعة الفراق وتحقُّق العذاب الأليم....

وقبل أن يُشفى من حزنه وألمه فارقته زوجه سيدة نساء العالمين بعد ثلاثة أيام، وقد كانت السيدة خديجة حبيبته الأولى، وأول من آمن به من الثقلين، وأكثر من رعاه وطمأنه

وأخذ بيده، فكانت أفضل زوجة وأكمل امرأة عرفتها الإنسانية لعظيم إسهامها، فاستحقت لذلك أرقى وأوفى ما يكون لزوجة في قلب زوجها، فاشتعل الحزن إلى أحزان، وانتفض الألم إلى آلام ...

وتحولت مكة بأهلها في عين رسول الله إلى دار جافية، لم تعد تحتمل محاولاته بعد وفاة حاميه وناصرته، فانهالت منهم المضايقات والافتراءات أضعاف ما كان، كأنما نظروه ضعيفًا هشًّا قد انكسرت شوكته بالأحزان...ورغم ذلك يحتمل رسول الله ﷺ ولا يشتكي !!

وما كان ضعيفًا ولا هشًّا كما ظنوا، إنما كان ينظر إلى النتائج ويتعامل وفق استطلاعاتها المحتَّمة، فما غاية الاحتمال إن لم يتبعه مصلحة ؟.

ما غاية الحلم إن لم يكن عاقبته الرحمة؟..

ومع ذلك لن يتخلى عن حلمه ولن يودِّع صبره الجميل...

لقد بدا وكأنه ضعيفٌ هشٌّ ــ في أعينهم ــ حينما استقر له الأمر بأن القوم لا يُرجى منهم خير على الأقل في هذه الفترة...

وهي نتيجة بائسةٌ تُضاعف الحزن والمرارة في قلب من أُرسل للعالمين رحمة، وكيف يهنأ والقوم في نهاية الطريق المؤدي للهلاك وهم لا يُدركون ؟!...كيف يتغافل مصيرهم الأسود وقلبه مغموس بالرحمة الكاملة ؟!...

كانوا يظنون أن سبب ظهوره بتلك الحالة ــ الجديدة ــ فرط خشيته منهم بعد فقد أكبر مناصرَين له...لم يكن بينهم رشيد يدرك أنه مهمومٌ وموجوعٌ لفرط خشيته عليهم من عذاب الله !!....

نعم هو حزين ومتألم لفقد عمه وزوجته، لكن ليس لحاجته لناصرٍ أو معين من البشر وقد تكفَّل الله بحفظه ورعايته، إنما لبقاء أُلفة واستطالة عِشرة واستدامة رؤية، فالأحبة يصعب جدًا فراقهم، خصوصًا إذا كان المفارِق أبا طالب وخديجة والمفارَق رسول الله ﷺ...ثم انتفضت الأحزان والأوجاع بإعراض أهل مكة أشد إعراض عن التذكِرة، ﴿ **كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ ۞ فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ** ﴾[1] !! .

(1) سورة المدثر ( ٥٠ ـ ٥١ )

لا شك أنه حزين لأقصى درجات الحزن، ومتألم لأعنف طبقات الألم ..

لكنه لم ينس قول ورقة بن نوفل له حينما ابتدأه الوحي قبل عشر سنوات...

فعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ( **أَوَّلُ ما بُدِئَ به رَسولُ اللَّهِ ﷺ مِنَ الوَحْيِ الرُّؤْيَا الصَّادِقَةُ في النَّوْمِ، فَكانَ لا يَرَى رُؤْيَا إلَّا جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ، فَكانَ يَأْتي حِرَاءً فَيَتَحَنَّثُ فِيهِ، وهو التَّعَبُّدُ، اللَّيَالِيَ ذَوَاتِ العَدَدِ، ويَتَزَوَّدُ لذلكَ، ثُمَّ يَرْجِعُ إلى خَدِيجَةَ فَتُزَوِّدُهُ لِمِثْلِهَا، حتَّى فَجِئَهُ الحَقُّ وهو في غَارِ حِرَاءٍ، فَجَاءَهُ المَلَكُ فِيهِ، فَقالَ: اقْرَأْ، فَقالَ له النبيُّ ﷺ: فَقُلتُ: ما أنَا بقَارِئٍ، فأخَذَنِي فَغَطَّنِي حتَّى بَلَغَ مِنِّي الجَهْدُ، ثُمَّ أرْسَلَنِي فقالَ: اقْرَأْ، فَقُلتُ: ما أنَا بقَارِئٍ، فأخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّانِيَةَ حتَّى بَلَغَ مِنِّي الجَهْدُ، ثُمَّ أرْسَلَنِي فَقالَ: اقْرَأْ، فَقُلتُ: ما أنَا بقَارِئٍ، فأخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّالِثَةَ حتَّى بَلَغَ مِنِّي الجَهْدُ، ثُمَّ أرْسَلَنِي فقالَ: {اقْرَأْ باسْمِ رَبِّكَ الذي خَلَقَ} [العلق: 1]- حتَّى بَلَغَ - {عَلَّمَ الإنْسَانَ ما لَمْ يَعْلَمْ} [العلق: 5] فَرَجَعَ بهَا تَرْجُفُ بَوَادِرُهُ، حتَّى دَخَلَ علَى خَدِيجَةَ، فَقالَ: زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي فَزَمَّلُوهُ حتَّى ذَهَبَ عنْه الرَّوْعُ،**

فَقالَ: يا خَدِيجَةُ، ما لِي وأَخْبَرَهَا الخَبَرَ، وقالَ: قدْ خَشِيتُ علَى نَفْسِي فَقالَتْ له: كَلَّا، أبْشِرْ، فَوَاللَّهِ لا يُخْزِيكَ اللَّهُ أبَدًا، إنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وتَصْدُقُ الحَدِيثَ، وتَحْمِلُ الكَلَّ، وتَقْرِي الضَّيْفَ، وتُعِينُ علَى نَوَائِبِ الحَقِّ، ثُمَّ انْطَلَقَتْ به خَدِيجَةُ حتَّى أتَتْ به ورَقَةَ بنَ نَوْفَلِ بنِ أسَدِ بنِ عبدِ العُزَّى بنِ قُصَيٍّ وهو ابنُ عَمِّ خَدِيجَةَ أخُو أبِيهَا، وكانَ امْرَأً تَنَصَّرَ في الجَاهِلِيَّةِ، وكانَ يَكْتُبُ الكِتَابَ العَرَبِيَّ، فَيَكْتُبُ بالعَرَبِيَّةِ مِنَ الإنْجِيلِ ما شَاءَ اللَّهُ أنْ يَكْتُبَ، وكانَ شيخًا كَبِيرًا قدْ عَمِيَ، فَقالَتْ له خَدِيجَةُ: أيِ ابْنَ عَمِّ، اسْمَعْ مِنَ ابْنِ أخِيكَ، فَقالَ ورَقَةُ: ابْنَ أخِي مَاذَا تَرَى؟ فأخْبَرَهُ النبيُّ ﷺ ما رَأَى، فَقالَ ورَقَةُ: هذا النَّامُوسُ الذي أُنْزِلَ علَى مُوسَى، يا لَيْتَنِي فِيهَا جَذَعًا، أكُونُ حَيًّا حِينَ يُخْرِجُكَ قَوْمُكَ. فَقالَ رَسولُ اللَّهِ ﷺ: أوَمُخْرِجِيَّ هُمْ فَقالَ ورَقَةُ: نَعَمْ، لَمْ يَأْتِ رَجُلٌ قَطُّ بمِثْلِ ما جِئْتَ به إلَّا عُودِيَ، وإنْ يُدْرِكْنِي يَوْمُكَ أنْصُرْكَ نَصْرًا مُؤَزَّرًا، ثُمَّ لَمْ يَنْشَبْ ورَقَةُ أنْ تُوُفِّيَ، وفَتَرَ الوَحْيُ فَتْرَةً حتَّى حَزِنَ النبيُّ ﷺ، فِيما بَلَغَنَا، حُزْنًا غَدَا منه مِرَارًا كَيْ يَتَرَدَّى مِن رُؤُوسِ شَوَاهِقِ الجِبَالِ، فَكُلَّما أوْفَى بذِرْوَةِ جَبَلٍ لِكَيْ يُلْقِيَ منه نَفْسَهُ تَبَدَّى له جِبْرِيلُ، فَقالَ: يا مُحَمَّدُ، إنَّكَ رَسولُ اللَّهِ حَقًّا، فَيَسْكُنُ لِذلكَ جَأْشُهُ، وتَقِرُّ

**نَفْسُهُ، فَيَرْجِعُ، فَإِذَا طَالَتْ عليه فَتْرَةُ الوَحْيِ غَدَا لِمِثْلِ ذلكَ، فَإِذَا أَوْفَى بِذِرْوَةِ جَبَلٍ تَبَدَّى له جِبْرِيلُ فَقالَ لَه مِثْلَ ذلكَ. )** [1].

كانت كلمات ورقة بن نوفل نُصب عيني رسول الله ﷺ مذ قيلت له، إلا أنه لم يشعر بقربها أكثر من هذه الأيام وتحديدًا بعد وفاة أبي طالب وخديجة.

أدرك أن قريشًا لن ترقب فيه قرابة أو جوارًا، وأن قضية إخراجه من مكة مسألة وقت لا أكثر...ففكر أن يسبقهم بالخروج قبل الإخراج، أن يلجأ بإرادته إلى من شاء قبل أن يُلجئوه إلى ما قد لا يرضيه.

أراد الحبيب أرضًا تحضنه، وقومًا ينصرونه...أراد قلوبًا تشعر، ونفوسًا تطمئن، وأرواحًا تستلذ، وعقولًا تستقبل، وآذانًا تُصغي، وأعينًا تُبصر.

أراد حالة عامة تستجيب لنداء رحمته، فتستعين به على النجاة من الجحيم، ويستعين بها على قبول فراق أحب البلاد إلى الله وإلى قلبه الرحيم ..

(1) صحيح البخاري ( ٦٩٨٢ )

استقر الأمر لرسول الله ﷺ ورأى في الطائف فرصة جيدة لنشر دعوته إن قَبِل أهلها الإسلام...فخرج إليها صحبة زيد بن حارثة مشيًا على الأقدام، حتى لا يفطن أهل مكة لخروجه فيمنعوه من الإقدام .

والمسافة بين البلدين كبيرة جدا تصل إلى ستين ميلًا ــ بما يعادل مائة وعشرة كيلو مترات ــ خاضها رسول الله ﷺ على قدميه خطوة بخطوة، وكل خطوة في الصحراء القاحلة الحارة تأمَّل فيها النبي ﷺ أن يكون الاستقبال الطائفي على قدر الضيف والحدث والتعب والهدف...

تأمَّل السادةَ يُرحبون، والعوام يهلِّلون، والأطفال يفرحون...مرحبًا يا خير داع .

وبعد عناء مرير وصل رسول الله ﷺ الطائف شاهدًا ومبشِّرًا ونذيرًا وداعيًا إلى الله بإذنه وسراجًا منيرًا... واستفتح بدعوته سادة القوم، فعرض لابن عبد ياليل وأمثاله من بني ثقيف اسمه ونسبه ورسالته، فما كان منهم إلا سوء الرد وفُحش الاستقبال، وكان أبسط ما قالوه له « **اخرج من بلادنا** » ..

فأجابهم بأدب شديد « **إذا فعلتم ما فعلتم فاكتموا عنى** »[1]...

ومكث الحبيب ﷺ في الطائف عشرة أيام ما قابل فيها أحدًا إلا عرض عليه الإسلام، فاتفق الجميع على الرفض القبيح، وكأنهم تواصوا به بالقول الصريح !!، ثم اختلفوا في أساليبهم ـ القذرة ـ المعبرة عن ذلك الرفض بكل وسائل التجريح !!

ولما ضاق بهم الأمر أغروا سفهاءهم وأطفالهم يصيحون به، حتى اجتمع الناس وتراصُّوا صفين يسبُّونه ويضربونه بالحجارة أينما وقعت من جسده الشريف ، فضُرب وجهه وبطنه وقدماه، حتى سال الدم الطاهر منه وقد اختضب نعلاه، وكان زيد يفتديه بجسده حتى شُج أعلاه، ثم ما زالوا به كذلك حتى أخرجوه منها وألجأوه إلى حائط لعتبة وشيبة ابنى الربيع على بعد ثلاثة أميال من الطائف ثم تركوه أقصاه...ولما جلس الحبيب ﷺ تحت الشجرة والدَّم والهمُّ يقطران منه رفع يديه إلى مولاه ...

(1) السيرة النبوية لابن هشام ( ١ \ ٤١٩ )

**«اللهم إليك أشكو ضَعْف قُوَّتِي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين، وأنت ربي، إلى من تَكِلُني؟ إلى بعيد يَتَجَهَّمُنِي؟ أم إلى عدوٍّ ملكته أمري؟ إن لم يكن بك عليَّ غضب فلا أبالي، ولكن عافيتك هي أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بي غضبك، أو يحل عليَّ سَخَطُك، لك العُتْبَى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك»** (1)

« ولما رآه عتبة وشيبة تحركت له رحمهما، فدعوَا غلامًا لهما نصرانيًا، يقال له: عَدَّاس، وقالا له: خذ قطفًا من هذا العنب، فضعه في هذا الطبق، واذهب به إلى هذا الرجل. فلما وضعه بين يدي رسول الله ﷺ مد يده إليه قائلًا: «باسم الله» ثم أكل. فقال عداس: إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد، فقال له رسول الله ﷺ: «من أي البلاد أنت؟ وما دينك؟» قال: أنا نصراني، من أهل «نِينَوَى». فقال رسول الله ﷺ: «من قرية الرجل الصالح يونس بن مَتَّى». قال له: وما يدريك ما يونس

(1) السيرة النبوية لابن هشام ( ١ \ ٤٢٠ )

ابن متى؟ قال رسول الله ﷺ: **«ذاك أخي، كان نبيًا وأنا نبي»، فأكب عداس على رأس رسول الله ﷺ ويديه ورجليه يقبلها. فقال ابنا ربيعة أحدهما للآخر: أما غلامك فقد أفسده عليك. فلما جاء عداس، قالا له: ويحك ما هذا؟ قال: يا سيدى، ما في الأرض شيء خير من هذا الرجل، لقد أخبرني بأمر لا يعلمه إلا نبي، قالا له: ويحك يا عداس، لا يصرفنك عن دينك، فإن دينك خير من دينه»** [1].

وكأن الله أراد لرسوله ألا يخرج من الطائف إلا وقد آمن به أحد الناس...فكانت الرحمة الكاملة من نصيب النَّينويّ عدَّاس.

ثم قرر الحبيب ﷺ العودة إلى مكة وقد تجمَّعت عليه الأحزان الثقال...

أولها...الجفاء المكي الذي اضطره للبحث عن وطن بديل...

وثانيها...العنف الطائفي الذي رفض احتضانه دونما

(1) السيرة النبوية لابن هشام (١ \ ٤٢١)

دليل...

وثالثها...تناقل خبر ما حدث معه بالطائف لمكة وتبعات ذلك على استمرار دعوته هناك بلا تعطيل...

ورابعها...خلوّ مكة من أبي طالب وخديجة ينزع منها كل ما هو جميل...

أحزان عاتية تتسابق نحوه جعلته يسير في طريق عودته صامتًا مهمومًا على وجهه، ومن شدة الأمر عليه لم يكن يكترث لما هو حوله من العالم لمسافة طويلة جدًا تستغرق زمنًا طويلا سيرًا على الأقدام، حتى وصل إلى قرن المنازل التي هي أقرب لمكة من الطائف، حينها استفاق رسول الله ﷺ من أفكاره وأحزانه وانتبه للمكان الذي قد حلَّ به، ثم رفع رأسه لسحابة أظلته فإذ فيها جبريل ومعه ملَك الجبال

**«إن الله قد سمع قول قومك لك، وما ردوا عليك، وقد بعث الله إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم. فناداني ملك الجبال، فسلم عليَّ ثم قال: يا محمد، ذلك، فما شئت، إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين »...**

لا شك أن رسول الله ﷺ كان أحوج ما يكون إلى هذه الجرعة الربانية والنفحة الإلهية شديدة الوصال من أي وقت مضى...وما كان الله ليترك حبيبه تلاحقه الأحزان دونما نصر يجبره .

وكأن الله تعالى يخاطب نبيَّه « لا تحزن يا حبيبي... أراك وأسمعك ولا أخذلك أبدًا... وقد سمعت قولهم وردهم القبيح لك...ولقدرك العظيم عندي وكلت إليك أمرهم فافعل بهم ما شئت، وها هو ملك الجبال فأمره بأمرك ولن يناقشك الاختيار...فإن رفض شرار البشر أن يستجيبوا لطلبك فإن خيار الملائكة يستأمرون بأمرك عن حب وكرامة».

الأن يمكن للنبي ﷺ أن يستعرض مكانته عند ربه... إن شاء زُلزلت الأرض تحت أقدامهم فيرعبهم كأخفّ عقاب...وإن شاء سقط بعض الصخر جوار بيوتهم وأنديتهم فتفسد راحتهم...وإن شاء تخيَّر منهم أحقرهم فيهلكون بحجارة مسوّمة بأسمائهم...وإن شاء وقع عليهم أحد الجبلين فيشقى نصفهم ويتعظ الباقون... وإن شاء أُطبق عليهم الجبلين فلا يبقى منهم أحد على قيد الحياة جزاءً موفورا لما قدَّموه... كل الخيارات رهن كلمة من فمه الشريف، بل إن أشدها رهن

إشارة من يده أو إيماءة من رأسه فقط دون أن يتلفظ، فعندما قال له ملك الجبال « **إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين** » لو أومأ برأسه بعلامة الموافقة لأُطبقا عليهم في لحظتها ولهلكوا جميعًا أشد الهلاك...

ما أعظمها من كرامة لرسول الله ﷺ عند ربه...وما أرفعها من مكانة لعبدٍ لدى مولاه ...إنها منتهى القرب والمحبة والعناية...مقام عُلويّ لم يقترب منه بشريّ بما فيهم المرسَل والنبيّ...

فما خيَّر الله أحدًا قبله ــ من الأنبياء والمرسلين ــ بين تعذيب قومه وإمهالهم...وما خيَّر غيره في نوعية العذاب ودرجته إن شاء سواه... وقد أُذن له أن ينتقم بنفسه دون أن يستأذن، وهو ما لم يحدث مع غيره .

والأنبياء ــ غيره ــ في هذا الشأن على ثلاثة أضرب....

إما أن ينتهي عزمهم وحكمتهم عند درجة يطلبون فيها من الله أن يُنزل العذاب بأقوامهم مثلما فعل سيدنا نوح عليه السلام... « **وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا** » [ نوح : 26 ] ...

ومنهم من ينزع يده من أمر قومه ويفوِّض الأمر للخالق عز وجل فيهم كما فعل سيدنا عيسى عليه السلام... ﴿ **إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** ﴾ [ المائدة : 118 ]

ومنهم من يُخبره الله بعذاب قومه، ثم يأمره بالخروج من المكان هو ومن آمن معه حتى لا يصيبهم من العذاب ما يصيب الكافرين، مثلما حدث مع سيدنا لوط عليه السلام حينما جاءه الملائكة ﴿ **قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ ۖ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ ۖ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ ۚ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ** ﴾[ هود : 81 ] .

أما رسول الله ﷺ فإنه لم يطلب لهم العذاب، ولم يُخبَر به، إنما يُخيَّر في إيقاعه بهم من عدمه .

وسواء طلب الأنبياء إيقاع العذاب أم أُخبروا به فإنه دليل قاطع على انتهاء العلاقة بينهم وبين أقوامهم، وأن طاقة الحكمة بداخلهم قد نفدت، ولم يعد بمقدورهم محاولة تغيير فساد قلوب هؤلاء الأجلاف الأعداء، وأن الحلَّ الوحيد

أمامهم هو نفض أيديهم من مصائرهم السوداء .

وقد كان رسول الله ﷺ حكيمًا بدرجة تستغرق خيال أعقل العقلاء، وتتخطى حدود أوجه الوجهاء، وتتعدى قواعد أنبغ النَّبغاء...كان حكيمًا بصورة تجاوز فيها مقامات الحلم إلى البحث عن مخرج آمنٍ لهؤلاء الحمقى من عذاب الله الوشيك . وما كانت حكمته ﷺ مستنسخة من تجربة نبوية سابقة لأحد إخوانه من الأنبياء، ولم تكن معهودة قبله في الأزمان السالفة... إنما كانت نظرته الخاصة، وفكرته الأصلية، وبصيرته المحمدية. والفارق بين حكمة المتميزين من البشر وحكمة رسول الله ﷺ، أن حكمته تتقوّى بغذاء الرحمة الكاملة، وتستند بقول الله تعالى له «**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ**» .

وقد ظهر ذلك واضحًا في هذا الموقف بشكل يثير التعجب والإعجاب .

**أولا...التماس الأعذار...**

والمتأمل في دعاء الحبيب ﷺ «**اللهم إليك أشكو ضَعْف قُوَّتِي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين**» يلاحظ حرصه وخوفه على من ألجأوه إلى هنا بالشتم

والضرب والطرد من قريتهم...فيلتمس لهم ـ بحكمته الفائقة ـ الأعذار، طمعًا في تخفيف الأقدار ...فيعلن لخالقه بأنه الضعيف وليسوا هم الأقوياء، ولو كان قويًّا لقبلوا دعوته !!...

وأنه قليل الحيلة، ولو كان كثيرها لاستجابوا له !! وهوانه على أهل الطائف لجهلهم بقدره، ولو علموه لحملوه على رؤوسهم ولآمنوا به !!

لم يشتكِ الحبيب الناس إلى ربه رغم جرمهم ووقاحتهم الجليَّة، وإنما اشتكى أشياءً ادَّعاها فيه منعت الناس من الإيمان به، ثم استعاذ بالله من أن يُنزل به غضبه أو يحل عليه سخطه، وأن له العتبى حتى يرضى !!

ما أعظم هذا النبي الحكيم وقلبه الرحيم !!...

ما كان رسول الله ﷺ أبدًا ضعيف القوة، وهو أقوى البشر وأشجعهم، وكيف يكون ضعيفًا وهو المنصور من ربه بالرعب في قلوب الأعداء ؟!...

وما كان رسول الله ﷺ أبدًا قليل الحيلة، وهو أفصح

خلق الله لسانًا وبيانًا، وكيف يكون قليل الحيلة وقد أوتى من ربه جوامع الكلم ؟!...

لكنها الحكمة المعزَّزة بالرحمة العامة....تلك الرحمة التي تبسِّط المعقَّد، وتهوِّن الصعب، وتطبِّب الجرح، وتسهِّل الصَّفح، فيُظهر الحبيب ﷺ عدم مبالاته بما فعلوه به، وعدم غضبه من هوانه عليهم إلى هذا الحد ما دام أن الله تعالى غير غضبان عليه....

وكأنه يقول: «يا رب لا تعذبهم، أنا السبب في عدم إيمانهم، لذلك فلا ألومهم ولا أبالي بما فعلوه بي عن جهل، ما يهمني هو رضاك عني لا غضبك عليهم، فأرجوك لا تغضب عليهم» وتلك رحمة عظيمة من رسول الله ﷺ بهم .

**ثانيًا...حسن الاختيار...**

**جاءه الدعم من السماء، وما عليه سوى القبول..**

**«إن الله قد سمع قول قومك لك، وما ردوا عليك، وقد بعث الله إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم. فناداني ملك الجبال، فسلم عليَّ ثم قال: يا محمد، ذلك، فما شئت، إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين »...**

رغم أن الله منح نبيه الكريم الحق في اختيار مصير قومه، وأنه غير ملوم أو متّهم في كمال حكمته إن أذِن لملك الجبال أن يُطبق عليهم الأخشبين، وذلك لأن اقتراح العذاب نزل من الخالق عز وجل لا من لسانه أو حتى من وجدانه، إلا أنه كعادته يفعل ما يليق به لا ما يستحقه الطرف الآخر...

لم يفكر رسول الله ﷺ في الخيارات السماوية العادلة.

لم يفكر في حقوقه على المعتدين من البشر.

لم يفكر في استخدام الإذن الإلهي لردع من يجترئ على جنابه الشريف مستقبلًا...

لم يفكر في إطالة زمن حالة تفرُّده عن أقرانه من الأنبياء بمداولة الأمر مع الملكين الكريمين.

لم يفكر في اقتناص فرصة استئمار ملك الجبال بأمره فيأمره بما شاء ولو تفاخرًا بالحدث.

لم يفكر في تنقية الأرض من هؤلاء المفسدين.

لم يفكر في شيء مما يفكر فيه البشر...!!

إن مكونات هذا النبي العظيم غير مهيَّأة للثأر أو

القصاص لنفسه متى اعتُدي عليه، فقلبه يقطر رحمة، وروحه تشعُّ رحمة، ونفسه تتقلَّب رحمة، وعقله يستبصر رحمة...

لا يملك من الخيارات إلا أرحمها وأيسرها، وما كان له أبدًا أن يختار الهلاك لقومه، ومخطئٌ من يظنُّ في نبيّه غير ذلك، ومخطئٌ من يظنُّ أن الله حينما أرسل له ملك الجبال ليخيِّره لم يكن يريد ما أراده النبي، فلو أراد الله إهلاكهم لباشر ملك الجبال فيهم عمله، لكنه سبحانه وتعالى يعلم ما في نفس نبيِّه من الرحمة، وأن أوَّل من سيدافع عن هؤلاء المجرمين المتطاولين على الجناب النبويّ المعظَّم هو النبي المعظَّم ذاته، فينتفي عنهم العذاب كرامة من الله لنبيِّه ﷺ، ورحمة من النبي لقومه... إنما خيَّره الله فيهم ليرفع قدره، ويُعلي شأنه، ويُظهر قيمته، ويُسلِّي حاله، ويُطيِّب خاطره، ويُداوي أحزانه .

ولو أن الحكمة النبوية لها نهاية ـــ كسائر البشر ـــ ولم تكن ممتزجةً بالرحمة الكاملة، لكان مصير هؤلاء القوم متماشٍ مع مصائر الأمم السابقة أو أشدّ تنكيلا، فإذا كان الله قد استجاب لدعاء إخوانه من الأنبياء على أقوامهم فلن يردَّ دعوة حبيبه الأعظم في قومه...

لكن الحكمة النبوية لا حد لأكثرها، والرحمة تسري فيها سريان الدم في العروق الفتيَّة، فكان الرسول ﷺ لهم خير نصيب في البرية، وقد نالوا حظَّهم الكامل من رحمته العليَّة .

**ثالثًا...استبقاء الأمل .**

ردَّ النبي ﷺ على ملك الجبال بحكمة عظيمة...

« **بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئا** »...

وهي عبارة غاية الدِّقة والبلاغة، فقد وجَّه ملك الجبال إلى طريق يستغني فيه عن خدماته بالكلية...

إنه يرجو استبقاءهم وتناسلهم لا إطباق الجبال عليهم!!...

يرجو أن يمنَّ الله على نسلهم بعبادته وحده لا شريك له، حتى وإن ظلَّ هؤلاء الآباء على الشرك !!...

يرجو أن تبقى كل أمَّة دعوته في أمانٍ لا ينقطع دون أن يُفزعها شيء، رغم استحقاق بعضها لأشدَّ العذاب !!...فلا حاجة له أبدًا بخيارات تُنصفه عليهم، لكنها تُخيِّب رجاءه فيهم...

ومن ثمَّ فلا حاجة له بملك الجبال

لو أنه ﷺ حكَّم فيهم بشرًا ـ سواه ـ لكان الخلاص من أمثال هؤلاء هو الحكم الوحيد...ولو حكَّم فيهم ملَكًا لكان الهلاك هو الحكم الرشيد .

إن ما تأصَّل لدى الخلق من الحكمة لا يوصلهم إلى نتيجة غير الفتك بهؤلاء المتطاولين على الجناب النبوي كعقاب طبيعي .

لكن رسول الله ﷺ لا يستعمل حكمة الخلق في الخلق، لا يستعمل المقدمات البديهية للوصول إلى النتائج الطبيعية، لا يستعمل قانون رد الفعل للحكم على الأفعال...إنما يستعمل طريقته الخاصة في تجاوز العقبات مع سلامة العواقب، يستعمل حكمة الكمال التي تنصفه في جميع المناقب .

فكل حكمة تخضع للمنطق، أما حكمته فتخضع للرحمة، ولو كانت حكمته مسلوبة الرحمة لسُلب هؤلاء المجرمين الحياة، وما كانت لهم أبدًا نجاة .

وحده رسول الله ﷺ جُعلت له الإرادة في تسيير أحوال

الخلق، وحده مستأمنٌ على مصالح الدين ومصالحهم، إن شاء عاقب أو استغفر، وإن شاء راقب أو استنفر .

وما منحه الله هذه السلطة ـ الفريدة ـ إلا بعد أن هيَّأه لها، ومكَّنه من تحمُّلها، وقدَّره على ترتيب أولوياتها، فكان الخطاب الإلهي لحبيبه ﷺ ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ**﴾ .

**واختلف العلماء في تحديد القوم الذين خُيِّر فيهم النبي ﷺ، أهم أهل الطائف لأنه راجعٌ من عندهم وهم آخر من آذى النبي ﷺ ؟؟...**

أم أنهم أهل مكة لأن الأخشبين جبلين بها وهما أبا قبيس وقعيقعان، ولأنهم هم الذين اضطروه للذهاب إلى الطائف بسبب تضييقهم عليه ؟؟...

وسواء كان هؤلاء أم هؤلاء أم هما معًا فإن النتيجة واحدة...

رحمة النبي ﷺ بهم وبمن يخرجون من أصلابهم، وقد نصر الله نبيه في رجائه الرحيم، ففُتحت مكة في العام الثامن من الهجرة في العشرين من رمضان، ودخل أهلها في دين الله

أفواجًا يعبدونه لا يُشركون به شيئًا...

ثم تبعتها الطائف في نفس العام بعد ثلاثة وعشرين يومًا بالتمام في الثالث عشر من شوال....

وقد أخرج الله من أصلاب من هلك من القوم قبل الإسلام من يُفرح قلب النبي بحسن إسلامه، ومنهم من حمل لواء الدعوة في سبيل الله كأفضل ما يكون... فمن صُلب الوليد بن المغيرة خرج خالد، ومن صلب أبي جهل خرج عكرمة، ومن صلب العاص بن وائل خرج عمرو، ومن صلب عتبة بن ربيعة خرج أبو حذيفة...

ولما انتقل الحبيب ﷺ إلى الرفيق الأعلى، ارتدّت جزيرة العرب بأكملها عن الإسلام، ولم يثبت على الإيمان إلا ثلاث بلاد، المدينة ومكة والطائف، فانتشر منهم الإسلام إلى شتّى بقاع الأرض، بعدما استعاد أهلها الجزيرة العربية مرة أخرى بالطول والعرض.

فيظهر واضحًا أن قول الله تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ . قد تجسَّد حرفيًّا في هذه الحادثة بحاضرها ومستقبلها...

فلولا حكمة النبي ﷺ المقوَّاة بالرحمة لما كان للقوم نجاة من عذاب الله المحتَّم...ولو أُطبق عليهم الأخشبين لما كانت لهم أصلابٌ يخرج منها من يُدافع عن دين الله المحكَّم... وما كانت هناك مكة يدخل أهلها في دين الله أفواجًا يوم الفتح المكرَّم...أو طائفٌ يشرق فيها الإسلام والمسلمين يوم حنين المغنَّم...وما كانت هناك أرض تشارك المدينة الثبات على الإيمان بعد وفاة النبي المعظَّم .

# صلح الحديبية

عن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم...

« خَرَجَ رَسولُ اللَّهِ ﷺ زَمَنَ الحُدَيْبِيَةِ، حتَّى إذَا كَانُوا ببَعْضِ الطَّرِيقِ قالَ النَّبيُّ ﷺ: إنَّ خَالِدَ بنَ الوَلِيدِ بالغَمِيمِ في خَيْلٍ لِقُرَيْشٍ طَلِيعَةٌ، فَخُذُوا ذَاتَ اليَمِينِ. فَوَاللَّهِ ما شَعَرَ بهِمْ خَالِدٌ حتَّى إذَا هُمْ بقَتَرَةِ الجَيْشِ، فَانْطَلَقَ يَرْكُضُ نَذِيرًا لِقُرَيْشٍ، وسَارَ النَّبيُّ ﷺ حتَّى إذَا كانَ بالثَّنِيَّةِ الَّتي يُهْبَطُ عليهم منها بَرَكَتْ به رَاحِلَتُهُ، فَقالَ النَّاسُ: حَلْ حَلْ، فأَلَحَّتْ، فَقالوا: خَلَأَتِ القَصْوَاءُ، خَلَأَتِ القَصْوَاءُ، فَقالَ النَّبيُّ ﷺ: ما خَلَأَتِ القَصْوَاءُ، وما ذَاكَ لَهَا بخُلُقٍ، ولَكِنْ حَبَسَهَا حَابِسُ الفِيلِ، ثُمَّ قالَ: والذي نَفْسِي بيَدِهِ، لا يَسْأَلُونِي خُطَّةً يُعَظِّمُونَ فِيهَا حُرُمَاتِ اللَّهِ إلَّا أعْطَيْتُهُمْ إيَّاهَا، ثُمَّ زَجَرَهَا فَوَثَبَتْ، قالَ: فَعَدَلَ عنْهمْ حتَّى نَزَلَ بأَقْصَى الحُدَيْبِيَةِ علَى ثَمَدٍ قَلِيلِ المَاءِ، يَتَبَرَّضُهُ النَّاسُ تَبَرُّضًا، فَلَمْ يُلَبِّثْهُ النَّاسُ حتَّى نَزَحُوهُ، وشُكِيَ إلى رَسولِ اللَّهِ ﷺ العَطَشُ، فَانْتَزَعَ سَهْمًا مِن كِنَانَتِهِ، ثُمَّ أمَرَهُمْ أنْ يَجْعَلُوهُ فِيهِ، فَوَاللَّهِ ما زَالَ يَجِيشُ لهمْ بالرِّيِّ حتَّى صَدَرُوا عنْه، فَبيْنَما هُمْ كَذلكَ إذْ جَاءَ بُدَيْلُ بنُ ورْقَاءَ الخُزَاعِيُّ في نَفَرٍ مِن

قَوْمِهِ مِن خُزَاعَةَ، وكَانُوا عَيْبَةَ نُصْحِ رَسولِ اللهِ ﷺ مِن أَهْلِ تِهَامَةَ، فَقالَ: إنِّي تَرَكْتُ كَعْبَ بنَ لُؤَيٍّ وعَامِرَ بنَ لُؤَيٍّ نَزَلُوا أعْدَادَ مِيَاهِ الحُدَيْبِيَةِ، ومعهُمُ العُوذُ المَطَافِيلُ، وهُمْ مُقَاتِلُوكَ وصَادُّوكَ عَنِ البَيْتِ، فَقالَ رَسولُ اللهِ ﷺ: إنَّا لَمْ نَجِئْ لِقِتَالِ أحَدٍ، ولَكِنَّا جِئْنَا مُعْتَمِرِينَ، وإنَّ قُرَيْشًا قدْ نَهِكَتْهُمُ الحَرْبُ وأَضَرَّتْ بهِمْ، فإنْ شَاؤُوا مَادَدْتُهُمْ مُدَّةً، ويُخَلُّوا بَيْنِي وبيْنَ النَّاسِ، فإنْ أظْهَرْ: فإنْ شَاؤُوا أنْ يَدْخُلُوا فِيما دَخَلَ فيه النَّاسُ فَعَلُوا، وإلَّا فقَدْ جَمُّوا، وإنْ هُمْ أبَوْا، فَوَالَّذِي نَفْسِي بيَدِهِ لَأُقَاتِلَنَّهُمْ علَى أمْرِي هذا حتَّى تَنْفَرِدَ سَالِفَتِي، ولَيُنْفِذَنَّ اللهُ أمْرَهُ، فَقالَ بُدَيْلٌ: سَأُبَلِّغُهُمْ ما تَقُولُ. قالَ: فَانْطَلَقَ حتَّى أتَى قُرَيْشًا، قالَ: إنَّا قدْ جِئْنَاكُمْ مِن هذا الرَّجُلِ وسَمِعْنَاهُ يقولُ قَوْلًا، فإنْ شِئْتُمْ أنْ نَعْرِضَهُ علَيْكُم فَعَلْنَا، فَقالَ سُفَهَاؤُهُمْ: لا حَاجَةَ لَنَا أنْ تُخْبِرَنَا عنْه بشَيءٍ، وقالَ ذَوُو الرَّأْيِ منهمْ: هَاتِ ما سَمِعْتَهُ يقولُ، قالَ: سَمِعْتُهُ يقولُ كَذَا وكَذَا، فَحَدَّثَهُمْ بما قالَ النَّبيُّ ﷺ، فَقَامَ عُرْوَةُ بنُ مَسْعُودٍ فَقالَ: أيْ قَوْمِ، أَلَسْتُمْ بالوَالِدِ؟ قالوا: بَلَى، قالَ: أوَلَسْتُ بالوَلَدِ؟ قالوا: بَلَى، قالَ: فَهلْ تَتَّهِمُونِي؟ قالوا: لَا، قالَ: أَلَسْتُمْ تَعْلَمُونَ أنِّي اسْتَنْفَرْتُ أهْلَ عُكَاظٍ، فَلَمَّا بَلَّحُوا عَلَيَّ جِئْتُكُمْ بأَهْلِي ووَلَدِي ومَن

أطَاعَنِي؟ قالوا: بَلَى، قالَ: فإنَّ هذا قدْ عَرَضَ لَكُمْ خُطَّةَ رُشْدٍ، اقْبلُوهَا ودَعُونِي آتِيهِ، قالوا: ائْتِهِ، فأتَاهُ، فَجعَلَ يُكَلِّمُ النَّبيَّ ﷺ، فَقالَ النَّبيُّ ﷺ نَحْوًا مِنْ قَوْلِهِ لِبُدَيْلٍ، فَقالَ عُرْوَةُ عِنْدَ ذلكَ: أيْ مُحَمَّدُ، أرَأَيْتَ إنِ اسْتَأْصَلْتَ أمْرَ قَوْمِكَ، هلْ سَمِعْتَ بأَحَدٍ مِنَ العَرَبِ اجْتَاحَ أهْلَهُ قَبْلَكَ؟ وإنْ تَكُنِ الأُخْرَى، فإنِّي واللَّهِ لَأَرَى وُجُوهًا، وإنِّي لَأَرَى أوْشَابًا مِنَ النَّاسِ خَلِيقًا أنْ يَفِرُّوا ويَدَعُوكَ، فَقالَ له أبو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ: امْصُصْ ببَظْرِ اللَّاتِ، أنَحْنُ نَفِرُّ عنْه ونَدَعُهُ؟! فَقالَ: مَن ذَا؟ قالوا: أبو بَكْرٍ، قالَ: أمَا والذي نَفْسِي بيَدِهِ، لَوْلَا يَدٌ كَانَتْ لكَ عِندِي لَمْ أجْزِكَ بهَا لَأَجَبْتُكَ، قالَ: وجَعَلَ يُكَلِّمُ النَّبيَّ ﷺ، فَكُلَّما تَكَلَّمَ أخَذَ بلِحْيَتِهِ، والمُغِيرَةُ بنُ شُعْبَةَ قَائِمٌ علَى رَأْسِ النَّبيِّ ﷺ، ومعهُ السَّيْفُ وعليه المِغْفَرُ، فَكُلَّما أهْوَى عُرْوَةُ بيَدِهِ إلى لِحْيَةِ النَّبيِّ ﷺ ضَرَبَ يَدَهُ بنَعْلِ السَّيْفِ، وقالَ له: أخِّرْ يَدَكَ عن لِحْيَةِ رَسولِ اللَّهِ ﷺ، فَرَفَعَ عُرْوَةُ رَأْسَهُ، فَقالَ: مَن هذا؟ قالوا: المُغِيرَةُ بنُ شُعْبَةَ، فَقالَ: أيْ غُدَرُ، أَلَسْتُ أسْعَى في غَدْرَتِكَ؟! وكانَ المُغِيرَةُ صَحِبَ قَوْمًا في الجَاهِلِيَّةِ فَقَتَلَهُمْ، وأَخَذَ أمْوَالَهُمْ، ثُمَّ جَاءَ فأسْلَمَ، فَقالَ النَّبيُّ ﷺ: أمَّا الإسْلَامَ فأقْبَلُ، وأَمَّا المَالَ فَلَسْتُ منه في شَيءٍ. ثُمَّ إنَّ عُرْوَةَ جَعَلَ يَرْمُقُ أصْحَابَ النَّبيِّ

ﷺ بعيْنَيْهِ، قالَ: فَوَاللهِ ما تَنَخَّمَ رَسولُ اللهِ ﷺ نُخَامَةً إلَّا وقَعَتْ في كَفِّ رَجُلٍ منهمْ، فَدَلَكَ بهَا وجْهَهُ وجِلْدَهُ، وإذَا أمَرَهُمُ ابْتَدَرُوا أمْرَهُ، وإذَا تَوَضَّأَ كَادُوا يَقْتَتِلُونَ علَى وَضُوئِهِ، وإذَا تَكَلَّمَ خَفَضُوا أصْوَاتَهُمْ عِنْدَهُ، وما يُحِدُّونَ إلَيْهِ النَّظَرَ تَعْظِيمًا له، فَرَجَعَ عُرْوَةُ إلى أصْحَابِهِ، فَقالَ: أيْ قَوْمِ، واللهِ لقَدْ وفَدْتُ علَى المُلُوكِ، ووَفَدْتُ علَى قَيْصَرَ، وكِسْرَى، والنَّجَاشِيِّ، واللهِ إنْ رَأَيْتُ مَلِكًا قَطُّ يُعَظِّمُهُ أصْحَابُهُ ما يُعَظِّمُ أصْحَابُ مُحَمَّدٍ ﷺ مُحَمَّدًا؛ واللهِ إنْ تَنَخَّمَ نُخَامَةً إلَّا وقَعَتْ في كَفِّ رَجُلٍ منهمْ، فَدَلَكَ بهَا وجْهَهُ وجِلْدَهُ، وإذَا أمَرَهُمُ ابْتَدَرُوا أمْرَهُ، وإذَا تَوَضَّأَ كَادُوا يَقْتَتِلُونَ علَى وَضُوئِهِ، وإذَا تَكَلَّمَ خَفَضُوا أصْوَاتَهُمْ عِنْدَهُ، وما يُحِدُّونَ إلَيْهِ النَّظَرَ تَعْظِيمًا له، وإنَّه قدْ عَرَضَ علَيْكُم خُطَّةَ رُشْدٍ فَاقْبَلُوهَا. فَقالَ رَجُلٌ مِن بَنِي كِنَانَةَ: دَعُونِي آتِيهِ، فَقالوا: ائْتِهِ، فَلَمَّا أشْرَفَ علَى النَّبيِّ ﷺ وأَصْحَابِهِ، قالَ رَسولُ اللهِ ﷺ: هذا فُلَانٌ، وهو مِن قَوْمٍ يُعَظِّمُونَ البُدْنَ، فَابْعَثُوهَا له فَبُعِثَتْ له، واسْتَقْبَلَهُ النَّاسُ يُلَبُّونَ، فَلَمَّا رَأَى ذلكَ قالَ: سُبْحَانَ اللهِ! ما يَنْبَغِي لِهَؤُلَاءِ أنْ يُصَدُّوا عَنِ البَيْتِ، فَلَمَّا رَجَعَ إلى أصْحَابِهِ، قالَ: رَأَيْتُ البُدْنَ قدْ قُلِّدَتْ وأُشْعِرَتْ، فَما أرَى أنْ يُصَدُّوا عَنِ البَيْتِ. فَقَامَ رَجُلٌ منهمْ يُقَالُ له: مِكْرَزُ بنُ حَفْصٍ،

فَقالَ: دَعُونِي آتِيهِ، فَقالوا: ائْتِهِ، فَلَمَّا أشْرَفَ عليهم، قالَ النَّبيُّ ﷺ: هذا مِكْرَزٌ، وهو رَجُلٌ فَاجِرٌ، فَجَعَلَ يُكَلِّمُ النَّبيَّ ﷺ، فَبيْنَما هو يُكَلِّمُهُ إذْ جَاءَ سُهَيْلُ بنُ عَمْرٍو. قالَ مَعْمَرٌ: فأخْبَرَنِي أيُّوبُ، عن عِكْرِمَةَ: أنَّه لَمَّا جَاءَ سُهَيْلُ بنُ عَمْرٍو، قالَ النَّبيُّ ﷺ: لقَدْ سَهُلَ لَكُمْ مِن أمْرِكُمْ. قالَ مَعْمَرٌ: قالَ الزُّهْرِيُّ في حَديثِهِ: فَجَاءَ سُهَيْلُ بنُ عَمْرٍو، فَقالَ: هَاتِ اكْتُبْ بيْنَنَا وبيْنَكُمْ كِتَابًا، فَدَعَا النَّبيُّ ﷺ الكَاتِبَ، فَقالَ النَّبيُّ ﷺ: بسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، قالَ سُهَيْلٌ: أمَّا الرَّحْمَنُ، فَوَاللَّهِ ما أدْرِي ما هو، ولَكِنِ اكْتُبْ «باسْمِكَ اللَّهُمَّ» كما كُنْتَ تَكْتُبُ، فَقالَ المُسْلِمُونَ: واللَّهِ لا نَكْتُبُهَا إلَّا «بسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ»، فَقالَ النَّبيُّ ﷺ: اكْتُبْ «باسْمِكَ اللَّهُمَّ»، ثُمَّ قالَ: هذا ما قَاضَى عليه مُحَمَّدٌ رَسولُ اللَّهِ، فَقالَ سُهَيْلٌ: واللَّهِ لو كُنَّا نَعْلَمُ أنَّكَ رَسولُ اللَّهِ ما صَدَدْنَاكَ عَنِ البَيْتِ، ولَا قَاتَلْنَاكَ، ولَكِنِ اكْتُبْ «مُحَمَّدُ بنُ عبدِ اللَّهِ»، فَقالَ النَّبيُّ ﷺ: واللَّهِ إنِّي لَرَسولُ اللَّهِ، وإنْ كَذَّبْتُمُونِي، اكْتُبْ «مُحَمَّدُ بنُ عبدِ اللَّهِ» -قالَ الزُّهْرِيُّ: وذلكَ لِقَوْلِهِ: لا يَسْأَلُونِي خُطَّةً يُعَظِّمُونَ فِيهَا حُرُمَاتِ اللَّهِ إلَّا أعْطَيْتُهُمْ إيَّاهَا- فَقالَ له النَّبيُّ ﷺ: علَى أنْ تُخَلُّوا بيْنَنَا وبيْنَ البَيْتِ، فَنَطُوفَ به، فَقالَ سُهَيْلٌ: واللَّهِ لا تَتَحَدَّثُ العَرَبُ أنَّا أُخِذْنَا

ضُغْطَةً، ولَكِنْ ذلكَ مِنَ العَامِ المُقْبِلِ، فَكَتَبَ، فَقالَ سُهَيْلٌ: وعلَى أنَّه لا يَأْتِيكَ مِنَّا رَجُلٌ وإنْ كانَ علَى دِينِكَ إلَّا رَدَدْتَهُ إلَيْنا، قالَ المُسْلِمُونَ: سُبْحَانَ اللَّهِ! كيفَ يُرَدُّ إلى المُشْرِكِينَ وقدْ جَاءَ مُسْلِمًا؟! فَبيْنَما هُمْ كَذلكَ إذْ دَخَلَ أبو جَنْدَلِ بنُ سُهَيْلِ بنِ عَمْرٍو يَرْسُفُ في قُيُودِهِ، وقدْ خَرَجَ مِن أسْفَلِ مَكَّةَ حتَّى رَمَى بنَفْسِهِ بيْنَ أظْهُرِ المُسْلِمِينَ، فَقالَ سُهَيْلٌ: هذا -يا مُحَمَّدُ- أوَّلُ ما أُقَاضِيكَ عليه أنْ تَرُدَّهُ إلَيَّ، فَقالَ النَّبيُّ ﷺ: إنَّا لَمْ نَقْضِ الكِتَابَ بَعْدُ، قالَ: فَوَاللَّهِ إذًا لَمْ أُصَالِحْكَ علَى شيءٍ أبَدًا، قالَ النَّبيُّ ﷺ: فأجِزْهُ لِي، قالَ: ما أنَا بمُجِيزِهِ لَكَ، قالَ: بَلَى فَافْعَلْ، قالَ: ما أنَا بفَاعِلٍ، قالَ مِكْرَزٌ: بَلْ قدْ أجَزْنَاهُ لَكَ، قالَ أبو جَنْدَلٍ: أيْ مَعْشَرَ المُسْلِمِينَ، أُرَدُّ إلى المُشْرِكِينَ وقدْ جِئْتُ مُسْلِمًا، ألَا تَرَوْنَ ما قدْ لَقِيتُ؟! وكانَ قدْ عُذِّبَ عَذَابًا شَدِيدًا في اللَّهِ، قالَ: فَقالَ عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ: فأتَيْتُ نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ فَقُلتُ: ألَسْتَ نَبِيَّ اللَّهِ حَقًّا؟ قالَ: بَلَى، قُلتُ: ألَسْنَا علَى الحَقِّ وعَدُوُّنَا علَى البَاطِلِ؟ قالَ: بَلَى، قُلتُ: فَلِمَ نُعْطِي الدَّنِيَّةَ في دِينِنَا إذًا؟ قالَ: إنِّي رَسولُ اللَّهِ، ولَسْتُ أعْصِيهِ، وهو نَاصِرِي، قُلتُ: أوَليسَ كُنْتَ تُحَدِّثُنَا أنَّا سَنَأْتي البَيْتَ فَنَطُوفُ بهِ؟ قالَ: بَلَى، فأخْبَرْتُكَ أنَّا نَأْتِيهِ العَامَ؟ قالَ: قُلتُ: لَا، قالَ: فإنَّكَ آتِيهِ

ومُطَّوِّفٌ به، قالَ: فأتَيْتُ أبَا بَكْرٍ فقُلتُ: يا أبَا بَكْرٍ، أليسَ هذا نَبِيَّ اللهِّ حَقًّا؟ قالَ: بَلَى، قُلتُ: ألَسْنَا علَى الحَقِّ وعَدُوُّنَا علَى البَاطِلِ؟ قالَ: بَلَى، قُلتُ: فَلِمَ نُعْطِي الدَّنِيَّةَ في دِينِنَا إذًا؟ قالَ: أيُّها الرَّجُلُ، إنَّه لَرَسولُ اللهِّ ﷺ، وليسَ يَعْصِي رَبَّهُ، وهو نَاصِرُهُ، فَاسْتَمْسِكْ بغَرْزِهِ؛ فَوَاللهِّ إنَّه علَى الحَقِّ، قُلتُ: أليسَ كانَ يُحَدِّثُنَا أنَّا سَنَأْتي البَيْتَ ونَطُوفُ بهِ؟ قالَ: بَلَى، أفَأَخْبَرَكَ أنَّكَ تَأْتِيهِ العَامَ؟ قُلتُ: لَا، قالَ: فإنَّكَ آتِيهِ ومُطَّوِّفٌ به. قالَ الزُّهْرِيُّ: قالَ عُمَرُ: فَعَمِلْتُ لِذلكَ أعْمَالًا. قالَ: فَلَمَّا فَرَغَ مِن قَضِيَّةِ الكِتَابِ، قالَ رَسولُ اللهِّ ﷺ لأصْحَابِهِ: قُومُوا فَانْحَرُوا ثُمَّ احْلِقُوا، قالَ: فَوَاللهِّ ما قَامَ منهمْ رَجُلٌ حتَّى قالَ ذلكَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، فَلَمَّا لَمْ يَقُمْ منهمْ أحَدٌ دَخَلَ علَى أُمِّ سَلَمَةَ، فَذَكَرَ لَهَا ما لَقِيَ مِنَ النَّاسِ، فَقالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ: يا نَبِيَّ اللهِّ، أتُحِبُّ ذلكَ؟ اخْرُجْ ثُمَّ لا تُكَلِّمْ أحَدًا منهمْ كَلِمَةً، حتَّى تَنْحَرَ بُدْنَكَ، وتَدْعُوَ حَالِقَكَ فَيَحْلِقَكَ، فَخَرَجَ فَلَمْ يُكَلِّمْ أحَدًا منهمْ حتَّى فَعَلَ ذلكَ؛ نَحَرَ بُدْنَهُ، ودَعَا حَالِقَهُ فَحَلَقَهُ، فَلَمَّا رَأَوْا ذلكَ قَامُوا، فَنَحَرُوا، وجَعَلَ بَعْضُهُمْ يَحْلِقُ بَعْضًا حتَّى كَادَ بَعْضُهُمْ يَقْتُلُ بَعْضًا غَمًّا، ثُمَّ جَاءَهُ نِسْوَةٌ مُؤْمِنَاتٌ فأنْزَلَ اللهُّ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ﴾ حتَّى

بَلَغَ ﴿بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ﴾ [ الممتحنة : 10 ]، فَطَلَّقَ عُمَرُ يومَئذٍ امْرَأَتَيْنِ كَانَتَا له في الشِّرْكِ، فَتَزَوَّجَ إحْدَاهُما مُعَاوِيَةُ بنُ أبِي سُفْيَانَ، والأُخْرَى صَفْوَانُ بنُ أُمَيَّةَ.

ثُمَّ رَجَعَ النَّبيُّ ﷺ إلى المَدِينَةِ، فَجَاءَهُ أبو بَصِيرٍ رَجُلٌ مِن قُرَيْشٍ وهو مُسْلِمٌ، فأرْسَلُوا في طَلَبِهِ رَجُلَيْنِ، فَقالوا: العَهْدَ الذي جَعَلْتَ لَنَا، فَدَفَعَهُ إلى الرَّجُلَيْنِ، فَخَرَجَا به حتَّى بَلَغَا ذَا الحُلَيْفَةِ، فَنَزَلُوا يَأْكُلُونَ مِن تَمْرٍ لهمْ، فَقالَ أبو بَصِيرٍ لأحَدِ الرَّجُلَيْنِ: واللَّهِ إنِّي لَأَرَى سَيْفَكَ هذا يا فُلَانُ جَيِّدًا، فَاسْتَلَّهُ الآخَرُ، فَقالَ: أجَلْ، واللَّهِ إنَّه لَجَيِّدٌ، لقَدْ جَرَّبْتُ به، ثُمَّ جَرَّبْتُ، فَقالَ أبو بَصِيرٍ: أرِنِي أنْظُرْ إلَيْهِ، فأمْكَنَهُ منه، فَضَرَبَهُ حتَّى بَرَدَ، وفَرَّ الآخَرُ حتَّى أتَى المَدِينَةَ، فَدَخَلَ المَسْجِدَ يَعْدُو، فَقالَ رَسولُ اللَّهِ ﷺ حِينَ رَآهُ: لقَدْ رَأَى هذا ذُعْرًا، فَلَمَّا انْتَهَى إلى النَّبيِّ ﷺ قالَ: قُتِلَ واللَّهِ صَاحِبِي وإنِّي لَمَقْتُولٌ، فَجَاءَ أبو بَصِيرٍ فَقالَ: يا نَبِيَّ اللَّهِ، قدْ -واللَّهِ- أوْفَى اللَّهُ ذِمَّتَكَ؛ قدْ رَدَدْتَنِي إليهِم، ثُمَّ أنْجَانِي اللَّهُ منهمْ، قالَ النَّبيُّ ﷺ: ويْلُ أُمِّهِ مِسْعَرَ حَرْبٍ! لو كانَ له أحَدٌ. فَلَمَّا سَمِعَ ذلكَ عَرَفَ أنَّه سَيَرُدُّهُ إليهِم، فَخَرَجَ حتَّى أتَى سِيفَ البَحْرِ، قالَ: ويَنْفَلِتُ منهمْ أبو جَنْدَلِ بنُ سُهَيْلٍ، فَلَحِقَ بأَبِي بَصِيرٍ، فَجَعَلَ لا يَخْرُجُ مِن قُرَيْشٍ رَجُلٌ

**قدْ أسْلَمَ إلَّا لحِقَ بأَبِي بَصِيرٍ، حتَّى اجْتَمعتْ منهمْ عِصَابَةٌ، فَوَاللهِّ ما يَسْمَعُونَ بعِيرٍ خَرَجَتْ لِقُرَيْشٍ إلى الشَّأْمِ إلَّا اعْتَرَضُوا لَهَا، فَقَتَلُوهُمْ وأَخَذُوا أمْوالَهُمْ، فأرْسَلَتْ قُرَيْشٌ إلى النَّبيِّ ﷺ تُنَاشِدُهُ باللهِّ والرَّحِمِ، لَمَّا أرْسَلَ، فمَن أتَاهُ فَهو آمِنٌ، فأرْسَلَ النَّبيُّ ﷺ إليهِم، فأنْزَلَ اللهُّ تعَالَى: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾** [ الفتح : 24 ، 26 ] **حتَّى بَلَغَ ﴿الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ﴾، وكَانَتْ حَمِيَّتُهُمْ أنَّهُمْ لَمْ يُقِرُّوا أنَّه نَبِيُّ اللهِّ، ولَمْ يُقِرُّوا بـ«بِسْمِ اللهِّ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ»، وحَالُوا بيْنَهُمْ وبيْنَ البَيْتِ.** »[1] ...

لقد كان رسول الله ﷺ حكيمًا فوق قدرة البشر، موفَّقًا في آرائه وفق ما يرتضيه القدَر، مسدَّدًا في تصرفاته بعيد النَّظَر...

وقد كانت نظرته ساعة عقد الصلح معجزة في ذاتها، فالمجلس كان غنيًّا جدًا بالحكماء النوابغ الدَّواهي، لكنهم جميعًا بدوا وكأنهم من العوام لا يعرفون عن الحكمة ما هي...فحكمة سهيل بن عمرو دعته إلى الاهتمام بمقام قريش لا بمصلحتها، وحكمة عمر بن الخطاب دعته إلى الاعتراض

(1) صحيح البخاري ( ٢٧٣١ )

على مقام الإسلام لا بمصلحته، وحكمة على بن أبي طالب دعته إلى كتابة بنود لا يقبلها، وحكمة أبي بكر الصديق دعته إلى التسليم لفعل النبي الذي لا يفهمه...

ومما يدل بوضوح على عدم إدراكهم لشيء يسير من حكمة الحبيب ﷺ في قبول الصلح بهذه الكيفية التي يرونها مهينة له ولهم وللإسلام قبلهم أنهم لما انتهوا من عقد الصلح أمرهم النبي ﷺ بذبح الهدي وحلق الرأس تحصيلاً لثواب العمرة التي لم تتم فلم يستجب منهم أحدٌ للأمر النبوي رغم صدوره ثلاث مرات !!...

ولم يكن باعث سكونهم وقتها إعلان العصيان على الجناب النبوي الشريف، إنما كان إعلان الغضب على عقد يُنقص من قدر الجناب النبوي الشريف.

حاشاهم أن ينقلبوا على رسول الله ﷺ وهو أثمن عندهم من أنفسهم وأهلهم وأموالهم، وتكفي شهادة عروة بن مسعود فيهم في نفس يوم الصلح حينما رجع إلى قريش أيْ : «**قَوْمِ، واللهَّ لقَدْ وفَدْتُ علَى المُلُوكِ، ووَفَدْتُ علَى قَيْصَرَ، وكِسْرَى، والنَّجَاشِيِّ، واللهِّ إنْ رَأَيْتُ مَلِكًا قَطُّ يُعَظِّمُهُ أصْحَابُهُ**

**ما يُعَظِّمُ أصْحَابُ مُحَمَّدٍ ﷺ مُحَمَّدًا؛ واللهِ إنْ تَنَخَّمَ نُخَامَةً إلَّا وقَعَتْ في كَفِّ رَجُلٍ منهمْ، فَدَلَكَ بهَا وَجْهَهُ وجِلْدَهُ، وإذَا أمَرَهُمُ ابْتَدَرُوا أمْرَهُ، وإذَا تَوَضَّأَ كَادُوا يَقْتَتِلُونَ علَى وَضُوئِهِ، وإذَا تَكَلَّمَ خَفَضُوا أصْوَاتَهُمْ عِنْدَهُ، وما يُحِدُّونَ إلَيْهِ النَّظَرَ تَعْظِيمًا له** »...

فكيف بهم بعد الصلح يتجاهلون أمره ؟!...

كل ما في الأمر أنهم لم يفهموا سياسة النبي ﷺ وطول نفَسه وقت الاتفاق، وقد أوصلتهم حكمتهم إلى أن النبي ﷺ قد تنازل أكثر من اللازم وقت السلم عن حقوق اكتسبوها طوال ستة أعوام بالحرب، مع أن المنطق يستدعي أن تزيد المكاسب بالسلام لا تتضاءل !!...

فلما أوصلتهم حكمتهم إلى نتيجة غير التي سلكها رسول الله ﷺ ما استطاعوا أن يستسيغوا الأمر بالذبح والحلق .

وللأمانة، لم يكن المسلمون وحدهم أصحاب تلك النظرية التي تدَّعي أن الترجمة الرسمية ـ الوحيدة ـ للعقد خضوع النبي ﷺ وهزيمته سياسيًا، فقد احتفلت واحتفت قريشٌ بالنصر وصانعه الحكيم، ولم يحسب أحد في العالمين

ـ مجرد حسبان ـ أن رسول الله ﷺ هو الذي وجَّه بسياسته وسلاسته ــ مع سهيل ـ العقد إلى هذه البنود...والحقيقة أن هذا ما حدث بالتحديد، وسنبين ذلك لاحقا .

وبعد عامين من الصلح تجلَّى للجميع، حكماء وبسطاء، مسلمين ومشركين، سعة أفق النبي ﷺ ورجاحة عقله وإعجازية حكمته...فقد فُتحت مكة، وهُدمت الأصنام، وقطع دابر المشركين، ولولا صلح الحديبية بشروطه تلك ما كان هناك فتح مبين، وما كان ثمَّة لقاء قريب بين المسلمين المهاجرين وذويهم في مكة من المستضعفين .

**لكن ذلك يستدعي سؤالًا ملحًّا...كيف فعلها رسول الله ﷺ ؟!**

ما الحكمة في الناس إلا اقتناص الفرص الممكنة، كاغتنام مال، أو كسب احترام، أو جلب تعاطف، أو دفع مفسدة...

فكيف به ﷺ يخسر هذه الممكنات لأجل أن يقتنص المستحيل !!

ما الحكمة في الناس إلا فيما استحسنه العقلاء وارتضوه...

فكيف به ﷺ يربح رهانًا لم يتقبله أحد !!

ما الحكمة في الناس إلا استعراض قوة الرأي على الأسماع...فكيف به ﷺ يفوز دون أن يُسمع أصحابه كلمة تطمئنهم على جودة المفاوضات !!

**حقًا، كيف فعلها رسول الله ﷺ ؟!**

الإجابة غير موجودة إلا في قول الحق ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ**﴾ .

نعم، فبدون الرحمة التي استُودعت فيه للخلق ما كان لحكمته فضل عن أقرانه إلا بقدر بسيط قد لا يؤثر في أمور الحل والعقد عن مذاهبهم، لكنه بالرحمة غلبت حكمته آراءهم بمقدار بُعد مشرقه عن مغاربهم، وأثَّرت قراراته في مجرى التاريخ بما تعجز عن تحصيله مناقبهم .

لو كان أحد الحكماء لاختار أسلم الحلول، فيشترط على قريش بنودًا يُدرك أنها مستحيلة لكنها ستعجب جماهيره المتحمِّسة، فإذا لم توافق عليها قريش ــ وهو يعلم ــ فسيكون قد فعل ما بوسعه لإسعاد ألف وخمسمائة رجل لولا تعنُّت

قريش وغرورها، ومن ثمَّ فلا لوم عليه ولا حرج.

كان بإمكانه أن يشترط على سهيل بن عمرو أنه لن يقيم معهم صُلحًا إلا بعد أن يعترفوا برسالته ﷺ ...

أو أن يصمِّم على العمرة هذا العام دون العام القادم حتى لا يضيع تعب المعتمرين القادمين من المدينة هباءً وقد أنهكهم السفر والعطش حتى كاد يقتلهم..

أو أن يوافق على مضض بتأجيلها إلى العام القادم بشرط إزاحة الثلاثمائة وستين صنمًا عن الكعبة وقت العمرة... أو أن يجعل بقاء أبي جندل معه شرطًا رئيسيًا لاستكمال المفاوضات...

أو غيرها من الشروط التي ترفع أسهمه لدى فريقه، إلا أنها حتمًا ستفقده مكاسب ثمينة لا يراها غيره .

فلما كانت حكمته ﷺ مدعَّمة بخلايا الرحمة الكاشفة، اختار تأجيل النصر الدائم على تعجيل النصر المؤقت، اختار انتشار الإسلام القادم على اعتمار المسلمين الحالي، اختار غضب الأحباب القريب على فرح الأعداء الأبدي، اختار أن

يتصرف كما أُرسل لا كما أرادوا .

وقد استعمل ﷺ رحمته في تمرير بنود العقد بهذه الكيفية الحكيمة أفضل استعمال .

**البند الأول...تأجيل العمرة إلى العام القادم .**

لما رفض سهيل أن يُكتب في أول العقد «**بسْمِ اللهَّ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ** » ثم رفض « **محمَّدٌ رسولُ الله** » وافق رسولَ الله ﷺ ـ رغم اعتراض المسلمين ـ واشترط أن يُسمح للمسلمين دخول مكة هذا العام...والرسول ﷺ يعلم تمام العلم أن هذا الشرط لن يُمرَّر، لكن فنَّ التفاوض يستلزم أن تطلب الكثير لتأخذ شيئًا على الأقل، فاعترض سهيل على الشرط بحجة أن العرب سيقولون أن قريشًا قد أُرغمت على دخول المسلمين هذا العام خوفًا منهم، فاضطر سهيل ــ دون أن يدري ــ إلى تنفيذ مراد النبي ﷺ بدخول مكة آمنين سالمين في أسرع وقت بعد هذا العام وهو العام القادم مباشرة .

ويدل على إدراك النبي ﷺ لاستحالة دخول مكة هذا العام رده على عمر بن الخطاب حينما سأله «**أَوَليسَ كُنْتَ تُحَدِّثُنَا أَنَّا سَنَأْتِي البَيْتَ فَنَطُوفُ بهِ؟ قالَ: بَلَى، فأخْبَرْتُكَ أنَّا**

**نَأْتِيهِ العَامَ؟ قالَ: قُلتُ: لَا، قالَ: فإنَّكَ آتِيهِ ومُطَوِّفٌ به** » ...فلما خرج رسول الله ﷺ بأصحابه من المدينة في ملابس الإحرام إلا ليثبت حالة، ويفرض واقعًا على قريش، ويكسب أرضية ما كانت له قبلها...

فلو أنه طلب من قريش وهو في مدينته أن يسمحوا للمسلمين بدخول مكة معتمرين بلا حرب ما أجابتهم قريش أبدًا، فكان خروجه بأصحابه منفعة للإسلام والمسلمين، وقد ربحوا ثواب العمرة في كل حال .

ولو صمَّم رسول الله ﷺ ــ وقت العقد ــ على دخول مكة هذا العام، لصمَّمت قريش على عدم الدخول، فتشتعل حربٌ عنيفة على حدود مكة، بين معتمرين يصمِّمون على الطواف، وقرشيين يُدافعون عن أرضهم ومعتقداتهم، وعدد المسلمين وعدَّتهم القتالية وقتئذٍ لا يسمحان لهم بخوض حرب في بلاد الخصم، إضافة إلى أن بلاد الخصم هي البلد الحرام ...فلا داعي إذًا للإصرار على دخول مكة هذا العام بكل الاحتمالات، ما دام أن الدخول في العام القادم يخضع لاتفاق مسبق ليس معه احتمالات، وما يمكن أخذه بالسلم يحرم اقتناصه بالحرب .

فاختار ﷺ أن يُجنِّب أصحابه حربا لا حاجة لهم بها، وسمح لسهيلٍ أن يتفاخر بتعديل شرطٍ يصبُّ فقط في مصلحة المسلمين، فقد منحهم ما لم يكن في حوزتهم، ورغم عدم إدراك المسلمين والقرشيين لذلك وقتها، إلا أن الأيام فاجأت الفريقين بحكمة النبي ﷺ، فبعد عام دخل المسلمون مكة مكبرين ومهللين وملبِّين « لبيك اللهم لبيك...» دون قطرة دمٍ واحدة، أو حتى مجرد شعور بالغضب أو الخوف، ودون أدنى مضايقة من قريش، فقد أخلت لهم قريش مكة لثلاثة أيام، وقد زاد عدد المعتمرين إلى ألفين...

فأحسَّ القرشيون بمرارة لا مثيل لها، وقتما رأوا الجموع البيضاء المُحْرِمة تتناثر عند دخول مكَّتهم ثم تتلاقى حول كعبتهم بسلام وأمان .

ولولا حكمة النبي ﷺ وقت العقد ما كان للمسلمين أن يدخلوا المسجد الحرام آمنين محلِّقين رؤوسهم ومقصِّرين بهذه السرعة الزمنية....ورغم أن ذلك لم يعجبهم وقت العقد، إلا أنه قد تبيَّن لهم أن ما حدث كان رحمة عظيمة من رسول الله ﷺ بهم .

**البند الثاني... وضع الحرب بين الفريقين لعشرة أعوام .**

مُذ قدم رسول الله ﷺ المدينة، والمناوشات العسكرية بينها وبين مكة لم تتوقف، إضافة إلى وقوع ثلاث حروب نظامية بينهما، وهي بدر وأُحد والخندق، وقد تكبَّدت مكة العديد من الخسائر البشرية والمعنوية، وقد انطفأت هيبتها، وانكفأت سطوتها إلى حدٍ كبير، فرأى المسلمون أنه لا حاجة لهم بهدنة تتغذى عليها قريش لعشرة أعوام، وفي إمكانهم تدميرها قبل ذلك بكثير...

ما الدَّاعي لعقد هدنة مع فريقٍ أوشك على الاستسلام لأحكام الزمن ؟!...

وهل لو كانت قريش قادرة على الحرب وتبعاتها كانت ستلجأ إلى الهدنة ؟!...

وكيف يحتمل رسول الله ﷺ تأخير فتح مكة إلى عشرة أعوام على الأقل ؟!..

أحسَّ المسلمون بأن رسول الله ﷺ يحترم خصمه أكثر مما يعرضه الواقع المكِّي المهلهل، وأن قريشًا ينقصها ضربة وترفع الراية البيضاء لرسول الله الذي ترفض الآن وضع

رسالته مقترنة باسمه في صحيفة الصلح!!

هكذا فكَّر المسلمون في الأمر..

لكنهم لم يستوعبوا ـ وقتها ـ المصلحة العظيمة المستشرفة جرَّاء هذا البند، فقد سمح هذا البند لرسول الله ﷺ أن يتفرغ لإبلاغ دعوته إلى شتَّى بقاع الأرض، فأرسل خمسة عشر رسولًا يحملون رسائله إلى ملوك وزعماء الأرض يدعوهم فيها إلى الإسلام وشعوبهم، وترددت كلمة الإسلام ونبيه في الروم والفرس ومصر والحبشة وبصرى والغساسنة والبحرين وغيرها، بل إن معظمهم قد أسلم برسول الله ﷺ .

ولولا الهدنة مع قريش لما استطاع رسول الله ﷺ أن يتصرف بكل هذه الأريحية ودون إزعاج من قريش وطلائعها، فقريش هي العدو الوحيد الذي يجاهر بعداوته للإسلام ونبيه، ومكة هي البلد الوحيد الذي يكرر الحرب معه ويحشد الآخرين ضده كما حدث يوم الأحزاب، فمتى وقَّعت مع المسلمين هدنة كان ذلك أمانًا وسلامًا للمسلمين من أحزاب جُدد يسيرون خلف رايتها القتالية نحو المدينة .

حتى وإن بدت مكة للمسلمين ضعيفة، فإنها في أعين

الآخرين قوية متماسكة بأصولها وعراقتها وشرفها، وفي إعلان الهدنة معها اعترافٌ صريحٌ منها بقوة دولة الإسلام الحديثة، فإذا ما وصلت رسالات الإسلام إلى الملوك قوبلت بتوقير واحترام يليق بالدولة التي عقدت معها مكَّة هدنة .

كما أتاحت له الهدنة مكسبًا ثانيًا، فقد جعلته يتوجه بجيشه كاملًا إلى خيبر ليتخلص من شرورها، دون خوف من هجوم قرشي يُشتِّت عدده وفكره .

والمكسب الثالث لهذا البند، أنه قد سمح للمسلمين زيارة عوائلهم في مكة، وتبادل المعاملات التجارية، وتشاطر الأفكار والأخبار، فكانت النتيجة الوحيدة لذلك أن تعرَّف المكِّيون على الإسلام والمسلمين عن قرب، فقد لاحظوا أمانتهم وصدقهم ووفائهم وطهارتهم وحُسن كلامهم .

فكان ذلك بمثابة إظهار الإسلام الحقيقي الرَّشيد لهم، لا ما تواتر إليهم من افتراءات أكابرهم عن الإسلام ونبيه، فدخل الناس في دين الله دون مجهود عظيم...

وكان من أعظم من دخل في الإسلام جرَّاء ذلك خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعثمان بن طلحة... ولولا الهدنة

لبقى الإسلام معزولًا في المدينة يُفترى عليه ويُصدّ عنه .

ومن هنا يتضح أن حكمة رسول الله ﷺ في قبول هذا البند كانت غايتها الرَّحمة بالجيش، وبمن أسلم من قريش .

**البند الثالث... أن من أراد أن يدخل في عهد قريش دخل فيه، ومن أراد أن يدخل في عهد رسول الله ﷺ ــ من غير قريش ــ دخل فيه.**

يعرف المسلمون أن قريشًا تُجيد فنَّ التحالفات وتتقنه منذ القدم، بل إن الجميع حولها يتشرَّف ويأمل أن يكون حليفًا لها لأجل الحرم، أما دولة الإسلام الناشئة فهي حبيسة في المدينة، ليس لها علاقات خارج حدودها الحصينة، ومن ثم فلن يدخل في عهدها أحد ليعادي ــ بإرادته ــ قريشًا وحلفائها.. فظنَّ المسلمون أن هذا البند يصبُّ فقط في مصلحة قريش .

وقد كانت بين قبيلتي خزاعة وبني بكر نزاعات قديمة، وثأرٌ معلقٌ لبني بكر على عدوتها، وكان من المستحيلات أن يتفقا معًا في حلف واحد يجمعهما تحت رايته، فسارعت خزاعة للدخول في حلف رسول الله ﷺ، وكانت وقتها مشركة، فاتَّجهت بنو بكرٍ تلقائيًا للدخول في حلف قريش .

وقد كانت قريش شديدة الحرص على تنفيذ الهدنة مع

النبي ﷺ لنهاية العشرة أعوام، لعلمها أن الجيش المحمدي يتزايد عددًا وإيمانًا كل يوم، ولا قِبل لها بمجابهته من جديد، وبالتالي فإن ذلك سيؤخر فتح مكة على المسلمين لسنوات طويلة .

وبعد حوالي عامين من صلح الحديبية أغارت قبيلة بني بكر على خزاعة على حين غفلة، وقتلت منهم رجالًا كثيرًا، فالتجأ رجال ونساء خزاعة بالبيت الحرام ليُصيبهم أمانه المتعارف عليه بين الجميع، فما كان من بني بكر إلا أن دخلت عليهم الحرم واستباحت دماءهم !!..

والغريب في الأمر أن قريشًا قد أعانت بني بكر في جريمتها بالسلاح وداخل الحرم !!...

وقد نصَّت المعاهدة أن من اعتدى على خزاعة فقد اعتدى على المسلمين، فهرع عمرو بن سالم الخزاعي إلى المدينة مستنجدًا برسول الله ﷺ ولم يكن قد أسلم وقتها، فأجابه الحبيب ﷺ « **نُصِرْتَ يَا عَمْرَو بْنَ سَالِمٍ**»[1]

(1) البداية والنهاية لابن كثير ( ٦ / ٥٠٩ )

فجاز لرسول الله ﷺ أن يفتح مكة في هذه اللحظة، بعدما خانت قريش وحليفتها العهد...

ولولا هذا البند لما حُقَّ للمسلمين أن يدخلوا مكة قبل عشرة أعوام...وأدرك المسلمون أن وجود الحليف في عقد الصلح كان في مصلحتهم وحدهم دون قريش، وكان ذلك حكمة عظيمة من رسول الله ﷺ هدفها رحمة أهل مكة وتخليصهم من عبادة الأصنام، وتمكين المسلمين من البيت الحرام .

**البند الرابع... أن يرد المسلمون من يأتيهم من قريش مسلما بدون إذن وليه، وألا ترد قريش من يعود إليها من المسلمين .**

وقد قوبل هذا الشرط باعتراض كبير جدًا من الصحابة رضي الله عنهم، حتى أن سيدنا عمر بن الخطاب لم يستطع تحمل سماعه أو إمضائه، وقد زاد اعتراضهم وغضبهم من سهيل بن عمرو وشروطه المجحفة حينما دخل ولده أبو جندل بن سهيل يرسف في قيوده على رسول الله ﷺ وقد هرب من محبس أبيه بعدما عذبه عذابًا شديدًا، فطالب سهيل بردِّ ولده إليه كأول ما يجب الوفاء به، فاستأذنه النبي ﷺ أن يجيزه له والعقد لم

يُكتب بعد، فأصرَّ سهيل على ردِّه وإلَّا فإن العقد كله سيُلغى . فطالب النبي ﷺ أبا جندل أن يصبر ويحتسب، وأن الله سيجعل له مخرجًا .

فزاد اعتراض الصحابة إلى درجة قياسية، خاصة أنهم لم يروا ــ ساعتها ــ ميزة في العقد تجعل سهيل بن عمرو يلوِّح بإلغائه، وتجعل رسول الله ﷺ يتمسك بإمضائه إلى هذه الدرجة التي تجبره على أن يعيد أبا جندل إلى أبيه المشرك ليكمل فيه الأذيَّة !!...

فراجع عمر رضي الله عنه النبي ﷺ فيه وفي غيره من البنود متسائلًا...« **لِمَ نُعْطِي الدَّنِيَّةَ فِي دِينِنَا ؟!** "...**فأجابه الحبيب ﷺ بثقة تستند إلى وعد إلهي حكيم**...« **إِنِّي رَسولُ اللَّهِ، ولَسْتُ أعْصِيهِ، وهو نَاصِرِي** » .

والحقُّ أن الصحابة الكرام معذورون في مذهبهم، فالأمر مبهمٌ لهم بشكل تام، ولم يكن في حسبانهم أن آثار هذا الصلح عظيمة وفاعلة في التاريخ الإسلامي ...

أما رسول الله ﷺ فقد كُشفت له الحجب بما أراده الله، وكان حكيمًا عبقريًّا مبهرًا وقتما اختار بقاء البنود بوضعها

على بقاء أبي جندل معه، فلو اختار بعاطفته أبا جندل لخسر الشَّرط الذي سيمكنه من عمرة القضاء بعد عام !!...

وسيخسر الهدنة التي ستسمح له بالتفرغ للدعوة!!...

وسيخسر الحليف الذي سيتسبب في فتح مكة!!...

أيمكنه أن يضحي بمستقبل الإسلام والمسلمين لأجل فرد هو على يقين بأن الله سيجعل له مخرجًا قريبًا من محنته؟!...

أين الحكمة في ذلك ؟!...

وأين الرحمة في ضياع فرصة عظيمة ينتشر بها الإسلام، ويتجنب بها المسلمون حروبًا ؟!..

وقد جعل الله لأبي جندل وغيره من المرَدِّين إلى قريش مخرجًا من محنتهم، وكان المخرج على يد أبي بصير بعدما ردَّه النبي مع اثنين من المشركين إلى مكة، فاحتال على أحدهم وقتله، وفرَّ منه الآخر إلى النبي، فلما علم أن النبي سيردَّه التجأ إلى ساحل البحر في طريق تجارة مكة إلى الشام، ثم انضم إليه أبو جندل وأمثاله من المسلمين المستضعفين في مكة، وكوَّنوا فريقًا جديدا لا تسري عليه أحكام الاتفاق،

فكانت كلما خرجت قافلة تجارية من مكة أو عائدة إليها اعترضوها وقتلوا من فيها وأخذوا أموالهم، فتأثرت تجارة قريش أيما تأثُّر، وكأنهم يعاقبونها أشدَّ عقاب على شرطها ـ القاسي ـ الذي أبعدهم عن حبيبهم ﷺ، فبعثت قريش إلى رسول الله ﷺ تناشده وتستجير به أن يأخذ أبا بصير ومن معه إليه، وأنهم متنازلون عن هذا الشرط...

فكان ذلك وعد رسول الله ﷺ إليهم بالفرج القريب .

أما الشق الثاني من هذا البند المتعلق بعدم ردِّ قريش لمن جاء إليها من المسلمين كافرًا مرتدًا، فإن رسول الله ﷺ ــ قبل قريش ــ لا يُحب أن يبقى في مدينته أحدٌ مكرَهًا على الإسلام، بل إن الأفضل للإسلام وللمسلمين أن ينكشف أمامهم من كان يُضمر في قلبه الكفر، حتى لا يُعرِّض أمن المدينة إلى الخطر من خلال نقل أسرارها إلى الأعداء، أو تثبيط همم المجاهدين... وهذا الشق من البند كان معطَّلًا هو الآخر لكن ليس بإرادة قريش، إنما لثبات المسلمين على الإسلام حُبًّا لله ولرسوله ﷺ، فلم يرجع أحدٌ من المسلمين إلى قريش من الأساس حتى يمنعوا ردَّه للمدينة .

فكانت موافقة النبي ﷺ على هذا البند ـ رغم قساوته ـ حكمة نافذة باعثها الرَّحمة الخالصة، فقد احتمل رسول الله ﷺ وجوده في العقد استبقاءً للبنود الأخرى، ولو أنه أحد الحكماء المألوفين لمزَّق العقد بيديه وقال لسهيل في عزَّة مشبَّعةٍ بالغضب « لا حاجة لي بغطرستكم...لكم بلدكم ولي بلدي »... وكان سيرجع إلى مدينته يقاوم العزلة دون جدوى، ويحاول التمدُّد دون فائدة، وسيخسر المسلمون مكاسبًا تحتاج في تعويضها إلى سنوات من الجهد والتخطيط والمحاولة... فاختصر الحبيب ﷺ كل ذلك في الموافقة على هذا البند بحالته تلك رحمةً بالجميع .

ولما مرَّت الأيام والشهور، حصد المسلمون نتاج حكمة رسول الله ﷺ، وأيقنوا تمام اليقين أنه مختلفٌ في حكمته ونظرته عن الخلق أجمعهم، وأن هذه الحكمة باطنها الرحمة التي أرسله الله بها للعالمين .

وأدرك عمر بن الخطاب أنه بالغ كثيرًا في تقدير الموقف، فكان يكثر الصوم والصدقة كفارة لما بدر منه خوفًا من غضب الله عليه.

واستسلم سهيل بن عمرو لحكمة رسول الله ﷺ الفريدة يوم الفتح، فأسلم منبهرًا بما آلت إليه بنود العقد المحكم، وكان قد ظن قبل عامين أنه حاصر بحكمته انتشار الإسلام ونبيه، ففاجأته الأيام بحصار النبي لمكة من جميع الجهات!!...

فآمن للنبي ﷺ معترفًا بأن حكمته ـــ هو وغيره ـــ لا شيء مقارنة بحكمة رسول الله ﷺ المدعَّمة بالرَّحمة الإلهية.

ولو أن سهيلًا لاحظ نجاحه في إخضاع النبي ﷺ ببنود الحديبية لما آمن أبدًا، ولبقي على دينه يدافع عنه إلى آخر رمق، ولقال بأعلى صوت « إن محمدًا كذَّاب، ولقد غلبت حكمتنا حكمته يوم الحديبية، وانظروا إلى النتائج لتعرفوا الحق من الباطل »...لكن سهيلًا لم يقاوم !!

لقد علم أنه كان على خطأ حينما رفض أن يكتب في العقد « محمد **رسول الله** »...وأنه كان بليدًا حينما أجاب مغترًّا بفطنته...« **واللهَّ لو كُنَّا نَعْلَمُ أَنَّكَ رَسولُ اللهَّ ما صَدَدْنَاكَ عَنِ البَيْتِ، ولَا قَاتَلْنَاكَ، ولَكِنِ اكْتُبْ «مُحَمَّدُ بنُ عَبدِ اللهَّ »**...

**الآن علم سهيل أنه رسول الله، فلم يصدَّه عن البيت، ولم يقاتله، إنما ذهب إليه مؤمنًا به وبدينه الحنيف، ثم أصبح**

**واحدًا من جنده الشريف .**

فأصبح واضحًا أن صلح الحديبية كان علامةً فارقةً في التاريخ الإسلامي، وأن قول الله تعالى لنبيه ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ**﴾ .

قد تجلَّى أكثر ما تجلَّى في هذا اليوم العالمي .

# الخاتمة

إن خلاصة ما توصلنا إليه ـ بفضل الله وحده ـ أن الله تعالى يوجِّه نبيَّه ﷺ لشيء واحد في خطابه العظيم «**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ**»...

ذلك الشيء هو...تصرَّف برحمة.

إن جهِل عليك الناس...تصرَّف برحمة .

إن وجدوا في أنفسهم منك... تصرَّف برحمة .

إن أساؤوا فهمك... تصرَّف برحمة .

إن أساؤوا إلىَّ... تصرَّف برحمة .

إن أساؤوا لأنفسهم... تصرَّف برحمة .

إن تآمروا عليك... تصرَّف برحمة .

إن جبنوا على العدو... تصرَّف برحمة .

إن تجبَّروا عليك... تصرَّف برحمة .

وقد نجح رسول الله ﷺ في جميع مواقفه في إيصال الرحمة للخلق بالطريقة التي أرادها الله منه .

**فالحمد لله على نعمة رسوله الرحيم**

# فهرس الموضوعات


مقدمة.......................................... ٥

الحياة قبله ................................... ٧

رحمتـــــه بأهلـــه ﷺ................................ ٩

ظهور الرحمة ................................... ١٠

أولًا...الرحمة بعبد الله.... .......................... ١٧

ثانيًا...الرحمة بعبد المطلب.... ...................... ١٩

ثالثا...الرحمة بأعمام رسول الله ﷺ..................... ٢٠

رابعا...الرحمة بالناس جميعا......................... ٢١

آمنة.......................................... ٢٥

رحمات بعد الموت ............................... ٣٤

أبو طالب ..................................... ٣٦

أبو لهب ...................................... ٤١

جانب من بركته ﷺ ................................ ٤٥

حليمة السعدية.................................. ٤٦

هلاك وشيك..................................... ٥٨

سلمان الفارسي .................................. ٧٠

لست وحدك يا سلمان.............................. ٨١

**نفحة من تواضعه ﷺ.................................... ٩١**
**زاهر وجليبيب .................................... ٩٢**
أولا :رحمته بزاهر .................................... ١٠٠
ثانيًا : رحمته جليبيب.................................... ١٠٣
**أنصار حنين .................................... ١١٠**
أولا..... التذكير بسابق النعم... .................................... ١١٩
ثانيا....الإعتراف بفضلهم .................................... ١٢٠
ثالثا.... ثقته في اختياراتهم وإيمانهم .................................... ١٢٤
رابعا....مكافئتهم على إخلاصهم.................................... ١٢٨
**البساطة .................................... ١٣١**
لمحة من شجاعته ﷺ.................................... ١٣٣
**الصدع بالدعوة .................................... ١٣٤**
**ليلة عاشتها المدينة.................................... ١٤٩**
حمَّال المسؤولية .................................... ١٥٢
تهدئة الأجواء..................................... ١٥٥
إشغالهم في أمر آخر ... .................................... ١٥٦
**شهادة صحابي .................................... ١٥٩**
رحمته بالأصحاب ... .................................... ١٦٢
رحمته بالأعداء .................................... ١٦٤
**لقطة من حلمه ﷺ.................................... ١٧٠**

فظاظة الأعراب ........................ ١٧١
رحمته ﷺ بالعُصاة........................١٩٩
يد العون ........................... ٢٠٠
النبي الحامي... .......................... ٢١٠
النبي المُعِين.............................. ٢١٢
النبي المُحبّ.............................. ٢١٤
ماعز والغامدية .......................... ٢١٦
رحمته بماعز . ........................... ٢٢٧
رحمته بالغامدية . ......................... ٢٣٢
رحمته بالمسلمين ......................... ٢٣٦
شيء من حكمته ﷺ........................ ٢٤٢
العقبة................................. ٢٤٣
التماس الأعذار............................ ٢٥٩
حسن الاختيار ... ......................... ٢٦١
استبقاء الأمل ............................ ٢٦٤
صلح الحديبية............................. ٢٦٩
الخاتمة................................. ٢٩٨

صفحة المؤلف على الفيس بوك
Email : Mohammed saied khidr